الموت للموت

رواية

تأليف

أحمد فاروق الهجين

طبعة ٢٠١٩

الهجين، أحمد فاروق

الموت للموت: رواية / أحمد فاروق الهجين؛- الجيزة: أطلس للنشر والإنتاج الإعلامي، ٢٠١٨ .

٣٤٠ ص, ٢٠ سم

تدمك: ٦ ٧١٠ ٣٩٩ ٩٧٧ ٩٧٨

١- القصص العربية

أ- العنوان

٨١٣

الموت للموت

رواية

تأليف

أحمد فاروق الهجين

رئيس مجلس الإدارة

عادل المصرى

عضو مجلس الإدارة

المنتدب

نوران المصرى

رقم الإيداع

٢٠١٨/٢٠٠٩٢

الترقيم الدولى

٩٧٨-٩٧٧-٣٩٩-٧١٠-٦

الطبعة الاولى

طبعة ٢٠١٩

الكتاب :الموت للموت

المؤلف : أحمد فاروق الهجين

الغلاف : عصام محمد

الناشر: أطلس للنشروالإنتاج الإعلامى ش.م.م

٢٥ ش وادى النيل – المهندسين – الجيزة

sales@atlasdic.com

www.atlas-publishing.com

تليفون : ٣٣٤٦٥٨٥٠ – ٣٣٠٤٢٤٧١ – ٣٣٠٢٧٩٦٥

فاكـــس : ٣٣٠٢٨٣٢٨

****

(١)

حين رفع جند النهار راية التسليم لجحافل الليل الباطشة، كانت المدينة كلها قد هوت فى لجة الظلام ، وأهوت سحب السماء الداكنة قرص الشمس البارق فى مياه البحر الزرقاء ، لم يكن منظر الغروب جميلاً كما تعود أن يراه دائماً ، لقد كان مقبضاً هذه المرة وحزيناً ، هذه الظاهرة الجديدة بالنسبة له الفريدة فى نوعها رسمت خيوطاً ثقيلة من الدهشة على جبينه ، فلقد تعود فى أكثر أيام حياته على الخروج من بيته فى منطقة الابراهيمية سيراً على الأقدام لمشاهدة هذا المشهد الإلهى البديع ، مشهد الغروب ، وما أن يقترب من حافة البحر حتى كانت الأمواج تندفع صوب قدميه كقطعان من الكلاب الوفية التى هرولت لتلثم قدمى صاحبها ، فيشدو بصوت عذب لايسمعه إلاه ومعشوقته مياه البحر وهو يتلقى زخاتها المتناثرة على صفحة وجهه : هلت ..هلمى ..أسرعى بالأحضان نلتقى .

زرقة مياه البحر ورائحتها المنعشة ، الممزوجة برائحة الزفارة وذرات رمال القاع الندية ، عكسن ألق الطبيعة حين تتلاحم الخيوط كلها فى لوحة واحدة مع السماء وقرص الشمس الذهبى الكبير وقد شارف على القفز إلى الأعماق ، حينذاك علت وجهه ابتسامة ما ، عندما استدعت ذاكرته صورة طفولته الوديعة وقد فر هارباً من قبضة يدي أمه وأبيه ، كان يتصور أن فى إمكانه أن يسبح فى اتجاه هذا القرص الذهبى الكبير ، ويلامسه بأطراف أصابع يده الرقيقة ، ولكن ضحكات

والديه المسترسلة ، وهتافهما به أن يعود ، لأنه من المستحيل أن يحقق مثل هذا الحلم الأسطورى، وحين كبر قليلاً ، واشتد ساعده عن ذى قبل ، قرر أن يسبح بكل ماأوتى من قوة حتى يبلغ مرمى الأفق الدامى ويلامس قرص الشمس بيديه ، يومها ابتعد كثيراً عن الشط، وأطلقت أبواق التحذير والاستغاثة وعلت أصوات مرتادى الشاطئ «غريق».

لم يمت يومها ، كما لم يمت حبه لهذه الصورة الرائعة ، والتى ظل يحبها طويلاً ، ويتلهف على مشاهدتها كل يوم بلاانقطاع، وتراوده الرغبة والحنين من آن لآخر لتكرار محاولة الأمس والسباحة حتى يلامس قرص الشمس ، وكان الشئ الذى صدمه حينها ، أن الأمر كله لم يكن سوى خدعة بصرية ، فالشمس لاتنزل البحر لتسبح ولا لكى تضئ للسمك كما كان يتصور ، بل إنها بعيدة كل البعد عن كوكب الأرض مسافة ملايين الملايين من الأميال ، ولكن الشئ الوحيد الذى خرج به من هذه التجربة القاسية حينها ، وأصبحت شيئاً فشيئاً فلسفة حياته الضارية : أن كثيراً من الأشياء التى نتوهم أنها حقيقة فى حياتنا ليست إلا وهم كبير ، عملية خداع بصرى ليس أكثر ، ومحض صور زائفة مجردة من الحقيقة ، ولكن مرت الأيام تباعاً ، ووقف الصغير الذى أضحى شاباً يافعاً أمام هذه الفلسفة وجهاً لوجه، بل وصل الأمر بينهما إلى حد النقطة الحرجة ، وأن أيهما كان لزاماً عليه أن يصرع الآخر فى قلب المياه الهادرة حتى يكتب له البقاء ، فبقاء الفلسفة وبقاء الإنسان نفسه معاً مستحيل ، فالفلسفة عقدت وجود الانسان ، والانسان عقد الفلسفة عندما تمادى فى الصور والتخيلات الوهمية ، ولكى يمنحها هالة من القدسية ادعاها فلسفة الوجود ؛ وهى ليست

بفلسفة ، بل عبث فى عبث ، وربما بمثل هذه الأحاسيس المعقدة التى اعتملت فى نفسه بضراوة بالغة وبخاصة فى ذلك اليوم المقبض ؛ لم تظهر له صورة الشمس وهى تلقى بنفسها فى فاه البحر الوحشى الكبير بجمالها وألقها المعتادين ، بل كان منظراً مقبضاً للغاية ، لم ير فيه غير الفناء والدماء المنبعثة كشلال جارف من ضوء قرص الشمس الدامى .

كانت منذ زمن ليس بالبعيد بعض خصلات الشعرالبيضاء مالبثت ان نبتت وتكاثرت فى جانبى شعر رأسه الأسود الناعم، ثم سرعان ماالتفت كهلالين حول أذنيه اللتين تحملان بصفة مستمرة ذراعى نظاراته الطبية السميكة ، كما لم يسلم شاربه الأسود الرقيق من وجود البعض من هذه الشعيرات البيضاء عند أطرافه ، التى استطالت وتناثرت بلااعتناء فوق شفتيه الحمراوين اللتين بدتا وكأنهما مرسومتين بريشة فنان بارع فى صفحة وجهه الخمرى الوسيم ، وكانت هيئته وهو عائد من عمله آخر كل نهار وقد لف كوفية داكنة اللون حول عنقه تضفى عليه عشرات إضافية من السنين إلى عمره الحقيقى ؛ والذى لم يكن قد تخطى بعد الأربعين سنة ، وبخاصة عندما كان يرفع رأسه لأعلى لحظة ارتقائه رصيف تلك العمارة القديمة التى كان يقطن فى إحدى أدوارها العالية لكى يرى مَنْ من أبنائه يقف متلهفاً فى شرفة المنزل فى انتظار عودته ، ولكن لم يكن أحداً فى انتظاره كالعادة ، ولقد كانت هذه اللحظة القاسية كفيلة بأن تحوله إلى شيخ بلغ من العمر أرذله ، مصمص شفتيه حسرة وهو يتذكر بهية زوجته حين عاد يوماً ما مبكراً من عمله فوجدها واقفة بالصدفة فى الشرفة ،

ومـاأن وقعـت عيناهـا عليـه حتـى انسـحبت مسـرعة إلـى الداخـل ، فلقـد كانـت فلسـفتها معـه فـى الحيـاة ألا توليـه أى أهميـة ، كان يظـن فـى بعض الأوقـات أن لهـا قلبـاً أبيضـاً طيبـاً ، ولكنـه فـى الوقـت ذاتـه كان علـى يقـين مـن أن هنـاك مـن شـياطين الإنـس مـن صـور لهـا أن إظهـار اللهفـة علـى الـزوج والاهتمـام بـه تلبسـه ثـوب سـى السـيد اللعـين ، وربمـا ورث عنهـا الأبنـاء مـن كبيرهـم وحتـى صغيرهـم هـذه السياسـة أو الطبيعـة الجافـة، طبيعـة كانـت لاتشـبه طبيعتـه هـو بـأى شـكل مـن الأشـكال ، كان رقيقـاً وعطوفـاً، نقـى الجوهـر، وأبيـض القلـب ، مسـالم إلـى حـد أنـه لـم يفكـر مطلقـاً فـى اللجـوء إلـى سياسـة المعاملـة بالمثـل ، وأن يـرد الصـاع صاعـين لبهيـة وغطرسـتها اللعينـة، ولأبنائـه الذيـن كانـوا يهينـون كبريـاءه بالغفلـة تـارة وبالعمـد فـى أغلـب التـارات الأخـرى ، بـل كان علـى العكـس مـن ذلـك تمامـاً ، يظهـر كل آيـات الحـب والاهتمـام بأسـرته، ويبـدى انزعاجـه الشـديد إذا مـرض أحدهـم أو تأخـر فـى الخـارج ، كمـا كان لايهـدأ لـه بـال ولايسـتدير مـن أمـام الشـرفة المطلـة علـى الطـريق حتـى يطمئـن قلبـه إلـى عـودة الغائـب منهـم ، فيبـادر مهـرولاً إلـى خـارج المنـزل ليلتقـى الغائـب أيـاً مـن كان لحظـة نزولـه مـن المصعـد الحديـدى القـديم ذى الأزيـز المزعـج ، ثـم يحتويـه طويـلاً فـى حضنـه ، ويبثـه الأشـواق والدمـوع المفعمـة بالاحاسـيس الرقيقـة، وذات مـرة كانـت بهيـة هـى ذلـك الغائـب ، فدفعتـه بيدهـا مـن بطنـه دفعـة آلمتـه وهـى تؤنبـه أنهمـا لـم يدخـلا بعـد إلـى شـقتهما، فأومـأ إليهـا برأسـه معتـذراً وهـو يلاحقهـا إلـى الداخـل ويخبرهـا أن قلقـه الشـديد عليهـا قـد أنسـاه نفسـه ، وكـم مـن مـرة ابتدرتـه بنبـرة عتـاب وتحذيـر موجعـة، وأنهـا ترفـض مثـل هـذا الحصـار اللعـين المفـروض علـى

حركاتها وسكناتها كلما غدت أو راحت ، فجعل يهرول فى أثرها بعد أن اندفعت كالسهم إلى حجرة نومهما ، وقد ارتسمت علامات الدهشة البالغة على تقاطيع وجهه الأربعينى ، وهو يحاول فى الوقت ذاته أن يلفت نظرها بشتى الطرق إلى أنها قد أعطت الأمر أكبر من حجمه بكثير ، وأنه لم يقصد البتة مضايقتها بل كان كل مايحاول إظهاره لها هو الاهتمام والحب والقلق الحقيقى عليها ، وحين دنا منها ذات مرة وقد شرعت فى خلع ملابسها وبدت شبه عريانة ، تجهمت ، وصدت تقدمه نحوها بإشارة من كف يدها التى صدرتها بجفاء جم فى وجهه وكأنما لتخبره بنبرة خشنة لم تفه بها صراحة ؛ وأنها لارغبة لها فيه ، ولافيما يدور فى رأس الرجال حين يرون امرأة عارية ، فتسمر عدنان فى محله، ولوح بيديه فى الهواء عدة مرات ، وفتح فاهه عن آخره دهشة ، وعرت تقاطيب وجهه الطفولى الطيب ابتسامة الخجل والعجب معاً، فهو لم يرم إلى شئ مما جال فى خاطرها بالمرة ، ولم يجد مفراً البتة من الخروج من هذا الموقف السخيف الذى وضعته فيه بهية، فتمدد وتقزم فى نفسه ، وود من كل قلبه لوكان دخاناً يتلاشى ليهرب من تلك النظرة السخيفة التى كانت تسددها إليه بهية آنذاك ، بعدها استدار على كعبى قدميه فكاد يسقط أرضاً وقد فكر فى المضى فى كل الاتجاهات دفعة واحدة .

كان عدنان من قلائل البشر الذين إذا أسندوا رءوسهم إلى الوسائد ناموا ملء العين والجفن ، لايفكرون فى شئ مماكان أو سيكون، ثم يصبحون وكأنهم صفحة بيضاء صافية لم يكتب فيها شئ بعد ، ولكن بهية كانت على العكس منه تماماً ، تنام ورأسها يغلى كالمرجل ، وتحمل

الأشياء فوق ماتحتمله ، ولهذا كانت علاقة الزوجين فى قطيعة شبه دائمة ، ولعل الأبناء كانوا هم ضحية هذه العلاقة المتوترة ، ولم تشفع للأب عندهم رقة قلبه ولا هذه الطبيعة النقية ، فضلاً عن كل هالات الحب والحنان التى كان يحاول أن يضفيها على بيته العتيق فى كل شئ ، بل لم ينجح فى استقطاب أحد من ولديه يوسف أو مالك ، أو حتى ابنته الوحيدة مليكة ، بل صدموه بسخريتهم اللاذعة من عشقه المفرط لمنظر الشمس وهى تذوب كالقرص البرتقالى الفوار فى البحر السكندرى العظيم ، كان البحر بالنسبة للولدين المراهقين مجرد وسيلة تقلهم إلى العالم الآخر الذى يحلمان به ، الشاطئ الغربى حيث الثراء الفاحش والوجه الحسن ، بل كانت سخريتهما ثقيلة على قلبه أكثر مماتصور حين كانا يصدانه عن التمادى فى وصف مصر بأم الدنيا، وهل تظل الأم أماً إلى الأبد ، ألم تصبح جدة عجوز بعد ؟!، يومها ارتمى على حافة الشاطئ يبكى رحيل أمه وأبيه ، وهو فى غاية الوجل والرعب من أن ترحل أمه الأخرى ، فمن قال أن الإنسان يولد من رحم واحدة ، بل من رحمين اثنين ، يخرج من أحدهما ، ثم يعيش ويدفن فى الآخر، كان بكاؤه المرير حين تركه الولدين ذات مرة وهو منهار بشدة على الشط لايشفع له عندهما كى يعودا إليه ليواسيانه ويطيبا بخاطره الكسير ، حتى الفتاة الصغرى مليكة لم يعجبها الحال النكد ، وهرولت لاحقة بأخويها لكى يستقلوا عربة الترام المتجهة إلى الإبراهيمية ، وعينا الأب تلوذان بالمجهول الذى يخفيه فى قلبه العميق، وكأنما يناشده أن يبح بالسر المستور ، وأن يدريه ماذا قد كتبت عليه الأقدار ، وماذا عليه أن يفعل فى حياته الآتية ، والتى كانت تمضى

به بلاريب عكس سعيه ومراده الحقيقى من الحياة ، وسرعان مادوت فى أذنيه كلمة «رفيق» قريب زوجته بهيه وصاحبه فى آن واحد ، يوم جلسا معاً يلعبان الطاولة فى مقهاهما المفضل فى حى الأنفوشى الشعبى ، والذى قال له وهويضرب بشدة القشاط فى الجانب الخشبى للطاولة :

– طلقها .

– أطلقها !؟.

– أجل ، أو عش حياتك قبل مماتك .

قالها بخبث وهو يغمز بإحدى عينيه ضاحكاً ، وهو يلقى فى الوقت ذاته بالنرد فى زاوية الطاولة الخشبية ، فرمقه عدنان بنظرة بالغة الدهشة ثم قال :

– أتنصحنى بذلك وبهية قريبتك ؟!!.

– هى لم تترك باباً أمامك إلا وأغلقته بالضبة والمفتاح ، الأحسن لكليكما أن يذهب كل منكما إلى حال سبيله ، يبدو أنها تخطط لحياتها بطريقة أخرى .

لحظتها أغلق صندوق الطاولة بعصبية بالغة وهو يقول :

– رفيق أرفض هذا التلميح الدنئ بشكل قطعى .

– فكر فربما تكون هذه هى الحقيقة .

- لا ، كانت ستصارحنى ، فأنا أعرف طبيعتها جيداً ، ثم ماذا عن الأولاد ، وماذنبهم ؟.

- لهم رب اسمه الكريم ، والشرع يبيح لك كل الشئ الطلاق والزواج مثنى وثلاث ورباع ......

فقاطعه عدنان بنبرة حازمة وقال :

- والشرع يطلب منا أيضاً الصبر «ولئن صبرتم فذلك من عزم الأمور»

- نحن نتكلم عن زواج لا عن حرب ، وان كان الأمر مع بهية أكثر عنفاً وحدة من حروب الدنيا مجتمعة ، الله يجازيه عمى منصور فى تربته ، كان تاجراً نبيهاً ، وكان حاذقاً جداً فى الترويج لبضاعته البائرة ، ولقد حاول أن يزوجنى منها ولكننى قلت له وقتها : ابحث لها عن مغفل آخر غيرى ، ولكن الشهادة لله ، أنت لست مغفلاً بل أكبر المغفلين هاهاها .

قالها وهو يقبض بيده المكتنزة على كتف عدنان وكرشه يتأرجح على بطنه كالكرة المطاطية من فرط الضحك ، ثم استطرد قائلاً ولكن بنبرة جادة هذه المرة :

- لقد حذرتك كثيراً لكن أنت كنت عنيداً ، وبهرت على مايبدو بجمالها الزائف .

صمت عدنان طويلاً ، وكأنما يسترجع شريط ذكريات الماضى فى مخيلته ، ثم قال بنبرة أشبه بالهمس وهو يأخذ نفساً عميقاً للغاية :

- لـم يصادفنـى فـى حياتـى مايسـمونه الحـب ، الحـب خـداع بصـرى يلـوح للمـرء بوجـه وهـو فـى حقيقتـه متشـح فـى داخلـه بألـف وجـه آخـر لانـراه ، أمـى كانـت دائمـاً تقـول لـى : النسـاء مثـل الزئبـق لايمكـن الإمسـاك بهـن بسـهولة ، وأن مـن هـم مثلـى ليـس لهـم سـوى الـزواج التقليـدى ، زواج الصالونـات .

صمـت عدنـان طويـلاً وبـدا فـى غايـة الشـرود المشـوب بعتـاب داخلـى يشـبه جلـد الـذات ، ثـم نهـض واقفـاً وهـو يطلـق تنهيـدة حارقـة مـن جوفـه المسـتعر : - أنـت كـم حذرتنـى ، لكننـى تصـورت أننـى أملـك عصـى موسـى وسـليمان التـى تفعـل المعجـزات .

مضـى عدنـان يضـرب فـى فلـوات نفسـه علـى غيـر هـدى ، وغيـر منتبـه لهتـاف ثلـة الأصدقـاء بـه كـى يرجـع والذيـن تجمعـوا فـى المقهـى حـول رفيـق وحتـى سـاعة متأخـرة مـن الليـل ، كان هـو أثناءهـا يجلـس علـى صخـرة ناتئـة بجـوار حبيبـه البحـر ، ولـم يكـن يتصـور أن العـد التنازلـى لحياتـه قـد بـدأ مبكـراً علـى هـذا النحـو المتسـارع ، نظـر فـى شاشـة هاتفـه المحمـول وهـو يمنـى نفسـه أن يكـون أحـداً مـن ولديـه أوابنتـه أو حتـى بهيـة نفسـها قـد طلبـوه لكـى يطمئنـوا عليـه ويستفسـرون عـن موعـد عودتـه ، ولكـن شـيئاً مـن هـذا القبيـل لـم يحـدث ، أحـس بقلبـه يعتصـر ألمـاً ، وبوحدتـه فـى الحيـاة تـزداد سـطوة علـى نفسـه ، وبخاصـة بعـد فـراق والديـه وهجـرة شـقيقيه وشـقيقته إلـى خـارج القطـر أوداخلـه ، راح يطلبهـم الواحـد بعـد الآخـر بهاتفـه المحمـول ، لكـن أحـداً منهـم لـم يجبـه ، سـعاد اختـه الوحيـدة التـى تعيـش مـع زوجهـا وأسـرتها فـى أسـيوط هـى التـى ردت عليـه بصـوت

مثقل بالنعاس ، فبادر عدنان يعتذر إليها بشدة ويطمئنها إلى كون كل شئ يمضى على مايرام ، وأنه طلبها خطأً ، لم يسمع صوتها أو بالكاد سمع صوت تثاؤبها على الطرف الآخر وهو ينهى معها المكالمة ، كانت سرعان ماعادت تتلاشى وراء أسوار عالمها البعيد مرة أخرى ، فيما بقى هو قريباً من الشاطئ متصلباً كتمثال جرانيتى يصغى لخطوات الحياة الرتيبة ، والتى كانت تطلق أنيناً حزيناً يشبه صوت بندول ساعة الحائط ، صوت راح عدنان يقلده وقد دفن عينيه فى قلب مياه البحر الساجية أمامه :

- تك تك ، تك تك .

كان فى صباه قد فكر كثيراً فى أن ينزل إلى قاع البحر فى مثل هذا الوقت المتأخر من الليل ليفتش عن الشمس الغارقة ، الشمس التى شاهدها بعينيه وهى تهوى فى لجته اللازوردية ، ولقد كان جاداً فى نيته ، فهو لايطيق الظلمة ، لايطيق الجفاء ، لايطيق الوحدة .

●●●

(٢)

كان عدنان يعمل موظفاً إدارياً فى إحدى الشركات الخاصة الكبرى ، والتى ترتبط طبيعة عملها بالشحن والتفريغ والاستيراد والتصدير ، ومع طليعة صباح كل يوم كان ينهض مبكراً جداً لمشاهدة لحظة الشفق ، والظهور التدريجى الرائع لقرص الشمس فى عنان السماء وهى تشرق بأشعتها الساحرة على الوجود ، ثم يتجه بعد ذلك إلى الكورنيش مباشرة ، ويتوقف قليلاً أمام محل سلطان لتناول طبقه المفضل الساخن من البليلة بالحليب والزبيب ، وقلما كان يفوته وهو فى الطريق شراء جريدة الأهرام وفر صفحاتها بسرعة أثناء سيره فى اتجاه محطة الترام ، والذى اعتاد أن يقله منذ سنوات طويلة إلى مقر عمله القريب من محطة سيدى جابر، وذات مرة وهو فى الطريق رن هاتفه المحمول رنيناً متصلاً ، خمن فى نفسه سريعاً وهو يطوى الجريدة والمظلة تحت إبطه ، أنه ربما يكون أحد زملاء العمل يطلبه كالمعتاد ، أو مكتب رئيس مجلس الإدارة يطلبه لأمر هام ، أما بيته فلقد كان نادراً مايطلبه أحد من أفراد الأسرة أللهم إلا لطلب المال أو لقضاء حاجة من الحوائج الخاصة ، ولكن كانت النمرة التى تطلبه غريبة ولايعرفها، وكان من طبيعة عدنان أن يرد على الطالب ولوكان مجهولاً، فمن يدرى لعل المكالمة التى تفوت المرء ؛ هى مكالمة العمر والسعد والهناء ، أوالفرصة الذهبية التى تغير حياته من حال إلى حال ، هكذا كان يبرر عدنان دوماً لأصحابه سر عدم تجاهله لأية مكالمة هاتفية ،

وقليلاً ماكان يسلم من مزاح رفيق صاحبه والذى كان يداعبه قائلاً : «الجعان يحلم بسوق الخبز كما يقولون فى الأمثال ، المكالمات المجهولة دائماً مايكون وراءها مصائب ونوائب كبرى ، سلنى أنا ، فهى عندى مثل القنابل الموقوتة التى يدسها الأشرار خفية وبعيداً عن أعين الناس حتى تحدث أكبر قدر من التدمير !» .

كان رفيق مهرجاً للغاية ، وكان عدنان مخلصاً لطبيعته وفلسفته فى الحياة أيما إخلاص ، ولهذا لم يتردد لحظة فى إجابة الطالب ، فقال ولسان الفضول يسبقه :

- صباح الخير ، مَنْ معى ؟.

تأخر الصوت على الطرف الآخر طويلاً ، راح عدنان يصغى أكثر فأكثر وهو يلح على الطالب أن يتكلم ويفصح له عن هويته، وأخيراً جاء الصوت ضعيفاً للغاية وقد خالجته أصوات أنفاس ثقيلة الوطأة، لم يستطع عدنان أن يفسر شيئاً من أصوات الشوشرة التى ترامت إلى مسمعيه من ناحية الطرف الآخر ، فقطع السكة على الطالب وهو يتمتم مبتسماً :

- أى فائق أنت ، وهل هذا وقت مناسب للمعاكسات الهاتفية.

ولكن لم تمض سوى لحظات قليلة رن بعدها الهاتف رنيناً متصلاً بذات الرقم الذى طلبه قبل قليل ، وبلمسة واحدة من إصبعه قطع الخط فى وجه الطالب ، الذى لم يمل وظل يطلب هاتف عدنان مراراً وتكراراً ، والذى خرج عن شعوره وقد بات قاب قوسين أو أدنى من مقر عمله ، ففتح الخط وقال بعصبية من خرج على شعوره تماماً :

- اسمع أيها السخيف ، حذارِ أن تطلبنى مرة أخرى وإلا ....

- اسمع أنت ، ارجوك ، ارجوك ......

- ....

- اعتذر لمضايقتك ، أنا شبه غائبة عن الوعى ، طلبتك بالصدفة، ضغطت وأنا مغمضة العينين رقماً عشوائياً ، أنا أحتضر تقريباً ، أنا وحدى فى البيت ، وفى حاجة إلى من يسعفنى بسرعة ....

كان الصوت لامرأة عجوز ، وكانت حشرجة شديدة تتخلل مقاطع صوتها ، كما كان صوت أنفاسها المتقطعة يكاد يطغى على مخارج ألفاظها ، أصيب عدنان بالتوتر والقلق الشديدين ، ومن غير أن يدرى وجد نفسه يقطع الخط على المرأة العجوز ، فى البداية لام نفسه على هذا السلوك المشين ، ولكنه راح يواسى نفسه بكلمات رفيق صاحبه : « أولاد الحرام لم يتركوا شيئاً لأولاد الحلال».

حين استوى عدنان جالساً وراء مكتبه فى الشركة ، أحس بوخزات ضميره قد بدأت تعتمل فى نفسه كشكات الدبوس الحادة ، وبصوت ما ينبعث من داخله ، ويلومه على تسرعه ، وتخليه عن فك كربة العجوز التى استغاثت به : « لم تكن تعرفك، ولكن اللّٰه كان يعرف من أنت ، فساقها إليك ، ووضعها فى طريقك ، فتراك ماذا ستفعل إذا وقفت أمامه سبحانه وتعالى وذنب هذه المرأة المستغيثة يطوق عنقك ، وبخاصة إذا كانت قد لفظت أنفاسها الأخيرة وماتت ، فربما كنت أنت طوق نجاتها الوحيد ، الطوق الذى خذلها وبدلاً من أن يأخذ بيدها إلى بر الأمان خنقها ووضع نهاية أليمة لحياتها !!».

صرخ عدنان بعصبية مفرطة فى الساعى الذى أحضر فنجان القهوة إلى مكتبه ، ومن غير وعى دفعه من سبيله دفعة كادت تسقطه أرضاً ، واندفع إلى النافذة التى تطل على البحر ، وراح ينظر فى الوقت نفسه فى شاشة هاتفه المحمول عساها تطلبه مجدداً ، وبيده الأخرى أخذ يفك ربطة عنقه كالمخنوق وهو يقول بصوت كاد يسمعه من حوله موظفى الشركة : « ياإلهى ، أيغدو المرء قاتلاً هكذا ومن غير أية مقدمات ، أأتحمل وزر امرأة لا أعرفها ولاتعرفنى ، إمرأة لاأدرى يقيناً ماذا تضمره لى خيراً كان أم شراً ؟! ، أنا تصرفت بعفوية ليس أكثر ، توترى مما نسمعه ونقرأ عنه فى صحف ومجلات هذا الزمن الصعب هو الذى جعلنى جباناً هكذا ، ودفعنى لأن أقطع المكالمة على هذا النحو السخيف» .

لم ينتبه عدنان إلى الأيدى التى راحت تربت على كتفه من الخلف من آن لآخر ، والأصوات التى هتفت به طويلاً ، كان زملاؤه قد أحسوا بالربكة المفاجئة التى أصابت زميلهم عدنان فخرى ، كما كانت حاجة العمل تتطلب عودته إلى مكتبه على وجه السرعة ، ولكن عدنان لم يبال بشئ غير صوت خفى كان يدور فى أعماقه ويؤنبه بشدة ، ويطالبه بإصلاح خطئه ، وأن يبادر هذه المرة بطلب الرقم المجهول بنفسه ، ومعرفة ما إذا كانت هناك حقاً من تستغيث به أم أنها كانت مجرد مزحة سخيفة من تلك التى اعتدنا عليها فى هذه الأيام ، طلب عدنان النمرة مرات كثيرة جداً ، وجعل ينتظر طويلاً ولامجيب .

استأذن عدنان من عمله مبكراً ، بعد أن أحس بعدم جدوى بقاءه فى المكتب وهو على مثل هذه الحال القلقة ، ولم يكن فى نيته العودة إلى بيته فى عمارة الإبراهيمية العتيقة ، بل ظل سائراً على قدميه لفترة طويلة وهو لايدرى إلى أين سيذهب ، أو إلى أين ستقوده قدماه، الشئ الوحيد الذى كان يدهشه رغم قراره النهائى بخصوص مكالمة المرأة العجوز وأنها محض خداع سمعى لا أكثر ؛ هو انزلاقه اللاإرادى إلى طرقات فى قلب بلده والتى يعرفها حق المعرفة ولكنها كانت غريبة عليه تماماً ، ولم يشاهد لها مثيلاً من قبل فى حياته ، وكأنما قد ذاب جسداً وروحاً إلى ماوراء أسوار عالم آخر ، ومدينة أخرى .

ظل يمضى قدماً من غير أية حسابات مسبقة لمقاييس الزمان والاتجاهات وكأن شيئاً مغناطيسياً يسحبه عنوة إلى ناحية ما ، يسلبه إرادته ، يجعله لايأخذ خطوة فى اتجاه ما إلا بأمر سرى من جهة ما كان يجهل مصدرها تماماً ، حتى نفسه لم تكن هى تلك القوى الخفية التى تسلطت عليه ، فماذا يكن ذا إذن : «خداع نفسى ، من بين جملة الخدع البصرية والسمعية التى كان يفلسف بها الوجود وصورة الحياة!؟» ، هكذا راح يردد فى نفسه: «خداع خداع» .

كان رفيق عنتر من آن لآخر يقف بسيارته الفارهة الملفتة للنظر عند مدخل محطة الرمل أو بالقرب من النصب التذكارى الشهير، كان يرسل رأسه إلى الخلف ويغمض عينيه وقد جلس وراء مقود السيارة ، ثم يترك السنارة تصطاد له كيف شاءت إحدى الساقطات من عابرات السبيل ، واللائى تبهرهن السيارات الفارهة ، والرجال أصحاب الساعات والخواتم الذهبية السميكة اللامعة ، فكن يتعمدن

الإبطاء فى مشيتهن بجوار السيارة ، ورحن يلفتن نظر صاحبها بشتى الطرق والوسائل ، وربما وصلت البجاحة بإحداهن فراحت تنقر زجاج نافذة السيارة بطرف أصبعها ، أو تندفع داخلة من غير استئذان ، وكان رفيق إذا أعجبته واحدة من أولئك أو هؤلاء أخذها مباشرة إلى الشاليه الخاص به ، والكائن فى مكان متطرف ومعزول عن المدينة بأسرها ، وأمضى معها ليلة مفعمة بالنشوة والرقص والمجون ، أما إذا لم تعجبه شتمها ولطمها وأنزلها من السيارة وهى تجر أذيال الخيبة ، وتلعن اليوم الذى جاءت فيه إلى الحياة .

تململ رفيق فى جلسته وقد طال انتظاره فى السيارة من غير أن تصطاد سنارته بلطية واحدة ، كان هاتفه يحتوى على نمر بعض الساقطات ولكنه كان صاحب مزاج من نوع خاص يحب الجديد ، والمجهول ، ويتفنن فى اختيار من تصاحبه وتساكنه جسده وأنفاسه ، ثم لايلبث أن يفارقها إلى الأبد فالنسوة لسن فى ناظريه سوى سيجارة إذا فرغ المرء منها ، لايليق به أن يشعل عقبها مرة أخرى ، بل ليس لها سبيلاً بعد ذلك غير أن تلقى فى المرحاض ثم يشد عليها السيفون ، لتمضى إلى بالوعة الفناء الأبدى ، ولعله تذكر لحظتها صديق عمره عدنان والذى كان يقول له : لاتحب فى المرأة جسدها ولكن لتحب قلبها ، ولتحتفى برقتها، ولتوقد شموع الحب الأبدية لكيلا تمر بك لحظة تضيع فيها منك فرصة التملى فى وجهها السحرى ، لاتتحرش بها ولكن ادعها برقة كى تكون الساكن الأبدى فى قلبها ، من لم يعرف المرأة لم يعرف الحياة ، ومن لم يعرف الحب عاش حياته ميتاً وإن كان بروحين ويسعى على قدمين .

ضحك رفيق طويلاً وهو ينقر بأصابعه على مقود السيارة وهو يغمغم قائلاً : «هيه ، عدنان أيها الأبله المعتوه ، لا أعرف سبباً وجيهاً يدعونى لأن أظل صديقاً لك حتى هذه اللحظة ، أللهم إلا الغباء !».

ثم راح يهش بيده صورة عدنان من أمام مرآة خياله ، وهو يضحك مقهقاً :

- هش هش ، انصرف أيها المنحوس ، انصرف ، ودع الخير يأتى.
- هل أنت مجنون ، تضحك وتكلم نفسك .
- بالطبع مجنون بك ياقطة .
- هاهاها....

ضحكت فتاة الليل التى ظهرت له فى وضح النهار ضحكة رقيعة، ثم انطلقت السيارة تنهب أرض كورنيش الأسكندرية نهباً، كانت فتاة ملتهبة بحق ، وكاد رفيق ينسى نفسه ، وأنه يمرق فى الطريق وتستوقفه إشارات المرور واحدة تلو الأخرى ويشاهده مئات المارة ، فدفعت الفتاة المحترفة يده المكتنزة التى كانت تتسلل نحوها خلسة ومن تحت لتحت كأفعى سامة ، وجعلت تقول له بلؤم أنثى لعوب :

- لاتظهر أفضل ماعندك فى السراب أيها السمين .

كان عدنان قد بلغ شاليه رفيق بشق الأنفس وهو فى حال يرثى لها ، وقد فك رابطة عنقه ، وهاش شعر رأسه تماماً ، وكلحت بشرته من طول بقائه قريباً من مياه البحر أكثر ساعات النهار المشمسة ، كان الغروب قد آذن بالمجئ ،واستوت الشمس على طاولة الأفق وقد

اشـهرت سـاعديها الداميـين كمـن يتأهـب للقفـز فـى ميـاه البحـر ، خـداع بصـرى ، حتـى وجـود عدنـان فخـرى هاهنـا الآن ولمن لايعرفـه حـق المعرفـة سـيقرر علـى الفـور أنـه قـد تعـرض لعمليـة خـداع بصـرى ، حتـى رفيـق نفسـه لـم يصـدق أن عدنانـاً هـو مـن قـرع جـرس بابـه هكـذا ، وظـل يطرقـه بكلتـا يديـه طويـلاً وعلـى هـذا النحـو المثيـر ، المحـال نفسـه قـد يفعـل ذلـك أمـا عدنـان فخـرى فـلا وألـف لا !! ، رفيـق لـم يصـدق نفسـه وغمـز لصاحبـه أن يدخـل فالليـل خمـر ونسـاء وكل شـئ مبـاح ، بـل تمـادى فـى طمأنـة عدنـان، وراح يقسـم لـه بشـرفه أنـه لـم ولـن يفـه بكلمـة واحـدة تضـره أمـام بهيـة زوجتـه وابنتـه وولديـه ، جعـل يشـد عدنـان مـن سـاعده عنـوة ويجذبـه إلـى الداخـل وهـو يقـول لـه وكل أمـارات النشـوة والفجـور تطـق مـن عينيـه :

- ابـق هنـا لسـاعة واحـدة ليـس أكثـر ، أنـت تعـرف كـم يمـل صاحبـك بسـرعة ، ولـولا أننـى لاأحـب أن يـأكل أحـداً قبلـى ، لتركـت لـك فرصـة ذهبيـة تنهـش خلالهـا فـى لحـم أروع شـيطانة رأيتهـا فـى حياتـى .

هـز عدنـان رأسـه سلسـلة مـن الهـزات التـى لـم يعـرف لهـا رفيـق معنـى بعينـه ، فابتـدره متسـائلاً وهـو فـى عجلـة مـن أمـره :

- لِمَ حضـرت إذن ؟! ، أنـت تعـرف جيـداً أننـى لاآتـى إلـى هنـا إلا مـن أجـل الكيـف والنسـاء والخطيئـة .

ظـل عدنـان يهـز رأسـه هـزات لامعنـى لهـا وبـلا أى مدلـول وقـال مغمغمـاً وهـو يتصبـب عرقـاً :

- أقسم أننى لم يكن لدى أدنى علم بأنك تملك شاليهاً هنا فى هذه المنطقة ، أوانك تأتى إلى هذا المكان المجهول من أجل السكر والعربدة ، أنت عربيد وسكير أعرف ذلك جيداً ، ولكن كيف وأين تفعل ذلك ، أقسم لك لا أدرى لا أدرى .

- العصفورة هى إذن التى دلتك على مكانى هاهاها ؟!.

كان عدنان مضطرباً وغريباً فى هيئته وحركاته ، والذى راح يردد كالتائه عن الحياة :

- أقسم لك لا أدرى لا أدرى .

نظر إليه رفيق نظرة كلها دهشة ، فلقد كان صاحبه صادقاً فيما يقول ، فلم يكن كائناً من كان يعلم شيئاً بخصوص هذا المكان حتى أقرب الأقرباء إليه ، غير أنه ابتسم ، وضرب بظهر قبضة يده المكتنزة بطن عدنان وقال وهو يغمز له :

- على كل ابق هنا ، ثم لنبحث فى هذا الأمر فيما بعد .

ثم تركه وجعل يهرول مسرعاً فى اتجاه إحدى غرف الشاليه الموصدة الباب ، حيث كانت البغى فى انتظاره ممدة فى الفراش وقد تغطت بملاءة شفافة تكشف أكثر مما تخفى ، أما عدنان والذى دوت الضحكة المبتذلة فى صوانى أذنيه ، فقد انتفض فرقاً، وأحس بأن القوى السحرية مازالت مهيمنة عليه ، تلك القوى الخفية التى قادته من تلابيبه إلى تلك الناحية من غير وعى منه ولادرايه ، فماذا عساه سيفعل إن خرجت له تلك الشيطانة اللعوب وقد التحفت بكل أشكال الفتنة والبهرجة ، ورفيق يقف لها ظهيراً فى الغواية والفتنة ، كان عدنان شاباً ذا خلق رفيع ، لم

يقرب حراماً قط فى حياته ، وكانت صداقته لرفيق لاتتعدى حدود الكلام لا الفعل ، فأى قوة تلك التى قادته إلى هذا الفخ الشيطانى ، حاول عدنان أن يستعيد قواه المستلبة ، وشيطانه يراوده أن يبقى ، وأن ينل حظه من بغى حسناء ، فيروى عطش جسده ، ويسدد ضربة نجلاء فى قلب بهية التى أهانته كثيراً كإنسان أولاً ، ثم كرجل مكتمل الرجولة ، وكفاها أن تعرف بقرون استشعار الأنثى أن زوجها لم يعد لها وأن شيطانة قد شاركتها فيه، ولكن عدنان توقف فجأة عن الاسترسال فى مثل هذه الخواطر المقززة، فأى هراء هذا أن يكون الانتقام بالتمرغ فى وحل الرذيلة مع بغى دنيئة، وأى عطش ذاك الذى يروى ؛ وصاحبه يشرب من ماء نتن قذر ، لا من جدول عذب رقراق .

لم يفق عدنان إلا وهو يمرق خارجاً كالسهم من باب الشاليه، وهو لايدرى كيف جاء ، وكيف سيعود ، فلقد مشى وقد تبددت من تحت قدميه كل السبل ، أجل لقد حملته قوى خفية إلى هذا المكان الغريب، وعليها هى نفسها أن تعيده ، أو تجيبه لِمَ أتت به إلى هنا من الأصل، ولَمَ دعته أن يسلك سبلاً لايعرفها ولم ير لها مثيلاً من قبل ، وفجأة وهو يمضى متسللاً فى حلكة الظلام التى أخفت تفاصيل الوجود تماماً عن عينيه ؛ سمع صوتاً غريباً يأتى من ناحية ما ، حاول أن يفر بجلده مبتعداً من هذا المكان الكئيب بأسرع صورة ممكنة ، ولكن كانت الدوامة التى حملته وأتت بها إلى هذا المكان المعزول ؛ هى ذاتها التى منعته من الرحيل ثم طوحت به قريباً من إحدى الشاليهات المظلمة وحيث كان صوت الأنين مسموعاً للغاية فى هذه المرة .

●●●

(٣)

تردد عدنان كثيراً فى اقتحام إحدى الشاليهات المحكمة الإغلاق والكائنة فى نفس المنطقة ، وظل يلف ويدور من حوله لفترة ليست بالقصيرة ، كان على يقين من أن صوت الأنين ينبعث من داخل هذا الشاليه بعينه ، وفى الناحية المقابلة بدا شاليه صاحبه رفيق رابضاً كالوحش المتحفز فوق رابية مرتفعة قرب البحر الهائج ، الليل والريح والسكون رسموا صورة خيالية أمام ناظريه وفى مسمعيه ، وتصور لوهلة وهو يصغى تماماً لصوت الأنين المسترسل الضعيف ذى الصدى العجيب ، أن عملية خداع كاملة قد أصابت حواسه كلها ، وجعلت العين ترى صورة مغايرة للواقع تماماً ، والأذن تسمع مالايمكن سماعه ، وكادت تمسه نوبة جنون ، فكيف لأذنه ومهما بلغت بها درجة الرهافة مبلغاً عظيماً أن ترصد هذه الأنات الضعيفة بالرغم من ثورة الريح الجنونية الممتزجة بصوت أمواج البحر وهى تلطم صخور الشاطئ بضراوة بالغة، فهل يمكن لإنسان أياً كانت قدراته الخارقة أن يسمع صوت دبيب النمل فى مثل هذه الأجواء العاصفة أو حتى من غيرها، مستحيل !! ، والأمر لايمكن وصفه إلا بأنها حالة من حالات الخداع السمعى ، أو حتى الشيطانى ؛ والذى يريد أن يعيقه ويؤخر فراره من المنطقة بأسرها بأية وسيلة ، أما لماذا ؟!؛ فقد كان لايدرى جواباً لتلك الأحجية حتى هذه اللحظة العبثية، وسرعان مالبت الخواطر والخيالات الماجنة أصداء المخاوف الكامنة فى داخل نفسه ، الخوف

من أن يضعف ، وأن يرتمى فى أحضان البغى التى سبقه رفيق عنتر فى الفوز بقطاف ثمارها اليانعة ، ليست البكورية بطبيعة الحال ، إنما نداوة الليل مع أول زبون ، لابأس لابأس أن يحطم راية كبرياء الذكورية فى لحظة النشوة المحمومة ، وحتى أن لم تعنه هذه الساقطة على التخلى عن خجله الفطرى وقت كان فيه ظله الشبحى المرتعد يهيم فوق تمثالها العريان المسجى ، لقد كانت محض تمثال متصلب لايعنيه من قريب أو من بعيد من يعبث به ومن يعجز ، لقد كانت مجرد لعبة جنسية لاحياة فيها ولاروح ، ولهذا آثر عدنان ألايكون جزءً من أجزاء هذه الصورة الهلامية ، وكل مافكر فيه أن ينجو بجلده من دنس الخطيئة ، ولكن هاهو الصوت الأنثوى الضعيف يسترسل ، ليس إلى أذنيه ولكن إلى أحاسيسه الغامضة ، وأن هناك من يستغيث ، ومن غير أن يطول تفكيره زيادة عن اللزوم ، مال بجسده إلى الأرض والتقط حجراً ، فتكورت به يده ، وتلفت يميناً ويساراً كلص محترف ، ولم يتراجع عن كسر لوح نافذة الشاليه الزجاجية ، ثم مد يده فرسغه وثناه شيئاً فشيئاً من خلال الفرجة التى أحدثها فى اللوح الزجاجى، وبعد عناء بالغ نجح فى إدارة الأكرة من الداخل ، فانفتحت النافذة الزجاجية مع دفعات هواء البحر القوية على مصراعيها ، وبسرعة قفز إلى الداخل ، وقطرات من دم يده التى جرحها سن زجاج النافذة المهشم تلاحقه دون أن يدرى كلما خطى خطوة داخل الشاليه المظلم، لم يفكر عدنان فى البحث عن مقبس النور لئلا يلفت النظر إلى وجوده فى مكان لايخصه ، واكتفى باشعال خيط وئيد من ضوء شاشة هاتفه المحمول ، والذى تعمد أن يخفيها كلها بكف يده ، اللهم إلا ماسمح

بانبعاثه من خلال فرجة أحدثها بدقة بين إصبعيه السبابة والوسيط ، ولكن كانت المفاجأة له أن صوت الأنين قد انقطع تماماً .

فى تلك الأثناء ، وعلى بعد عشرات الأمتار من الشاليه الذى اقتحمه عدنان ، كانت سونيا متشحة بالملاءة الشفافة التى تكشف أكثر مماتخفى ، والتى ركضت مسرعة من ناحية الغرفة الزاوية فى أعمق مكان بالشاليه ، كانت تتلفت كالمجنونة حواليها وكأنها قد دخلت فى سباق مع الزمن ، وأخذت تفتش فى كل مكان عن مفتاح السيارة الفارهة ، وبعد مرور فترة عصيبة لمحت قريباً من باب الشاليه أطراف أسنان مفاتيح ذهبية وهى تلتمع بين داخل كومة من الملابس والغيارات الداخلية ، تنهدت متأففة وهى تقول بصوت هامس وتلتقط سلسلة المفاتيح فى الوقت ذاته :

- الزبون دائماً فى عجلة من أمره .

وسرعان مالملمت أشياءها وكل متعلقاتها داخل كيس بلاستيكى، ثم رحلت خارجة من الشاليه وقد شرعت تكمل ارتداء ملابسها وهى فى طريقها إلى السيارة التى أدارتها ، وانطلقت بها بسرعة الريح ، فانتبه عدنان بكل حواسه إلى الخارج ، والسيارة تمرق من بعيد بسرعة السهم ، فارتمى مختبأً وراء إحدى الستائر المعلقة خشية من أن يراه أحد ، ولم يفكر عدنان فى أى شئ لحظتها أللهم إلا فى يده التى كانت لم تزل بعد تنزف دماً ، وأحس عدنان أن جرحه النازف قريباً جداً من الأوردة ، وأن هذه الدماء المتقاطرة لن تتوقف من غير تدخل طبيب متخصص ، فقرر أن ينتظر قليلاً ثم ينسحب هارباً من المكان بأسره،

فلقد كان خجلاً من نفسه ، ولكونه قد حطم لصاحب المكان النافذة على هذا النحو العبثى ومن غير أى داع ، أللهم إلا وساوسه وتهيؤاته الفارغة ، فلاصوت أنين ولامستغيث فى الشاليه كما كان يتصور ، فهز رأسه سخرية من نفسه وهو ينظر فى الظلام إلى يده المصابة ، ولسان حاله يقول : يبدو أنه لابد أيضاً من الذهاب إلى طبيب نفسى ، فلقد أصبحت غير طبيعى بالمـــ......

ولكن شد انتباهه فجأة شئ ما ينبعث منه إشارات ضوئية متلاحقة ، كان هذا الشئ الذى يضئ ويطفئ ملقياً فى ناحية ما بعيدة داخل الشاليه ، وعلى الفور أخذ عدنان يتقدم نحو هذا الشئ وهو يكاد يتعثر فى ظلمة المكان ، وربكة الأشياء والأثاثات التى كانت متناثرة بشكل مريب فى الطريق قدامه ، وكلما حاول أن يغير مساره اصطدم بمزيد من قطع الأثاث المتناثرة ، وكان قد استبعد تماماً فكرة إشعال قابس النور لئلا يلفت إليه الأنظار، كما كان من العسير عليه أن يفتش عن هاتفه المحمول والذى لايدرى أين فقده فى هذا المكان المريب ، وبعد عناء شديد وسلسلة متوالية من العثرات والسقوط أرضاً، وصل إلى بغيته ، وراح يقلب بيده الأخرى غير الجريحة ذلك الشئ الذى يضئ ويطفئ ، ولكم كانت المفاجأة تفوق الوصف حين وجد أكثر من ثلاثين مكالمة هاتفيه منه هو شخصياً !!؟، قد رن بها هذا الهاتف المجهول ، فهاهى ذى شاشته لاتكذب ، تلوح من خلالها أرقام نمرته الشخصية، لم يصدق نفسه ، وجن أكثر حين طلب تلك النمرة الظاهرة على الشاشة ، ففوجئ أن الذى يرن هو هاتفه الشخصى والذى كان مندساً داخل جيب سترته الداخلى ، فارتعد فرقاً من المفاجأة فلقد

ظن أنه قد فقد هاتفه اللعين هنا أو هناك ، بل أنه كان متأكداً تمام التأكد أنه قد فتش نفسه أكثر من مرة ، وتحسس هذا الجيب بالذات مراراً وتكراراً بحثاً عن هاتفه ولكن دون جدوى !، ولكن فيما عساه يفكر ، ولماذا تأخذه الدهشة الصغيرة عن أم الدهشات، وأن نمرته مسجلة وتلوح أمام ناظريه على شاشة هاتف مجهول فى مكان مجهول، وربما فى عالم آخر مجهول أيضاً ، وليس هذا فحسب ، فالمفاجأة الأشد أن نمرة الهاتف المجهول التى ظهرت له على شاشة هاتفه هى ذاتها التى ظلت ترن له كثيراً فى صباح ذلك اليوم ، وسرعان ماتذكر العجوز التى استغاثت به صباحاً ، وكيف أنها أخبرته أنها طلبت نمرة عشوائية كى ينجدها ، وحين لام نفسه كثيراً لقطع مكالمتها خشية من أن تكون شراً يترصده ، ظل يطلبها كثيراً ، ولكنه لم يظن أبداً أنه قد طلبها كل هذا العدد من المرات ، فهز رأسه عجباً من الأمر ، وقد جعل يهذى فى نفسه وهو غارق فى دوامة من الألغاز : «هذه ليست مجرد امرأة مستغيثة ، إنها ساحرة بمعنى الكلمة، والأمر لم يأت بمحض الصدفة كما أخبرتنى ، بل هى قوى شريرة تغيبنى عن وعيي، وتجرفنى كل هذه المسافة الطويلة وتأتى بى إلى هذا المكان المجهول ، اللعنة اللعنة».

كان أول شئ فعله عدنان فخرى بعد الرعدة التى تملكت كل أوصاله ، وجعلته ينتفض فرقاً كمن أصابته حمى ، أن مد ساقه للأمام بغية الفرار وهو يسدد نظراته صوب النافذة التى قفز منها إلى الداخل ، ولكن حدث مالم يكن يتوقعه بالمرة !!.

غاصت قدم ساقه الممدودة فى شئ طرى ، وسمع على أثرها صرخة رهيبة ، فتراجع مسرعاً إلى الوراء وهو يرد الصرخة بمثلها، ثم أفاق بعد فترة من الذهول المتحفز لكائن من كان يكون قد لفتت انتباهه الصرختان ، صرختها وصرخته ، صرختها، أجل فلم تكن الصرخة التى دوت فى أنحاء الوجود الساكن غير صرخة امرأة ، وعلى الفور دفعه الفضول المعاند لتوجساته الحذرة لإشعال مصباح هاتفه المحمول، فوجد تحت قدمه إمرأة مسجاة مضرجة فى دمائها ، حتى خصلات شعرها الهائشة قد ألصقتها الدماء اللزجة بصفحة وجهها المختفى تماماً تحتها ، جثا بالقرب منها على ركبتيه وهو فى غاية الارتباك ، وبيد متوترة تقطر دماً راح يهزها برفق من ساعدها فصرخت ألماً ، فسحب يده على الفور إلى الوراء ، ثم بعد تردد أعاد الكرة ، ولكن مدها هذه المرة إلى خصلات شعرها المخضبة بحمرة الحناء التى لم تكن غير دمائها المتيبسة ، وأزاحها برفق عن صفحة وجهها التى كانت غارقة أيضاً فى الدماء ، دنا عدنان أكثر فأكثر منها وهو يهتف بها بصوت خفيض :

- سيدتى ، سيدتى .

ظل عدنان يهتف بالمرأة طويلاً ويتحدث إليها وحين أخبرها أنه سوف يطلب لها سيارة الإسعاف لنجدتها ، فوجئ بيد مرتعشة تحبو ببطء جم متسلقة على ركبته فساقه فيده التى كانت تقبض على الهاتف المحمول ، وقد ندت شبه حركة إباء من رأسها المحاطة بأكداس من قطع الأثاث المهشمة والمتناثرة هنا وهناك، فأدرك أنها لاتريده أن يفعل ذلك ، فقال لها :

- فكيف يمكننى مساعدتك إذن !؟.

- ....

لم تجبه ، وطالت لحظات الصمت .

كان قلب عدنان كعصفور جريح يرفرف بين أضلعه ، يريد أن يحطم قضبان قفصه الصدرى ، ويطير خارجاً من محبسه، لم يجد عدناناً أى تبرير منطقى لتلك الضربات المتوالية التى استرسل فيها قلبه ، وظن لوهلة إنه إن لم يحكم إغلاق فمه جيداً لطار من خلاله هذا القلب بعيداً بلارجعة ، فلقد كان يعلم أن قلبه مرهفاً ، وغير قادر على مواجهة مثل هذه المواقف الصعبة والغامضة فى آن واحد ، ولكن ماأدهشه حقاً أن مايبديه القلب من رد فعل غريب لايعكس حقيقة الصورة التى يراها ماثلة أمام عينيه ، عجوز مضرجة فى الدماء ، أنفاسها شبه متوقفة ، ترفض ميتة استدعاء أى وسيلة لإغاثتها ، هى لامحالة تحتضر ، والأمر كله لايعدو أن يكون مسألة وقت ، ومسافة لابد أن يقطعها ملك الموت حتى يصل فى الموعد الذى حدده لها اللّه، فمابال العصفور الذى يرفرف فى داخله ، ولماذا يدق قلبه هكذا ، وماشأن الورود والأزاهير ورائحة العبير التى تزكم أنفه ، فكيف تجتمع صورتان متناقضتان فى وقت واحد ، وكيف يجتمع الموت والحياة معاً إلا أن تكون هذه المرأة من أهل الجنة ، حتى هذا التفسير لايبرر مهجة القلب وهو يرفل فى حلة من نور وسط هذه الأجواء الدامية ، إلا أن يكون خداع قلبى هذه المرة ، أحس عدنان أنه لو تسنى له الحكم على قلبه لأصدر حكمه الفورى بإعدام ذلك الجهاز الذى أصابه الخلل

التام، فأى مجنون ذلك الذى يرقص طرباً فى مأتم، غير أنه تذكر فجأة مقولة قديمة لجدته : القلوب مثل الكلاب تشم رائحة من تحبه وهى على مسافة ملايين الأميال .

فعن أى حب وعن أى قلب ترسلين صوتك من بعيد ياجدتى ، وأنا غارق فى هذه الصورة الكئيبة ، دماء وكرب وحطام ، وساحرة غامضة تأسرنى بجانبها ، لاتمسك بى حقاً ولكننى مقيد بقوى خفية، ياإلهى أيكون هذا هو الشيطان يغرقنى فى متاهة من المتناقضات، حتى ألبى له رغبته ، وانساق كالأعمى خلفه ، وأغوص فى لحم البغى النجسة التى أحضرها رفيق عنتر اليوم، هه ، على الأقل هى شئ محسوس ، ملموس ، مفهوم ، لاغيابة هذا الجب السحيق المترع بالأوهام والمتناقضات الذى ابتلعنى ، ويأبى أن يلفظنى إلى خارجه ويخلى سبيلى .

طال الحوار فى سويداء نفس عدنان ، وكانت الضرورة تفرض عليه أن يغادر المكان فوراً ومن غير أى تلكؤ ، نظر ملياً ناحية السيدة الغارقة فى دمائها ، ثم أخذ أول خطوة نحو الخارج ولكنه فوجئ بشئ ما يمسكه من حذائه ، فتسمر فى محله ، ونظر ناحية المرأة التى يغطيها الدم ، وسلط عليها الشعاع المسترسل من هاتفه المحمول، وجدها قد رفعت ساعدها قليلاً لأعلى ، وتشير له فى الوقت ذاته بسبابة واهنة إلى الخارج ، كان من الممكن أن يتجاهلها ويمضى إلى حال سبيله ، ولكن شيئاً ما كان أقوى من رغبته بكثير يدفعه لكى يأخذ قراراً عكسياً .

كان الأمر شاقاً للغاية ، واضطر عدنان لبذل مجهود غير طبيعى من لحظة حمله المرأة على ذراعيه ، متفادياً قطع الأثاث الكثيرة المتناثرة هنا وهناك والتى اعترضت طريقه ، حتى بلوغه النافذة التى قفز منها فى البداية إلى الداخل ، فها هو يعيد الكرة ولكن إلى الخارج هذه المرة والمرأة ممدة بين ذراعيه اللتين كانتا تؤلمانه بشدة ، كانت الريح فى الخارج قوية وباردة ، وللمرة الثانية لمح سبابتها وهى تشير ناحية البحر .

بدا البحر هادراً مجنوناً وأمواجه عالية ، وكانت الأضواء التى تأتى من بعيد هى التى تلقى بغلالة شاحبة من الضوء ، والتى تساعد المرء بالكاد على الحركة ، وبالبرغم من أن الليلة كانت قمرية إلا أن السحب الكثيفة حجبت القمر عن الظهور الكلى ، وكلما هم عدنان الذى أجهد للغاية بوضع المرأة على أرض الشاطئ أشارت إليه بسبابتها أن يقترب أكثر فأكثر من مياه البحر ، فصرخ ليس بقصد الزجر وإنما لكى يمكنها سماع صوته فى وسط هذه الجلبة التى تثيرها عاصفة البحر الهوجاء :

– لايمكننى الاقتراب أكثر من ذلك وإلا سحبتنا أمواج البحر .

راح يطرحها برفق قدر الإمكان على أرض الشط ، ثم ارتمى قريباً منها وقد فرد ذراعيه عن آخرهما ، وتطلع إلى السماء وهو يلهث بشدة من فرط الإجهاد ، وبعد فترة من الوقت أدار وجهه ناحيتها ، كانت خصلات شعرها المخضبة بالدماء اللزج مازالت تخفى وجهها ، كذلك كانت ملابسها الدامية ملتصقة تماماً بجسدها ولم تفلح قوة

الريح العاتية فى تحريكها ؛ اللهم إلا أطرافها التى راحت أيدى الريح تعبث وتتطاير بها ، وكان أول ماجال بخاطر عدنان بعد ان استراح قليلاً أن يبدأ فى فك طلاسم هذه المرأة العجوز المسجاة بالقرب منه، فهب واقفاً ، ثم خلع سترته وألقى بها جانباً ، ثم خلع قميصه وجرى ناحية البحر غير مبال بلسعة البرد التى ضربت فى أوصاله ، أخذ مزقة من قميصه وبللها بالماء ، ثم عاد إلى المرأة البائسة ، وراح يزيح خصلات الشعر اللزجة عن وجهها ، وبقطعة القماش المبللة بدأ يغسل وجهها ويطهره برفق من الدماء ، فأطلقت المرأة تأوهة ألم طويلة ، فقال لها عدنان دون أن يتوقف عن عمله :

- تحملى قليلاً ، أعرف أن المياه المالحة مؤلمة مع الجروح والندوب التى تفترش صفحة وجهك .

الشئ المدهش الذى لاحظه عدنان أثناء عمله أنه كلما كشف جزءً من وجه هذه المرأة انكشف معه بالتبعية جزءً من وجه القمر، وخفق قلبه خفقاناً تصاعدياً ، لم يجد له عدنان سبباً جلياً حتى هذه اللحظة، ومأأن فرغ من مسح الدماء عن وجهها بالكامل، ثم تجفيفه بالجزء الناشف من قطع القماش التى مزقها من قميصه حتى كان القمر البدر قد ظهر كاملاً فى كبد السماء ، ولم تكن فى حقيقة الأمر هذه هى المفاجأة الوحيدة التى ألجمت عدنان وجعلته عاجزاً عن النطق تماماً لفترة طويلة !! .

لم يكن هناك أى وجود للمرأة العجوز ، بل أميرة بيضاء ساحرة الجمال فى ريعان شبابها ، عدنان لم يصدق نفسه ، أشعل ضوء المصباح

فـى وجههـا الـذى كان أجمـل كثيـراً ممـا يمكـن أن يتصـوره أى عقـل بشـرى، هــز عدنــان رأســه دهشــة وهــو يهمـس فـى نفسـه : « هـل مـا أراه بعينـى رأسـى هـو الحقيقـة أم أنـه اجتاحتنـى نوبـة مـن نوبـات خـداع البصـر التـى تنتابنـى مـن آن لآخـر ، ياإلهـى ، مـن فعـل بـك هـذا ياابنـة القمـر ، أى أحمـق هـذا الـذى تجاسـر علـى فعـل كل هـذه الأفاعيـل الوضيعـة بـكِ .

جعـل عدنـان يهزهـا برفـق وهـو يجيـل نظراتـه فـى قسـمات وجههـا المدهـش ، وسـألها هـذه المـرة بصـوت رقيـق وقلبـه يرفـرف بـين جنبيـه ، والـذى وصلـت دقاتـه إلـى المـدى الـذى لايمكـن احتمالـه:

- من فعل بكِ هذا ، ماقصتك ياجميلتى ؟.

كـرر سـؤاله ونوعـه مـرة ومـرات ولـم يتلـق إجابـة أو شـبه إشـارة منهـا، فتركتـه نهبـاً لمئـات مـن الأسـئلة والوسـاوس واسترسـلت فـى غيبوبتهـا ، ولعـل أكثـر الوسـاوس التـى هاجمـت رأسـه بشراسـة أن تكـون هـذه الفتـاة مـن فتيـات السـكك المنحرفـات ، التـى قادهـا مصيرهـا السـئ إلـى هـذا الشـاليه ، مـع ثلـة مـن الشـباب المجنـون المتحفـز للدمـار وتخريـب كل ماهـو نقـى وجميـل ، كان هـذا هـو الخاطـر الأكثـر تـردداً فـى نفسـه ، وكان أيضـاً هـو الأكثـر تطويحـاً بـرأس عدنـان وهـو يهـز رأسـه بـكل علامـات الرفـض والإبـاء ، وهـو يصـرخ فـى أعمـاق نفسـه : أن مـن رابـع المسـتحيلات أن يضحـى المـلاك شـيطاناً ، فهـذه الأميـرة النائمـة شـبه الفاقـدة للوعـى ليسـت إلا ملـكاً سـماوياً ، ملامـح وجههـا الرقيقـة تصـرخ بذلـك ، مـن المؤكـد أن لهـا قصـة بعيـدة كل البعـد عـن مثـل هـذه الوسـاوس القـذرة ، اللّٰه يلعنـه رفيـق وأشـباهه ، هـو وأمثالـه هـم مـن ألقـوا غلالـة الشـك المقيتـة هـذه علـى عينـي ، أمـا هـذه فلاريـب أنهـا بريئـة مـن كل عيـب، ومـن كل نقـص .

تطلع عدنان إلى صفحة السماء طويلاً وهو لايدرى ماذا عليه أن يفعل كى ينقذ هذه الفتاة الجميلة ، فكر فى أن يطلب سيارة الإسعاف ولكن كان قد استهلك كل طاقة هاتفه المحمول والذى بدا كجثة هامدة بلا حراك فطرحه غاضباً على الشط وهو يقول:

- اللعنة .

نام عدنان رغماً عنه فلقد كان فى غاية الإجهاد ، ولكن أيقظته أشعة الشمس الدافئة لحظة شروقها على الجانب المقابل للبحر ، حين استيقظ كان أول مابحث عنه أميرة الليل ، أو ابنة القمر كما لقبها ، ولكنه لم يجد لها أى أثر ، هب واقفاً كالمجنون وهو يتلفت حواليه ، وقد راح يجرى إلى هنا وهناك ، ثم جرى ناحية مياه البحر الهادرة وجعل يصرخ فيه وعيناه تموجان بنظرات الغضب والشك الرهيب :

- هل أنت أيها البحر المجنون من فعل هذا بفتاتى ؟!.

على المدى البعيد جداً ، لاح أمام ناظريه شيئاً طافياً على صفحة مياه البحر ، وحينها أدرك أن للبحر غدرات وفجرات ، وأنه قد سحب الفتاة بموجه الأخرق ، والتى كانت تبدو أمام عينيه وهى ترحل إلى عالم آخر ، وتتوارى شيئاً فشيئاً فى كنفه المجهول ، فظل يجرى فى أثرها حتى اختفت الأرض تماماً من تحت قدميه ، وأصبحت نداءاته المتكررة لها دوامة من الفقاقيع الطافية على سطح الماء.

●●●

(٤)

أفاق عدنان فخرى بعد أكثر من يومين ، عرف بعد ذلك أنه قد دخل خلالهما فى غيبوبة عميقة ، وأن أول رد فعل له كان غريباً ومذهلاً لمن تحلقوا من حوله فى حجرته بمستشفى المواساة ، حيث ظل يتلفت حواليه وهو يتساءل كالمجنون :

- أين هى ، أين هى ؟ ، هل أنقذوها ؟ ، هل انتشلوها من البحر؟ ، ليجيبنى أحدكم ، هل أنقذتم الفتاة البائسة ؟.

وكانت بهية هى أول مَن انتبه لوجودها بالقرب من حافة الفراش وهى تنظر إليه شذراً ، وكانت مرتدية ملابس الحداد السوداء المقبضة، فمد عدنان ذراعه حتى آخرها كى يسعه الإمساك بيدها ، وبالكاد فعل وهو يقول لها :

- مالذى جاء بى إلى هنا ، وأأنا حى أم ميت ، ولماذا هذا الأسود الكئيب الذى ترتدينه ؟.

تملصت بهية من يده وقالت وهى تتراجع إلى الوراء :

- على صديق عمرك .

ثم مالت ناحيته وهى تحدجه بنظرة نارية وقالت مستطردة :

- وليتنى لبسته عليك أنت بعد الذى عرفته عنك .

هز عدنان رأسه علامة عدم الفهم ، حاول أن ينهض مضطجعاً غير أن آلامه أعادته إلى الوضع الذى كان عليه ، فقال لها بنبرة المتوسل :

- بهية اشرحى لى الأمر من فضلك ، وأين الأولاد ....

فأسرعت الممرضة مهرولة ناحيته وهى تقول له :

- من فضلك أنت ياأستاذ لاتجهد نفسك .

ثم راحت تشير لجميع من فى الغرفة أن ينتظروا فى الخارج بجوار اثنين من العساكر واللذين كانا يقفان كأسدي قصر النيل الشامخين عند مدخل باب الحجرة ، لاسيما بهية التى تركتها واقفة بالقرب من فراش زوجها من ناحية قدميه ، وهى مازالت بعد تسدد نحوه النظرة النارية ذاتها ، والتى كان عدنان لم يجد لها بعد أى تفسير، فأمسك بذيل ملابس الممرضة ، فاستدارت نحوه قائلة :

- ماذا تريد ؟.

- أريد أن أفهم ، أين أنا ، وماذا حدث ؟!.

- لنش خفر السواحل أخرجوك من قلب البحر وأنت تلفظ أنفاسك الأخيرة .

فرك عدنان جبينه بأطراف أصابع يده وكأنما ليتذكر ماحدث، وعلى الفور تساءل إلى الممرضة بلهفة بالغة :

- وماذا عن الفتاة هل أنقذوها ؟ ، أقصد المرأة التى كانت فى الشاليه ، أقصد الفتاة التى كانت معى ؟.

هـزت المرضـة كتفيهـا علامـة عـدم الفهـم ، وأشـارت إلـى ناحيـة مـا وهـى تقـول :

- الباشا أمرنا ألاندخل معك فى أى حوار .

وسـرعان ماوقعـت عينـا عدنـان علـى الناحيـة التـى أشـارت إليهـا المرضـة فوجـد شـاباً عملاقـاً يقـف بالقـرب مـن النافـذة ، والـذى تقـدم منـه بتـوأدة وعلـى شـفتيه ابتسـامة لطيفـة ، وقـال وهـو يحنـى لـه رأسـه :

- حمداً لله على سلامتك ياسيد عدنان .

- اللّه يسلمك .

- أسـعد سـلطان وكيـل النيابـة ، أعـرف أنـك قـد مـررت بظـروف عصيبـة جـداً خـلال اليومـين الماضيـين ، لـن نجهـدك كثيـراً ، فقـط كـن متعاونـاً معنـا ، ولـن يسـتغرق الأمـر أكثـر مـن خمـس دقائـق .

قـال أسـعد ماقالـه وهـو يشـير لرجـل آخـر يمسـك دفتـراً أن يتقـدم نحوهمـا ويفتـح محضـراً ، فيمـا مـلأت الدهشـة والحيـرة محيـا عدنـان فخـرى تمامـاً ، والـذى لـم يكـن يـدرى حتـى هـذه اللحظـة كـم المفاجـآت والألغـاز التـى كانـت فـى انتظـاره ، ولا السـبب الحقيقـى وراء محضـر الاسـتجواب الـذى أمـر أسـعد سـلطان بفتحـه ، وسـرعان ماسـاوره الشـك فـى أنـه قـد يكـون متهمـاً مـن غيـر درايـة منـه بقتـل فتـاة الشـاليه ، أو ابنـة القمـر كمـا أطلـق عليهـا خيالـه العفـوى ، ولكنـه تذكـر علـى الفـور قـول زوجتـه أنهـا تلبـس الأسـود علـى صديـق عمـره ، فـأى صديـق هـذا الـذى

كانت تقصده ، وسرعان ماجاءته الإجابة من خلال سؤال محقق النيابة الذى ابتدره قائلاً :

- المرحوم رفيق حمدى أين شاهدته آخر مرة ؟.

شرد عدنان طويلاً فى اسم رفيق حمدى هذا ، وهز رأسه باستنكار وكاد أن يقول للمحقق أن الذى يعرفه هو رفيق عنتر وليس رفيق حمدى ، غير أنه تذكر أن لقب عنتر هذا ليس إلا اسم الشهرة الذى أطلقته عليه ثله المقهى سخرية منه ومن نزواته المنحرفة ، حتى أضحى الجميع ينادونه برفيق عنتر بدلاً من رفيق حمدى ، ثم سرعان ماإستفاق من شروده الذى استغرق نصف لحظة أو أقل وهو يتمتم بذعر :

- المرحوم رفيق حمدى ، هل مات رفيق !!؟.

قال عدنان ذلك وهو يهب من فراشه وكمن لدغه عقرب سام .

- وجد مقتولاً فى الشاليه الخاص به ، الشاليه السرى ، شاليه النزوات والليالى الحمراء ، ألا تعرفه ؟.

هز عدنان رأسه سلسلة من الهزات المتعاقبة التى لامعنى لها فى الظاهر ، لم يكن يعنى بها إنكار معرفته بالشاليه السرى؛ والذى عرفه بالصدفة العجيبة ، وللحظ السئ ليلة مقتل رفيق حمدى ، وإنما كان يستنكر بها ماحدث لصديقه ، والذى كثيراً ما كان يحذره من مغبة الانحراف وسوء العاقبة ، ومن ناحية أخرى كانت وطأة الأحداث الثقيلة والعجيبة التى مر بها ليلة الشالية والفتاة الحسناء التى وجدها

شبه ميتة فى الشاليه الآخر أبعد ماتكون عن التصديق ، فيما استرسل وكيل النيابة قائلاً ولكن بحدة فى هذه المرة :

- عدنان فخرى ، سونيا اعترفت بكل شئ ، تكلم لأن الإنكار لن يفيدك فى شئ .

وعلى الفور دخل الطبيب المعالج وقال لمحقق النيابة وقد لاحظ الحالة السيئة للغاية التى عليها مريضه :

- من فضلك ياأسعد بك ، حالة المريض سيئة جداً كما ترى ، لتؤجل الاستجواب لوقت آخر .

- حسناً أيها الطبيب .

أشار أسعد سلطان لتابعه أن يلحق به إلى الخارج ، فيما أشار للحارسين بملازمة المتهم والانتباه إليه جيداً ، وكانت كلمة متهم التى سمعها عدنان كفيلة بأن تحطم فؤاده ، وتطير عقله من رأسه ، فنظر لبهية وهو يتساءل إليها بدهشة جنونية :

- بهية ، بِمَ يتهموننى بالضبط ؟!، تكلمى .

- يتهموك بقتل ابن خالتى رفيق ، العاهرة التى كانت معكما اعترفت بكل شئ .

كان عدنان آنذاك يكابد الآلام المضاعفة ، فهو حزين أشد الحزن من أجل موت صديقه رفيق ، ومرت بسرعة البرق الخاطف صورة الليلة السوداء فى مخيلته ، وقت كمونه الشبحى فى الشاليه البعيد عن شاليه رفيق ، والذى فتح بابه على مرمى البصر فجأة ، واندفعت من

خلالـه فتـاة الليـل بمفردهـا ، ثـم ركبـت سيـارة رفيـق وانطلقـت بهـا بسـرعة جنونيـة ، وممـا زاد مـن آلامـه أنـه لـم يفكـر وقتهـا فـى أن شيـئاً مـا مريبـاً قـد حـدث ، وأن صاحبـه قـد يكـون مكروهـاً قـد أصابـه ، وأنـه كان لزامـاً عليـه أن يحقـق فـى الأمـر، ولربمـا أفلـح فـى إنقـاذ رفيقـاً مـن المـوت ، ثـم هاهـو ذا قـد أضحـى فـى الوقت ذاتـه وفـى طرفـة عـين ليس أكثـر قاتـلاً !، وقاتـلاً لمـن ؟!، صديقـه !! ، وهـو الـذى لايقـوى علـى قتـل بعوضـة حتـى ! ، فنظـر لبهيـة التـى كانـت تقـف لحظتهـا فـوق رأسـه تمامـاً ، وقـد حملـت فـى عينيهـا ذات النظـرة الافتراسـية المشـحونة بـكل آيـات التهـم والافتـراءات عـن الدمويـة والخيانـة الزوجيـة والسـقطات الجنسـية :

- وهل تصدقين أننى فعلت ذلك ؟.

- سل نفسك ؟.

- وبِمَ أسألها ؟.

- عـن الشـواهد الكثيـرة التـى تقـول أنـك قـد أمضيـت ليلـة حمـراء فـى أحضـان عاهـرة قـذرة ، ثـم سـولت لكمـا نفسيكمـا عمليـة قتـل رخيصـة لسـرقة متعلقـات وسـيارة رفيـق الفارهـة .

أدام عدنـان النظـر إلـى زوجتـه بهيـة طويـلاً ثـم قـال بنبـرة يعتصرهـا الألـم :

- لايهمنـى أن أشـنق ظلمـاً ، فالمـوت قـد أصبـح بمثابـة طـوق نجـاة لـى مـن مثـل هـذه النظـرة القاسـية التـى تسـددينها إلـى .

انصرف الجميع ولم يبق غير عدنان والحارسين الواقفين بالباب، ولأمر ما نسى عدنان كل ماكان ، أللهم إلا الفتاة بنت القمر حسناء الظلام ، صاحبة الوجه الأسطورى الجمال والذى يضئ كالبدر المنير فى خضرة الليل البهيم ، والتى دق قلبه طويلاً من أجلها ، وحزن أكثر لفراقها قبل أن يلتقيها ، وقبل أن يتكلم معها بكلمة واحدة لا أكثر ، فقد سرقها منه البحر غدراً ، فلكم كان البحر عنيداً وجباراً وهو يحاول سحب عدنان السباح الماهر بدواماته الهائلة إلى الأعماق وكأنما يقول له : « لن أدعك تأخذ عروس البحر ، عروسى»، تراها أين هى الآن قمر ليلة البدرية، والتى كاد عدنان يلقى حتفه بسببها ، وهو يحاول جاهداً بشق الأنفس اللحاق بذلك الشئ الذى ظل طافياً على سطح الماء ، ولم يساوره الشك للحظة أن هذا الشئ الطافى هو جثمان الفتاة ذاتها ، والتى لايعرف أكانت حية وقتها أم ميتة ، هى لغز على أية حال، من لحظة رنين هاتفه المتصل ، وظهور ذلك الرقم المجهول الذى كان لايعرفه على شاشة هاتفه ، أجل هى لغز ، هى خداع ، ولكن ترى خداع من أى نوع ؟ ، ظل هذا السؤال يدور كثيراً فى حنايا نفس عدنان ، والذى قبل أن يكن الخداع مايكون ، ولكن من المحال أن يكن خداعاً قلبياً : «فالقلب لايخدع أبداً ، هذه الفتاة ذات المحيا القمرى البديع هى نصفى الآخر الذى استدعانى من عالمى وأراد أن يأخذنى إلى عالم آخر ، بهية ليست نصفى الآخر، بل النصف الافتراضى ، أميرة البحر هى نصفى الفعلى ، الآن والآن فقط فهمت لماذا كان قلبى يرقص طرباً، تصورت لحظتها أن خللاً فسيولوجياً قد أصاب قلبى فى لحظة كان يجب أن يدق فيها رعباً وقلقاً وفرقاً ، أما الآن ففهمت لماذا كان يغرد ويرفرف كعصفور وجد وليفه ، وأنيسه الطبيعى» .

كان هـذا مـادار فـى رأس عدنـان وتحـرك بـه لسـانه وهـو مضطجـع فـى الفـراش علـى جانـب شـقه الأيمـن ، وحـين اسـتدار علـى شـقه الآخـر كانـت الزاويـة كلهـا قـد اختلفـت وانقلبـت رأسـاً علـى عقـب ، فمـاكان لـم يكـن ليكـون إلا لأن اللّه أراده أن يكـون ، هـو عقـاب وابتـلاء لمـن يبطـر و يتمـرد علـى نعـم اللّه التـى لاتعـد ولاتحصـى : « بهيـة أصبحـت بـين طرفـة عـين والأخـرى محـض كارثـة وحلـت بـك ، الولـدان والبنـت أضحـوا رسـناً يشـدك ويكبـح جمـاح رغبتـك عـن مسـايرة نزواتـك ، أجـل نزواتـك وهـل بلوغـك شـاليه رفيـق كان بمحـض الصدفـة كمـا توهمـت ، مـن المؤكـد أنـك حصلـت علـى معلومـة الشـاليه السـرى بشـكل أو بآخـر ، علـم النفـس يقـول لاشـئ يأتـى مـن فـراغ ، الانسـان عـادة يلقـى بمخلفاتـه القـذرة فـى الأفنيـة الخلفيـة كـى لايراهـا أحـد ، ولاهـو نفسـه حتـى ، أجـل ، أنـت كنـت تلهـث بثـوب قديـس مخـادع وراء واحـدة مـن نـزوات النفـس المنحطـة ، وحـين سـقطت فـى بئـر الرذيلـة ، اختـرع عقلـك قصـة أميـرة البحـر ، عـذراء البحـر البتـول ، أنـت أمضيـت الليـل مـع عاهـرة لا طاهـرة ، ووسوسـت لـك بإتيـان كل أشـكال المنكـر والفجـور ، تلـك يـا صـاح مخلفاتـك القـذرة التـى ألقيتهـا فـى ....

حينـذاك قاطـع عدنـان وسـاوس نفسـه بنفسـه ، هـب جالسـاً فـى فراشـه وهـو فـى غايـة الانزعـاج مـن تلـك الخواطـر المتناقضـة التـى تداعـت عليـه كدانـات فتاكـة ألقيـت كلهـا دفعـة واحـدة مـن بارجـة عملاقـة فـوق رأسـه ، وتسـاءل فـى نفسـه : «أأكـون حقـاً قـد ارتكبـت جريمـة القتـل القـذرة كمـا يدعـون ، وفـى حـق مِـنّ ؟ ، صديقـى رفيـق عنتـر ، لا أقصـد رفيـق حمـدى !! ، ليرحمـه اللّه علـى أيـة حـال» ، بـل كان السـؤال الأهـم بالنسـبة

لـه ؛ والـذى خشـى كثيـراً مـن أن تكـون لـه إجابـة عكس التـى يتمناهـا ، أو علـى الأقـل ألا تكـن تهمـة جديـدة لـه، وأنـه يعيـش حالـة مـن الأوهـام فـى عالـم بعيـد كل البعـد عـن عالـم الواقـع : المـرأة العجـوز ، إمـرأة الشـاليه التـى ليسـت عجـوزاً، بـل شـابة لامثيـل لهـا فـى الحسـن والجمـال ، أميـرة البحـر إبنـة القمـر التـى خفـق مـن أجلهـا قلبـه بشـدة ، هـل هـى وهـم وخيـال أم حقيقـة!!؟.

وفـى الصبـاح الباكـر حـدث الشـئ الرهيب ، والذى قلب له كل الأشـياء أمـام ناظريـه رأسـاً علـى عقـب ، شـئ كان أشـبه بالجنـون واللامعقـول الـذى مـن المحـال تصديقـه ، فحـين تحلـق مـن حـول فـراش عدنـان فخـرى جمـع غفيـر مـن الـزوار مـن زملائـه وزميلاتـه فـى العمـل ، وأحدثـوا ضجـة وجلبـة شـديدة كانـت لاتعـدو شـيئاً علـى الإطـلاق ؛ بالنسـبة للصرخـة الداويـة ذات الصـدى المدمـدم التـى أطلقهـا عدنـان آنـذاك فـى أعمـق أعمـاق نفسـه وهـو يـديم النظـر إلـى ناحيـة مـا :

- مستحيل .

●●●

(٥)

كانت ناردين صبرى التى تضع نظارات سوداء ثقيلة وكبيرة على عينيها ؛ هى الوحيدة من بين جميع من حضروا لزيارة عدنان فخرى التى لم تحظ ولو بشبه إيماءة شكر من رأسه ، بالرغم من كونها كانت الوحيدة التى لم يرخ طرفه عنها لوهلة واحدة ، إلا أنها لم تحاول إيجاد أى تبرير لسلوك عدنان الغريب معها ، لقد أتت فى الأتوبيس الذى خصصته الشركة التى يعملون فيها لزيارة زميلهم عدنان فخرى، فهو مجرد زميل عمل ليس أكثر ، بل لاتتذكر أنها قد التقته من قبل، كما أنه هو أيضاً كما تصور لم يرها من قبل ، ولكن من قال ، فلقد كان قلب عدنان المرفرف بين جنبيه لحظتذاك يجعله يكاد يصرخ كمن تلبسته جنية : « مستحيل ، هل أتعرض لعملية خداع بصرى ، إنها هى هى ، فتاة البحر ، ابنة القمر ، بل هى القمر ذاته ، وهل يعقل أن يصل الشبه بين مخلوقين إلى هذه الدرجة من التطابق ، بل الروح واحدة ، والإحساس نحوها هو ذات الإحساس الذى شعرته نحو عروس البحر التى ضاعت منى فى الليلة إياها ، ولكن ليس إلى الأبد كما يبدو !» .

حين انصرف زملاء وزميلات العمل ، لام عدنان نفسه ليس لانشغاله بالفتاة الزميلة ، وإنما لانشغاله اللحظى عنها ، وذلك عندما سأل نفسه : هل أصابتنى جنة ، وهى التى ستقودنى فى النهاية إلى المصير المجهول الذى لايعلمه أحد غير الله ؟، فكيف أفكر فى النهاية، نهايتى ! ، والبداية ، بدايتى كانت أمام عيني ، ولام نفسه أكثر فأكثر

حين كان فظاً وجافاً معها هى بالذات ، فى الوقت الذى كان رقيقاً ولطيفاً مع الجميع ، وشكر الجميع بأبلغ آيات الشكر إلاها ، وحين مدت إليه يدها كى تودعه تجاهلها وصافح غيرها ، وهو يبدو فى غاية الارتباك ، ارتباك لم يعهده على نفسه حتى وهو فى أحلك اللحظات يواجه تهمة القتل مع سبق الإصرار والترصد ، لقد كان أسعد سلطان جافاً ومتجهماً ، ويلقى عليه بكل شباك الصياد الحاذق دفعة واحدة، لحظة إلقاء سؤال ما من أسئلته النارية الموجهة كالصواريخ المدمرة ، مادعا عدنان للقول له فى ذات مرة من مرات الاستجواب التى كان يتعرض لها بشكل يومى :

- سيدى المحقق ، أنت أصدرت حكمك قبل المحكمة ، فعلام كل هذه الأسئلة التى تحوى الحكم على بالإعدام ضمناً .

فهرش أسعد سلطان أرنبة أنفه بطرف سبابته وقال مبتسماً :

- روايتك لايصدقها عقل .

- جدوا الهاتفين المحمولين الخاصين بى وبالسيدة التى وجدتها فى الشاليه المجاور لشاليه رفيق حمدى ، وأنت ستحكم ساعتها أن روايتى هى العقل ذاته .

- رجال الضفادع البشرية ، ورجال المعمل الجنائى مسحوا المنطقة كلها ولاأثر لغريقة بالمواصفات التى أعطيتها لنا ، ولا لهذين الهاتفين المحمولين الخاصين بك وبالغريقة ، أو التى تدعى أنها غريقة ، أما الشاليه الذى حطمت نافذته فربما للتمويه ، أو الإختباء ، أو السرقة .

- السرقة !؟ ، هل وصل الأمر إلى حد السرقة أيضاً .

- السرقة أهون من القتل .

- سيدى سيدى ....

صرخ عدنان بملء الفم مردداً كلمة سيدى مرات عديدة بعدها استطرد فى حديثه قائلاً :

- كان من العقل أن اختفى من المنطقة بأسرها ، هه مع الأخت الفاضلة سونيا ، لا أن ادعى الغرق وينقذنى رجال البحرية وأنا بين الحياة والموت ، وكونى لم أنكر وجودى فى ليلة الحادث فى شاليه رفيق ، الذى يعلم الله وحده أننى ذهبت إليه بمحض الصدفة البحتة، فليس دليلاً على قتلى لرفيق ، ولوكان القتل بدافع سرقة السيارة الفارهة وبعض المحتويات الذهبية ، فلم لم أفر مع سونيا بجلدى ، واستمتع بالمسروقات وابذرها كما يحلو لى .

ابتسم أسعد سلطان ابتسامة عريضة وقد جعل يصفق بكلتا يديه سخرية من عدنان وهو يقول :

- أحسنت أيها الخطيب المفوه ، وجود بصماتك فى مكان الجريمة ، أقصد وجودك فى شاليه رفيق حمدى والذى لم تنكره، واعتراف الفتاة عليك ومعرفتها الواضحة لك شكلاً وموضوعاً، وليس الاسم فقط ، يلزمك بإثبات العكس ، ولايلزمنى أنا بتصديق روايتك الخرافية ، وأنك مشيت عشرات الكيلو مترات خارج الاسكندرية وأنت مغيب ، وبلوغك شاليه صاحبك بالصدفة وحدها وانت مغيب ، فربما

عاشـرت البغـى وقتلـت صاحبـك وأنـت مغيـب أيضـاً ، هيـه فلتمـت إذن وأنـت مغيـب .

انصـرف أسـعد سـلطان ناحيـة بـاب الخـروج ، ولكنـه توقـف فجـأة وكأنمـا نسـى أن يقـول شـيئاً ، واسـتدار بجسـده نصـف اسـتدارة ناحيـة عدنـان وقـال :

– قـد أصـدق مـن هيئتـك البريئـة ظاهـراً أنـك حقـاً طاهـر وعفيـف ونقـى ، وربمـا يكـون هـذا هـو مادعـاك بشـكل لاشـعورى إلـى التخلـص مـن صديقـك الشـقى رفيـق ، الـذى صدمـك بسـلوكه المنحـرف ، ثـم ألقيـت بعـد ذلـك بنفسـك فـى البحـر كـى تتطهـر مـن جريمـة القتـل ، روايتـك تنقصهـا أشـياء كثيـرة ، ولا تفسـير عنـدى حتـى الآن للجـرح الغائـر فـى يـدك إلا أن القتيـل قـد حـاول أن يقاومـك لحظـة مباغتتكمـا لـه لحظـة الشـروع فـى قتلـه .

– أنت ترانى القاتل فى كل الأحوال .

ابتسـم وكيـل النيابـة ابتسـامة ذات مغـزى ومعنـى فـى غايـة الإبهـام، لـم يقـو عدنـان علـى فـك طلاسـمه ، إلا لحظـة وقوفـه بـين عشـرات مـن المجرمـين أصحـاب السـوابق منكسـاً رأسـه ، فيمـا كـان أسـعد سـلطان جالسـاً وراء مكتبـه الخشـبى الضخـم فـى سـراى نيابـة الاسـكندرية يتابـع عمليـة العـرض ، وسـونيا تمـر مـن أمـام صـف المعروضـين قبالتهـا واحـداً بعـد الآخـر ، ثـم راحـت تعيـد الكـرة وقـد التبـس عليهـا الأمـر تمامـاً ، وافتضحـت كذبتهـا ، فأشـارت إلـى أحـد الواقفـين أنـه هـو عدنـان فخـرى، فجلجلـت ضحكـة وكيـل النيابـة ، وذهـب إلـى أحـد الواقفـين وشـده عنـوة مـن الصـف وقـال لهـا :

- بل هذا هو عدنان فخرى أيتها الساقطة اللعوب .

وفى الحقيقة لم يكن هذا ولاذاك عدنان فخرى ، ولايشبهانه فى شئ ، حينها فهم عدنان الذى كان يقف كامناً فى صف المعروضين مغزى ومعنى ابتسامة أسعد سلطان ، وأنه كان لديه منذ البداية الحدس وفقاً لأسباب جادة فى نفسه لم يستطع إثباتها بعد وأن عدناناً بريئاً ، ولكن بعد عجز الفتاة سونيا فى التعرف إليه صار الأمر كالمبرهنة العلمية التى لايقطع يقينها أى شك ، كان هذا هو ماقاله أسعد سلطان لعدنان فخرى من خلال ابتسامته ذات المغزى العميق ، وأنه فى واقع الأمر كان لايراه قاتلاً فى كل الأحوال كما كان يظن ، بل كان يراه قاتلاً محتملاً، وأن النقاء والبراءة التى تعمر وجهه ليست دليلاً على براءته ، ولكنها كانت دافعاً لأن يكبح المرء جماح تصوراته ، كان هذا هو مأسره أسعد سلطان فى نفسه ، فليس كل مايعرف يقال ، غير أن الشئ الذى باح به صراحة لعدنان لحظة مغادرته سراى النيابة بريئاً من كل التهم التى ألصقت به زوراً وتجنياً من مومس لعوب :

- يبدو أن سونيا التى سقطت فى أيدي العدالة بسرعة لحسن الحظ ، قد عرفت عنك الكثير من فم صاحبك نفسه ، سواء برغبته التامة ، أو أنها قد استدرجته إلى ذلك لشئ ما فى نفس بن يعقوب، عدنان فخرى ، أنت برئ حقاً ، ولكنك تظل لغزاً لم يمكننى حله ، ولكن على أية حال حل هذا اللغز من عدمه لايعنى النيابة فى شئ .

قال أسعد سلطان ماقاله وهو ينظر إلى عدنان نظرة ما دامت لفترة طويلة ، بعدها ظل عدنان سائراً لمسافة طويلة بمحاذاة شاطئ البحر وكأنما يسائله همساً :

- أجبنى أيها البحر وحتى لاأضحى لغزاً مستعصياً على غيرى و على نفسى أيضاً ، أأنت حقاً من أخفيت فى جوفك السحيق فتاة الشاليه ، أميرة البحر ، ألم نتقاتل معاً على هذه العروس ، وكدت تغرقنى بكل سطوتك الجبارة ، أم أننى كنت واهماً ، وأحيا ضرباً من الخيالات والأوهام .

توقف فجأة ونظر فى اتجاه قرص الشمس الذى لم يهو بعد فى لجة الغروب القرمزى ، كانت صورتها آنذاك ملء الأفق، ليس فتاة الشاليه أميرة البحر ، بل زميلته فى العمل ، وكلاهما الشئ ذاته من غير اختلاف أللهم إلا فى الزمان والمكان والحال ، وحين اتجه إلى مقهى الأنفوشى الشعبى الذى كان يلتقى فيه ثلة الأنس ، أحس بقبضة شديدة تتملكه حين لم يجد رفيق جالساً كعادته فى المقعد الكبير المجهز له بصفة خاصة ، لم يجد غير أكمل ووصفى وأخرين ، واللذين أشارا له أن تعال ، غير أن قدميه تراجعتا إلى الوراء وليس إلى الأمام كما كانت نيته ، واستدار عائداً فى اتجاه بيته فى الابراهيمية كى يبتهج مع أسرته ببراءته، وحيث كان القرار القطعى الذى اتخذته بهية من طرف واحد قد صدر بلارجعة :

- أنا لايمكننى أن يأتينى النوم مع لص قاتل وننام على وسادة واحدة معاً ، الشقة من اليوم للحاضن ، وأنت إن لم تطلقنى اليوم خلعتك غداً ، ولتخرج من حياتنا إلى الأبد غير مأسوف عليك .

كانت الحقيبة الجلد الكبيرة التى وضعت له قبل لحظة قدومه عند باب الشقة العمومى من الخارج ، غير كافية لاحتواء كل أغراضه واحتياجاته ، ولكنه حملها غير معترض ، كان فى وسعه وهو المنتصر

بقرار البراءة الرسمى أن يرفض هذا القرار الظالم ، وأن يمارس هيمنته الذكورية ، وليس هذا فحسب بل ليدخل أيضاً فى صراع حياة أو موت و بقاء الأقوى مع زوجته ، كان أبناؤه الثلاث فى البيت ، وربما كانوا يلعبون الكوتشينة لحظة دخوله هاتفاً بهم من باب الشقة ، لم يلب نداءه أحد منهم ، كما لم يسارع أيهم ليلحق به كى يعيده إلى البيت لحظة أقله المصعد الحديدى القديم إلى أسفل ، لم يقس عليهم فى حكمه الداخلى الذى يسره الإنسان بينه وبين نفسه ، وإنما التمس لهم العذر بأمهم التى تكرهه بسبب وبغير سبب ، وتغذيتها الدائمة لروحهم البريئة وعقلهم اليافع البكر بفكرة أن الحياة من غير الأب ممكنة ، وأنها قد تكون معه مستحيلة فى كثير من الأحيان ، وأن الرجل قد لايكون غير حافظة النقود ليس أكثر، وغيرها من الأفكار السلبية والتى بات مفروضاً عليه أن يغيرها جملة وتفصيلاً ، وأن يبذل مجهوداً مضاعفاً فى المستقبل ليجلى لفلذات كبده حقيقة صورته التى شوهتها أمهم مع سبق الإصرار والترصد ، بل كان رحيماً بهم حين انصرف بهدوء جم ، وقد آلى على نفسه ألا يروعهم فى لحظة صدام جنونية مع الأم المتسلطة ، ولو كان الثمن الذى سيدفعه هو حياته ذاتها .

●●●

(٦)

ضاقت الحياة على سعتها فى وجه عدنان ، ولم تعد السبل مفروشة بورود الأوهام كما كان الأمر من قبل فى ناظريه ، لقد ظل طويلاً يكافح من أجل أن يجعل الحياة مرآة تعكس ما بداخله الذى يشبه الضياء وجنة من جنان السموات العلا ، ولكن التى انعكست على نفسه فى حقيقة الأمر هى صورة الحياة القاتمة ذاتها ، فأطفأت الضياء ، واستحالت الجنة التى كانت تسكنه إلى جحيم لايطاق ، جحيم لم يقو هواء البحر الهائج ساعة السحر على تبريده ، وقد ارتمى مفترشاً رمال البحر نائماً أو هكذا بدا ، وهاش شعر رأسه كهامة شجرة ورقاء فى مهب الريح ، وبالقرب منه بدت حقيبة ملابسه وأغراضه الشخصية ملقاة بلاعناية ، وكأنها قد هانت على صاحبها الذى لم يشغل باله بموج البحر العابث الذى كاد يبتلعها فى جوفه أكثر من مرة ، غير أن الموجة التى كانت تدنيها وتلتقمها كانت أخرى تنئيها وتدحرجها بعيداً عن الشط ، وكان كل شغله الشاغل آنذاك لاعلاقة له بحقيبته التى يتلاعب بها الهواء والبحر كيفما شاءا ؛ ولا بالسماء التى كان يتطلع إليها ، بل ارتبطت حواسه كلها بشئ ما لاغيره، فبين الفينة والأخرى كان يتمتم هامساً فى نفسه : الآن سوف يرن الهاتف المحمول ، ولعل أحداً من أولاده أو كلهم أو حتى بهية نفسها ؛ سوف يعير أمر غيابه أدنى اهتمام ويحاول الاتصال به ، وإظهار آيات الود والاعتذار والتراجع عما بدر فى حقه منذ بضع ساعات ، وأنهم

لامحالة سوف يتصلون به لم لا وهو صاحب مقولة : إذا رأيت الصورة سوداء فلاتحرقها ، فربما يشع الضياء يوماً .

ولكنه تذكر فجأة أنه قد فقد هاتفه المحمول منذ عدة أيام خلت، وتذكر كذلك صديقه الذى رحل غيلة عن الحياة ، والذى اتهم ظلماً بقتله من قبل ساقطة حقيرة فقدت كل معانى الشرف والأخلاق ، فانقبض قلبه بشدة ، ولكن زالت فجأة كل هذه الصور الكئيبة دفعة واحدة حين رآها تتقدم إليه من ناحية البحر ، بوجهها المنير كقمر السماء الصافية ، فهب واقفاً ليلتقيها بذراعيه المشرعين عن آخرهما، غير آبه بالدماء التى كانت تلطخ ملابسها المحسورة تماماً على جسدها الملفوف ، ضمها بشدة إلى صدره وهو لايصدق أن البحر الهادر قد أعاد إليه حوريته ، راح يلثم كل جزء فى وجهها وهو يهمس فى أذنها بشوق جارف :

- أين كنتِ ، ولماذا تركتينى وحدى ، أعرف أن البحر قد سحبك فى المرة الأولى من على الشط بزعانفه الاخطبوطية ، ولكننى لن أدعه يأخذك منى مرة ثانية .

احتواها بذراعيه بشدة فى ثنايا صدره ، وقال مستطرداً وقد أسكرته نشوة اللقاء :

- محال أن أتركك تضيعين من قبضة يدي ، محال أن يُضيع من وجد ضالته المنشودة حلم عمره ، تعالى ياحبيبتى يا ساكنة قلبى وامكثى فيه إلى الأبد ، تعالى فما أكثر الكلام الذى يملأ فمى من أجلك ، والذى أريد أن أسمعه منك أنتِ أيضاً .

تململت فى أحضانه ثم تبددت كدوامة من الضياء ، أفاق على نفسه وهو يعانق السراب ، كانت تجرى بألبستها الحريرية البيضاء الشفافة على صفحة مياه البحر الزرقاء حتى عانقت الأفق المتلاشى، وذابت فى أنسجة الوجود السرمدى ، جرى فى أثرها بكل قوته وهو يهتف بها أن تبقى ، غير أن البحر الخادع لم يكن له أرضاً يجرى عليها كما كان لحوريته قبل قليل ، أفاق عدنان من شروده وفى عينيه نظرة من عاش حالة من حالات الوهم المجنون ، وهو لايدرى ماذا يفعل حيال تلك الصور الكثيرة التى انتابته فى الفترة القليلة الماضية ، وهل هى صور حقيقية أم ضرب من ضروب الخيال ، الواقع والدليل الدامغ يؤكدان له أن فتاة الشاليه أميرة البحر ابنة القمر الحالمة ليست إلا سراب خادع ، ولاوجود حقيقى لها على الإطلاق : « فماذا عن شبيهتها ذات النظارات السوداء» ، هذا ماتساءلت به نفس عدنان بلا انقطاع ، وقد طافت بمخيلته صورة ناردين صبرى زميلته فى العمل والتى هى صورة طبق الأصل من فتاة الشاليه الغامضة : «وهل هى أيضاً محض وهم وسراب خادع ، ولاوجود لها إلا فى خيالى المريض» .

قال عدنان ذلك وهو يمشى الهوينى على شاطئ البحر وقد عقد ذراعيه وراء ظهره وتطلع بحيرة إلى السماء ، المياه الباردة كانت مع كل دفعة من دفعات الموج تضرب فى قدميه الحافيتين ، واللتين كان صاحبهما حتى هذه اللحظة لايعرف إلى أين ستكون وجهته وقد أصبح بلامأوى يذهب إليه ، لم يبد عدنان أى اهتمام بمصيره والشكل الذى سوف تكون عليه حياته القادمة ؛ وذلك لكونه قد استبعد من الوهلة الأولى كل الخيارات التى طرحت أمامه : الخضوع ، المواجهة والصدام والهيمنة، أو

حتـى الأنانيـة والتفكيـر بالطريقـة التـى تخلـى النفس مـن أيـة مسئولية ، كان الخيـار الوحيـد الـذى وجـده موضوعيـاً إلـى حـد مـا وقابـلاً للتنفيـذ هـو أن يجـد مـلاذاً لـه يقيـه ويسـتره ولايجعلـه يمضـى هائمـاً علـى وجـه هكـذا فـى الطرقـات كالمتشـردين ، وحتـى يقضـى الله أمـراً كان مفعـولاً .

أخـذت عدنـان غفـوة طويلـة حتـى طلـوع الشـمس ، وقـد احتضـن حقيبتـه فـوق صـدره بذراعيـه ، عـلا خلالهـا صـوت غطيطـه ، كان ضـوء الشـمس السـاطع قويـاً لدرجـة جعلتـه يسـتيقظ مـن نومـه فزعـاً، وفـى الوقـت ذاتـه كانـت أصـوات بعـض رواد الشـاطئ وهـم يمضـون مـن حولـه بـين الحـين والآخـر ويتنـدرون بـه يصـل إليـه كالحلم ، فانتبـه واقفـاً خشـية مـن أن يكـون أحـداً ممـن يعرفونـه فـى عملـه بصفـة خاصـة قـد رآه وهـو فـى هـذا الوضـع المثيـر للعجـب والشـفقة معـاً ، تنهـد تنهيـدة طويلـة وقـد شـرع يمشـى ببـطء وهـو يقـول بصـوت يـكاد يكـون مسـموعاً :

- لـوكان رفيـق حمـدى حيـاً يـرزق الآن لمـا حملـت الهـم ، بالرغـم مـن أخلاقـه المنحرفـة التـى ضيعـت حياتـه هـدراً ؛ إلا أنـه مـع ذلـك كان يحمـل بـين جنبيـه قلـب عصفـور رقيـق ، ولـم يكـن ليتخلـى عنـى أبـداً .

دمعـت عينـاه رغمـاً عنـه ، فلقـد كان مـوت رفيـق سـبباً قويـاً فـى مضاعفـة إحساسـه بالوحشـة والوحـدة فـى الحيـاة ، كمـا أنـه لـم يكـن يحـب أن تحـل مثـل هـذه النهايـة الأليمـة بكائـن مـن كان ، فمابالـه وقـد كانـت هـى الصفحـة الأخيـرة التـى طويـت إلـى الأبـد قصـة حيـاة أقـرب الأصدقـاء إلـى قلبـه ، وعلـى مـاكان بينهمـا مـن اختـلاف واضـح للأعمـى قبـل المبصـر .

كان الجوع قد قرص أمعاء عدنان للغاية ، لكن ساعة يده وفكرة فى رأسه جعلته يغير وجهته تماماً ، فلقد قرر أن يسبق جميع موظفى الشركة إلى العمل ، ليس لكون اجازته المرضية قد شارفت على الانتهاء والتى لم يزل متبقياً منها بعد يومين اثنين ، وليس بالضبط لإخفاء حقيبته الشخصية بعيداً عن أعين الفضوليين ، والتى تترصد أدق تفاصيل حياة الآخرين ، إلا أن السبب الرئيس وراء ذلك هو رغبته الجامحه فى فتح أى من أجهزة الحاسب الآلى التى تقابله ولو بالصدفة فى الشركة ، ثم محاولة الدخول بسرعة على قاعدة البيانات الخاصة بالعاملين والعاملات فى فرع الشركة ، لقد كانت صورة الفتاة التى أتت مع فوج العاملين بالشركة تشغله للغاية، والتى تشبه تماماً فتاة الشاليه اميرة البحر والليل ابنة القمر ، وأجمل ماوقعت عليه عينا انسان فى تاريخ البشرية ، أو هكذا كان إحساسه ، وبذات الإحساس المتلهف راح يمعن نظره فى شاشة جهاز الحاسب الآلى ، ومحاولاً اختراق قاعدة البيانات السرية للعاملين بالشركة ، لم يكن يطمع فى تقصى أخبار زملائه وأرقام رواتبهم وحوافزهم وتقاريرهم السرية ، بل كان كل ماينشده أن يقع على حقيقة فتاة المستشفى ، وهل كان واهماً لحظة رآها ، وأنها محض خيال كشبيهتها فتاة الشاليه ، أم كانت حقيقة من لحم ودم ، وروح وجسد ، وتمنى من كل قلبه أن يهتدى ليس إلى الحقيقة فقط ، بل تمنى أن تكون هذه الفتاة هى الحقيقة بعينها، وأن تتغير كل حقائق عالمه الشخصى لتضحى هى الوهم ، ولتكن هذه الفتاة هى الحقيقة الوحيدة فى حياته وكل شئ غيرها عدم وسراب، ولذا لم يبال عدنان مع رغبته الجامحة فى معرفة الحقيقة إلى أن مايفعله قد تترتب عليه نتائج سيئة بخصوص عمله ، وأنه يفعل شيئاً

مشيناً للغاية وأياً ما كانت تنطوى عليه نيته ، ولهذا ارتبك للغاية حين فاجأه دخول عم عويضة كبير سعاة الشركة ، والذى نظر إليه بريبة بالغة وهو يقول :

- أستاذ عدنان ، ما الذى أتى بك مبكراً هكذا ، وكيف دخلت إلى هنا ، وهل مع أحد غيرى المفتاح العمومى لمكتب الشركة !؟.

فقال عدنان مرتبكاً :

- أجل ، أنا معى نسخة من المفتاح ، وفيما يبدو أنك نسيت ، ولقد حضرت مبكراً لإنهاء بعض أعمالى المتأخرة و.........

فقاطعه عويضة وهو يضرب كفاً بكف :

- ولكن هذا ليس مكتبك ، كما أن ذاكرتى فولاذية ، وأنا فقط من يحمل النسخة الرئيسة للمكتب ، مدير الفرع نفسه هو فقط من لديه نسخة أخرى للمفتاح ، ولكن النسخة المقلدة ! .

بدا عدنان فى موقف لايحسد عليه ، وأحس أنه قد تسرع وتصرف برعونة بالغة لحظة سولت له نفسه أن يدخل من إحدى النوافذ الخلفية المكسورة للشركة ، وسرقه الوقت فضبط متلبساً وهو يجلس على مكتب أحد الزملاء وليس مكتبه الشخصى ، غير أن القدر كان رحيماً به ، وظلت له الكلمة العليا ، والتى أخرجته سريعاً من هذا المطب السخيف الذى وقع فيه ، حيث لمح عويضة فجأة شيئاً ما مخفياً وراء أحد المقاعد الكابوتينيه الجلدية الوثيرة السوداء ، كانت حقيبة أغراض عدنان الشخصية ، فتقدم عويضة ناحيتها ، وقال :

- هل هذه تخصك ياأستاذ ؟.

- أجل تخصنى .

- ولماذا لم تعد من المستشفى إلى بيتك مباشرة ؟.

لم ينطق عدنان بحرف واحد فلقد كان يكره الكذب ، وأبى أن يضيف إلى الجريمة التى ارتكبها بالدخول متسللاً إلى الشركة جريمة أخرى ، واكتفى بالإطراق واجماً من غير أن ينطق بحرف آخر ، فيما استطرد الرجل العجوز متسائلاً بوجه ينضح بالطيبة، ورصانة الزمن الذى وشت تضاريس وجهه المتغضن بالحكمة والنباهة التى يطويها بين جناحيه :

- أشم فى الموضوع رائحة خلافات زوجية ، أليس كذلك الأمر؟.

- ....

كانت هيئة عدنان الذابلة ، وشعر رأسه المهوش غير المهذب، وسترته التى انغرزت بقايا من ذرات رمال الشط خلال خيوط نسيجها الوقور ، لخير دليل على ماذهب إليه عويضة ، فتقدم من عدنان ، وقال بنبرة صارمة وحانية فى الوقت ذاته :

- مافعلته كان خطأ جسيماً ياأستاذ ، لكنى أقدر الظروف العصيبة التى مررت بها ، والتى تمر بها الآن ، من فضلك أغلق الجهاز الخاص بزميلك ، واذهب إلى الحمام واغتسل ، وهذب من هندامك وشعر رأسك ، ولتعد إلى مكتبك من فضلك ، وليكن لنا حديثاً آخر فيما بعد .

قـال عويضـة ماقالـه وهـو يحمـل حقيبـة عدنـان الشـخصية إلـى البوفيـه ، امتثل عدنـان للأمـر الواقـع ولكن بتباطؤ جـم ، فلقـد كان لايرى شيئاً أمامـه غيـر إثبـات حقيقـة واحـدة : أن قـواه العقليـة لـم تختـل بعـد ، وأنـه لايحيا فـى عالمين متناقضـين بجسـد واحـد وفـى وقـت واحـد ، عالـم الوقـع ، وعالـم الخيـال ، بـل ليلتبس عليـه الأمـر حينـاً فيتصـور ، أن الوهـم هـو الواقـع ، وأن الواقـع هـو الوهـم والخيـال، ولكنـه لـم ينس أبـداً أن أمنيتـه الأصيلـة فـى الحيـاة : أن تكـون الفتـاة التـى سـحرته هـى فتـاة أحـلام الصبـا، هـى عالمـه الأبـدى، وأيـاً كان كنـه هـذا العالـم المجهـول .

قـرب المغيـب كان العاملـون فـى الشـركة قـد انصرفـوا جميعـاً أللهـم إلا اثنـين فقـط بقيـا لسـاعة أخـرى مـن الوقـت ، عدنـان فخـرى، وعويضـة النقـاش الـذى اعتـاد منـذ زمـن بعيـد علـى أن يكـون أول مـن يدخـل الشـركة وآخـر مـن يخـرج منهـا ، كان عدنـان لـم يـزل بعـد متوسـداً برأسـه ذراعيـه المسـندين إلـى سـطح مكتبـه الزجاجـى ، وكان مـا أزعجـه بشـدة رؤيتـه زميلـه الأسـتاذ شـفيق وجـدى وهـو يـديم النظـر طويـلاً وبدهشـة بالغـة إلـى جهـاز الحاسـب الآلـى الخـاص بـه ، وظـل طـوال اليـوم يتلفـت يمنـة ويسـرة وهـو فـى غايـة الارتبـاك والريبـة ، ولسـان حالـه يكـاد يصـرخ كالمصـروع فـى جميـع مـن حولـه : « هـل مـن عابـث عبـث اليـوم بجهـازى ؟!!» .

كان يبـدو وكأن كارثـة محققـة قـد أطبقـت فـوق رأسـه ، وظـن عدنـان فـى بـادئ الأمـر أنـه ربمـا يكـون هـذا هـو إحساسـه الشـخصى لا حقيقـة حـال زميلـه شـفيق ، واللذيـن كانـت لاتربطهمـا ببعضهمـا البعـض أيـة علاقـة أو معرفـة مسـبقة ، حتـى أن عدنـان لايذكـر أن هـذا الزميـل بالـذات

كان من بين الذين جاءوا لزيارته فى المستشفى والاطمئنان عليه ، ظل عدنان يراقبه من تحت لتحت ، ودون أن يلفت انتباهه بأى شكل من الأشكال ، بل قر قراره فى لحظة ما أن يذهب إلى هذا الزميل ، ويقدم له آيات الأسف والاعتذار لتجاوزه فى حقه ، وتجاسره على فتح جهازه الشخصى دون إذن منه ، ولكن حين بلغ مكتب شفيق وجدى ، ووقف قبالته طويلاً دون أن ينبس ببنت شفة ، اكتفى بتبادل النظرات معه فقط ، ثم عاد أدراجه وهو لايجد تفسيراً لعجزه المشين عن النطق ولو بكلمة واحدة ، كما لم يفهم لماذا بدا وجه هذا الزميل وهو يحمل كل أشكال القلق والارتباك ، بل ظل يختلس النظر إلى عدنان بصورة مريبة ، وحين آذنت ساعة العصارى بالحلول وتأهب الجميع لساعة الراحة ، اتجه عدنان إلى دورة المياه ليقضى حاجته، وحين عاد فوجئ وهو يوثق حزام سرواله حول وسطه بالمكان خالياً تماماً ؛ أللهم إلا من ذلك الزميل الذى كان يفتش وهو فى عجلة شديدة من أمره فى أدراج المكتب الخاص به ، فابتدره عدنان من بعيد هاتفاً به بحدة :

- هل هناك مايخصك فى درج مكتبى ؟!.

لم يكن رد فعل شفيق مفاجئاً بالنسبة لعدنان والذى كان يتوقع منه أى شئ ، وبخاصة بعد حالة الارتباك غير الطبيعى التى لاحظها عليه، حيث اقترب شفيق بجثته الضخمة للغاية من عدنان وقال له وهو يصر على أسنانه :

- البادئ أظلم .

كانت عينا شفيق المنغرزتان فى وجهه الضخم ضيقتان للغاية ، ولكن كان ينبعث منهما لهباً يدور حلزونياً بشكل انبثاقى وبما يكفى لحرق قارة بحالها ، فملك عدنان غيظه من هذه النبرة السمجة ، ووضع ذراعاه فى خاصرته وشد قامته قدر الإمكان ليطاول بها قامة شفيق العالية ، وقال وقد غير فى خططه وأفكاره بشكل فجائى :

- لاأفهم ماذا تعنى بالضبط ؟.

- بل تفهم جيداً ، وحذارِ من اللف والدوران معى .

كانت نبرة شفيق الغريبة ، وتسرعه غير المبرر قد كشف غطاءه مبكراً ، وأن وراءه سراً ما عظيماً يخفيه بلا شك ، ويخشى من افتضاح أمره ، ولكن يبدو أن المصادفة قد لعبت لعبتها القدرية لتسوق عدنان فى سبيل هذا العملاق القح ، والذى أحس أن عدناناً هذا قد عرف سره وفضح ستره ، وربما كان من سوء بخت شفيق وجدى أن هذه الفرضية قد وقعت فى نفس عدنان كمسلمة لاشك فيها ، فقرر من غير سبب واضح أن يتمادى فى مناورته ، وعلى ما هو فيه من الانشغال بعشرات المصائب التى حلت فوق رأسه ، وبعد أن كاد قبل قليل يعتذر له لاستعماله جهاز حاسبه الآلى الذى يؤدى به مهام الشركة ، فاكتفى بحدجه بنظرة نارية ، ثم مضى إلى مكتبه وقال ببرود وهو يستوى جالساً وراءه :

- هب أيها الزميل المبجل أن لك شيئاً عندى فى مكتبى ، فكان بدهياً أن تستأذننى فيه ، لا أن تمد يدك فيما يخصنى أثناء غيبتى .

بدا شفيق متسمراً فى محله ، وقد أحس أن تسرعه سوف يورطه فيما لايحمد عقباه ، فترجرج بين التقدم والتقهقر ، وندت عن فمه أخلاط من الكلمات المبهمة ، ثم استدار بشكل فجائى على عقبيه خارجاً من المكان بأسره ، فى حين بقى عدنان شارداً فيما جرى بينه وبين زميل العمل المريب ، وجعل يضع إجابة شفيق الأولى رداً على سؤاله : وأن البادئ أظلم .

فهاهوذا قد علم بوسيلة ما وبمالايدع مجالاً للشك أن عدنان فخرى هو من اقتحم جهازه سراً فى الصباح الباكر ، وأنه ربما اطلع على شئ ما لحظة دخوله على جهاز شفيق وجدى ، وهذا الشئ المزعج الخفى هو بكل تأكيد السر الحقيقى للسلوك المريب الذى أبداه شفيق ، تملكت الدهشة عدنان تماماً ، وقد شرع يفكر فى وسيلة ما تعينه على الوصول إلى حقيقة الأمر ، لِمَ لا وقد أمسك بطرف الخيط ، وملأه اليقين بأن شيئاً ما مريباً ربما يدور فى السر يتعلق بأمن ومصلحة الشركة العليا على أغلب الظن .

لم يذهب عدنان إلى شاطئ البحر بعد انقضاء ساعات العمل الرسمى لمشاهدة المغيب كعادته ، كان منهكاً للغاية ، كما لم يمنحه الريس عويضة النقاش فرصة لذلك ، فلقد قبض بيده السمراء المعروقة على يده بشدة وهو يقول له بعد انصراف جميع العاملين من مقر مكتب إدارة الشركة :

- أنت ياأستاذ ضيفى فى كرموز حتى نجد حلاً لمشكلتك .

أحس عدنان أن السماء قد أفتحت له أبواب الرحمة فى هذا الوجه الأسمر المتغضن ، وأنه سوف يجد مأوى وفراشاً يحتوى جسده المنهك القوى تماماً ، فلم يكن يملك مالاً كافياً يعينه على النزول حتى فى أرخص الفنادق الشعبية فى كوم الشقافة والدكة، كما أنه كان قد قطع على نفسه عهداً ألا تمس يداه الشهادات الادخارية ذات القيمة المتوسطة والتى تخص أبناءه ، هؤلاء الأبناء الذين لم تغب صورتهم عن باله طرفة عين ، وتحدث إليهم أكثر من مرة من مكتبه فى الشركة ، لالكى يطمئنهم على نفسه ، فلقد كان ذلك شيئاً غير هام لهم بالمرة ، ولكن لكى يطمئن هو عليهم، ولكن ماآلمه حقاً ، ونكأ جرحاً عميقاً فى نفسه لايندمل أبداً ماقاله ابنه كبير يوسف :

– أنت خنت أمى ، ولاندرى هل قتلت العم رفيق حقاً أم لا، فلِمَ تتصل بنا ؟.

حاول عدنان ألايصرخ فى بوق الهاتف غضباً لكيلا يلفت إليه أنظار الزملاء فى المكتب ، وقال :

– يابنى افهم ، النيابة برأت أبيك ، والدنيا والناس ورب الناس ، كلهم يشهدون لى ببراءتى ، وانت تلف حبل الخيانة والمشنقة حول رقبتى ، أى إبن أنت ، تكلم أجبنى ماذا يقول إحساسك أنت ، لا ماتقوله لك أمك ؟.

– ....

لم يأت أى جواب على الطرف الآخر ، كان فقط الشئ الوحيد الذى سمعه عدنان ، صوت السماعة وهى تصفق على الطرف الآخر

بحـدة متناهيـة فـى أذنـه ، وعلـى الفـور فهـم عدنـان مـن تلقـاء نفسـه أنـه لاتوجد يد ثقيلة ، وقـادرة علـى الإتيـان بمثـل هـذا الفعـل الدنـئ ، غيـر يـد واحـدة خاصمت رقـة الأنوثـة وطبيعـة حـواء الليـنة منـذ زمـن بعيـد ، هـى يـد بهيـة بـلا أدنـى ريـب ، والتـى وقفـت فـى منتصـف سـاحة البيـت تحـذر بصرامـة متناهيـة الأبنـاء الثلاثـة مـن محاولـة الاتصـال بأبيهـم المجـرم بـأى شـكل مـن الأشـكال، وإلا فـإن عاقبتهـم سـوف تكـون بالغـة السـوء ! .

●●●

(٧)

عاد شفيق وجدى إلى بيته فى العامرية وهو يضرب أخماساً فى أسداس ، وعفاريت الدنيا تتراقص أمام عينيه ، وحين اقتربت منه زوجته لتسأله عن السبب وراء امتناعه عن تناول الطعام ، أزاحها من سبيله بعصبية مفرطة وهو ينهرها بحدة :

- كفاكِ ثرثرة .

بعدها انطلق داخلاً باندفاع إلى حجرته ، وراح يفك رابطة عنقه كالمخنوق ، وارتمى بملابسه وحذائه الملوث بأقذار الطريق فى الفراش، ثم بيد عصبية أشعل سيجارة ، كان وميضها الخافت يرتعش فى ظلمة الحجرة على أثر ارتعاشة يده ، فلقد كان يفكر كالمجنون فى عاقبة فقدانه الملف الهام جداً والخطير فى آن واحد ؛ والذى اطلع عليه شخص ما من خلال جهاز حاسبه الآلى فى الشركة ، ولم يكتف بذلك فقط ولاحتى بأخذ نسخة منه ، بل تعمد أن يمحوه تماماً من الجهاز وكأنما ليوقعه فى ورطة لامثيل لها ، وكارثة لافكاك مها ، وجعل يلوم نفسه الليل بطوله ، ويعنفها بضراوة ، لنسيانه فى اليوم السابق وعلى غير المعتاد أن يحكم إغلاق جهازه بالرقم السرى جداً ، وبطريقة احترافية تصعب على أى مغامر ولو عبقرى عملية الاختراق القصرى، ولهذا كان من اليسير على أى شخص أن يدخل ويتجول فى جهازه بكل سهولة ويسر ، وتذكر أن زوجته الحمقاء كانت السبب الرئيس وراء نسيانه وضع الرقم السرى ، وذلك بسبب إلحاحها الشديد عليه فى

الهاتف كى يحضر سريعاً إلى العامرية ليأخذ الأم المريضة جداً لعيادة الطبيب ، ولهذا هب فيها لحظة محاولتها الاقتراب منه مرة ثانية ، وانهال عليها لكماً وشتيمة :

- الله يحرقك ويحرقكم أجمعين ، خربتى بيتى ياحيوانة يافاسقة، الله يخرب بيتك .

- هل تضربنى لكونى كنت خائفة على حياة أمك .

- هذا ليس شأنك ، ليس شأنك .

هرولت البائسة إلى الخارج وهى تكفكف بالكاد الدماء التى انفجرت شلالاً هادراً من فكها ، وقد تلاشت كل السبل من تحت قدميها .

هب عدنان من نومه فزعاً ، كانت صوراً تترى فى حلم منامه، والذى سرعان مااستحال كابوساً مرعباً ، وحين انتبه إلى من حوله وجد الريس عويضة يمرق من ناحية الباب الخارجى مهرولاً ناحيته وهو يتساءل :

- هل أصابك مكروه ياأستاذ .

فكر عدنان الذى كان يلهث بشدة أن يسأل عويضة عن زميلهم فى المكتب شفيق وجدى ، وأن يفاتحه فى شكوكه فيه ، وأن شيئاً ما مريباً يحدث فى الشركة سراً ، ولكنه آثر الصبر على العجلة، وحتى يكون على شئ من اليقين لا اليقين والبينة كلها .

كانت زفارة رائحة أسماك البحر تضرب مع الريح الباردة التى حملتها فى فتحتى أنف عدنان ضرباً موجعاً ، جعل حلقه يحتقن بشدة وكأنه ليس ابناً أصيلاً من أبناء ثغر الاسكندرية ، ولاصادف فى حياته مثل هذا الأجواء الحُبلى بكل أشكال التقلبات المناخية ، نظر إلى البحر ملياً وكأنما أيضاً كان يراه لأول مرة فى حياته ، فقد بدا فى ناظريه غريباً وعجيباً مع تغير زاوية الرؤية التى اعتاد أن يراه من خلالها ، فمن يرى البحر من شرق المدينة ليس كمن رآه من ناحية الغرب أو من عند قدمي الاسكندرية كما يقال ، وربما كان تفسير الريس عويضة لذلك هو الرد المناسب الذى جاء فى الوقت المناسب وهو يقلب ملعقة من الصفيح الزهر فى كوب الشاى الزجاجى :

- من هنا ينظر الفقراء على الأغنياء بحسرة على أحوالهم الوضيعة، ومن هناك يسكب الأغنياء على بحرى نظرة التعالى والأنفة، الحيتان الكبيرة يتمنون إزالة أعشاشنا وقواربنا من أجل مشاريعهم الكبيرة.

مد عدنان يده متناولاً كوب الشاى من يد الريس عويضة الذى استطرد قائلاً وهو يبتسم :

- قدرى ياأستاذ أن أقدم لك الشاى فى الشركة وهنا أيضاً.

علت ابتسامة فاترة وجه عدنان ولم يعقب ، فلقد كان فى حالة يرثى لها ، وبدا كمن يتهاوى فى نفسه إلى الحضيض ، بعد أن تزاحمت أبغض الصور والذكريات الأليمة فى جنانه ، وهذه الصور البغيضة هى التى دفعته كى يغادر بيت الريس عويضة فى مثل هذا الوقت المتأخر من الليل لعله يقدر على النسيان، ولكن هيهات أن يفر من النار من

تلبسته حلة جهنم الأبدية ، فلامفر من الاحتراق ولو ألقى بنفسه فى قلب مياه أمواج البحر التى تضرب شطآنه بلاهوادة ، ولكنه سرعان ماالتفت إلى الريس عويضة ، الذى وقف ساكناً فى مكانه ولم يتقدم مثله ناحية البحر وقال :

- اسكندرية القديمة ، أولاد البلد والشراغيش ، وزنقة الستات والأنفوشى وكرموز وكامب شيزار والعصافرة ورقصة الصيادية ، وطرح البحر ، ورائحة السمك الزفر، وعشش الصيادين وصنادلهم ومراكبهم وشباكهم ، والغروب ، وبنات بحرى والملاءات اللف ، وأبطال اسكندرية وبسالتهم واستماتتهم فى صد الأعداء الذين جاءوا من طريق البر أو البحر ، وشئ لله يامرسى ياأبا العباس ، كل هذا ألا يشفع عند أصحاب المال كى يخففوا الوطء ، هيه « فما أظن أديم الأرض إلا من هذه الأجساد « كما قال الشاعر ، الجميع يستوون فى النهاية فى قلب التراب حتى لايعرف الملك من المملوك .

- كلامك أسكرنى يابنى ، أقصد ياأستاذ .

التفت عدنان عائداً بتؤدة ناحية الريس عويضة وقال وعلى شفتيه ابتسامة رقيقة للغاية :

- بل أحبك أن تنادينى يابنى .

- استغفر الله ياأستاذ ، العين لاتعلو على الحاجب .

- من أجل رجل طيب مثلك تعلو وترفرف أيضاً فى السماء.

ضحك عويضة النقاش ملء شدقيه ، وكذلك ضحك عدنان، والذى أحس أنه يضحك لأول مرة من قلبه منذ سنوات بعيدة خلت ، سنوات طوال فقد خلالها الأب والأم ، وحتى إحساسه بالأبوة .

مرت الأيام ، وانتقل عدنان للسكن فى عشة صغيرة للغاية ، كانت تخص أحد الصيادين الذين تطول غيبتهم فى قلب البحر المتوسط، والذى خمن البعض أنه ربما يكون قد وقع فريسة سلطات إحدى الدول المجاورة لوقوع شباكه فى مناطق الصيد المحرمة دولياً ، ولقد كانت هذه هى رغبة عدنان فى الانتقال منذ البداية ، وبعد إلحاح منه أجيبت رغبته ، وحتى لايكون ضيفاً ثقيلاً على الريس عويضة وزوجته المسنة التى أعياها المرض ، فضلاً عن أبنائه وأحفاده الكُثر ، الذين كانوا يأتون للزيارة من آن لآخر ولمآرب أخرى ، كذلك كان لدى عدنان شعور بأنه يحتاج إلى فترة من الوقت وشئ من العزلة ، يعيد خلالها النظر فى خطط حياته المستقبلية ، وترتيب أفكاره التى بعثرتها الأحداث الجسام التى مرت به مؤخراً .

كان المكان ضيقاً وخانقاً ، وتملأ جنباته الشقوق ، وتنتشر فيه رائحة زفارة البحر ، ولكن موسيقى حالمة رقيقة كانت تنبعث من داخله، ليس من المذياع ولامن التلفاز، أو حتى من الهاتف المحمول الجديد الذى اشتراه عدنان من أجل التواصل من آن لآخر مع أولاده ومتابعتهم ، بل كانت تلك الموسيقى تنبعث من داخل سويداء نفس عدنان ذاته، والذى انقلبت حياته إلى النقيض تماماً ، وتبدل حاله من التشاؤم والأرق إلى التفاؤل والطمأنينة، ونشطت فيه ذاكرة النسيان فأتت على كل ماكان يؤرقه ويقض

مضجعه، واستجمع كثيراً من خيوط أفكاره التى تشتت، لِمَ لا وهو يأكل مفترشاً الأرض ببساطة ، ويشق فحل البصل الأحمر بقبضة يده إلى نصفين ، أحدهما له والآخر للريس عويضة النقاش، وكان كلما رآه عويضة على هذه الحال البسيطة وقد ردت إليه روحه وتوردت وجنتاه بالدموية، ضرب كفاً بكف وهو يقول مجلجلاً بالضحك :

- صحتك جاءت على الفقر والبصل يابنى .

- جان جاك روسو فيلسوف الثورة الفرنسية الشهير له مقولة تعجبنى للغاية : البدائية هى قمة الحضارة .

شرد عدنان طويلاً وقال وهو يشد قلة من فوق إفريز النافذة القريبة من البحر :

- هنا أنت لاتنسى أى شئ ، ولكن القوة التى منحتك إياها الطبيعة الطيبة ، والرحمة الإلهية بالفقراء تجعلك تسمو فوق كل آلامك وأحزانك ، وترفرف فوقها ، وتحركها وتديرها وليست هى التى تحركك وتغرقك فى بحورها التى لاقرار لها .

كذلك لم ينس عدنان صديقه رفيق حمدى الذى رحل منذ عدة أسابيع ، وكانت دموعه ليست تعبيراً منه عن الحب والتبجيل لصديق الصبا والشباب فحسب ، بل من أجل المصير السئ الذى يبدو أنه من المحتم ينتظره فى الحياة الأخرى الأبدية ، ولكن من يدرى لعل رحمة الله الخافية على بنى الإنسان تهون عليه كثيراً مما يتصور المرء بداهة أن رفيقاً سيلقاه جزاءً وفاقاً ، كما لم ينس عدنان البتة فتاة الشاليه الغامضة ، ولا الزميلة الحسناء التى أتت بين من أتوا لزيارته

فـى المستشـفى ، وهـى تشـبه فتـاة الشـاليه شـبهاً مربـكاً ، يحـار المـرء فـى روعـة دقتـه مـن شـدة التطابـق، فتـاة بـدت فـى ناظريـه وكأنمـا خلقـت علـى هواهـا، وأوكلـت إلـى نفسـها سـدة الأمـر كلـه كـى تصـور نفسـها بنفسـها كيـف شـاءت ، فمـن أحبـه الله خلقـه مثـالاً للجمـال المتسـامى ، الـذى يصلـح أن ينصـب بـه صاحبـه مَلِـكاً أو مَلَـكاً أينمـا كان ، هـى بحـق أميـرة مـن أميـرات الخيـال ، ولكـن عدنـان الـذى هزمتـه تصاريـف الحيـاة وخطوبهـا لـم يعـد هـو ، بـل أضحـى شـخصاً آخـر ، الشـخص الـذى يترقـب روعـة الأشـياء ويرصدهـا فـى أدق تفاصيـل صـورة الحيـاة مـن حولـه ، وليـس بالضـرورة فـى وجـه امـرأة ، أو قـوام ممشـوق هـام ومـال فـى روعـة وألـق غصـن بـان فـى شـجرة خضـراء باسـقة فروعهـا حتـى عنـان السـماء ، مـع الفقـراء ابتـدأت حياتـه ، وتمنـى مـن كل قلبـه أن تنتهـى بينهـم ، وحـين فـاتح الريـس عويضـة بهـذا الإحسـاس الـذى انقـذف فـى أعماقـه بشـكل عفـوى، رد عليـه الريـس عويضـة بـذات العفويـة قائـلاً :

- أشـر بإصبعـك فقـط علـى أجمـل بنـت فـى بحـرى ، تكـن الليلـة تحـت قدميـك ، وهكـذا تضمـن ياأسـتاذ البقـاء إلـى الأبـد فـى صحبـة الفقـراء المعدمـين .

ضحك عدنان طويلاً وقال :

- بـل أضعهـا فـوق رأسـى ، فقـط تسـتوفى الشـرط الـذى فـى نفسـى، نحـن نخطـئ حـين نفكـر فـى البحـث عـن شـركاء لأنفسـنا ، بـل أنصـاف مفقـودة .

فغر عويضة فمه عن آخره علامة عدم الفهم ، وفتح الباب ومضى منصرفاً ، فيما بقى عدنان وحده يدندن بأغنية ذات لحن قديم .

استوى عدنان جالساً وراء مكتبه فى الشركة ، وقبالته من بعيد بدا مكتب شفيق خالياً كعادته ومن اللحظة التى تواجها فيها، واحتدم بينهما حوار الخيال أكثر من حوار الواقع ، وحين سأل عدنان عنه الريس عويضة أخبره : «أنه أغلب الظن قد خرج فى مأمورية خاصة بالعمل» ، والحقيقة أن شفيق آثر الابتعاد عن عدنان لأطول فترة ممكنة حتى تتبين له الحقيقة بجلاء ، وهل وقع على سره حقاً كما يظن ، أم أن الأمر محض وهم وخيال منه، أما عدنان فقد انتهز فرصة تغيب شفيق وحاول فى لحظة خلوة مع نفسه انفرد خلالها بجهاز شفيق المريب ، وحاول أن يفتحه غير أنه فوجئ بالجهاز يطلب منه أن يدخل الرقم السرى لكى يستمر فى العمل من غير أن ينطفئ، فأدرك أن شفيق قد نسى منذ البداية أن يُفعِّل شفرة الجهاز ، ولهذا تمكن فى المرة الأولى من الدخول بسهولة إلى الجهاز ، أما هذه المرة فلقد بدا الأمر عسيراً عليه تماماً ، بل مستحيلاً مالم يدخل الرقم السرى ، كان عدنان جالساً بحذر جم إلى مكتب شفيق ، وراح يتلفت حواليه فى كل أنحاء المكان بين الفينة والأخرى ، وقد خمن فى نفسه أنه ربما تكون هناك عيناً ما خفية فى الشركة تعمل لمصلحة شفيق ، وهى التى تتقصى له الأخبار ثم تنقلها إليه بحذافيرها ، ولعل عدنان راح يبدى دهشته من نفسه لكونه لم ينتبه لغرابة شخصية شفيق هذا من قبل ، أو أنه كان ينفر منه بغير سبب معلوم ، وغيرها من إرهاصات وإشارات كانت تصب كلها فى تأكيد كون هذا الرجل يعمل أعمالاً مريبة فى

الشـركة ، ولكنـه لـم يعـر كل هـذه الأحاسـيس أدنـى التفاتـة أللهـم إلا بعـد احتكاكـه بشـكل مباشـر معـه ، وبسـرعة أفـاق عدنـان مـن شـروده ، وراح يطفـئ الجهـاز ويعيـد كل شـئ إلـى مـاكان عليـه الأمـر مـن قبـل ، وذلـك حتـى لايباغتـه أحـد الزمـلاء أو شـفيق وجـدى نفسـه بالدخـول ، فيتـأزم موقفـه ، وتسـوء صورتـه لأن أحـداً لـن يقـدم حسـن نيتـه وغيرتـه علـى العمـل والشـركة، بـل سـيراه عمـلاً مريبـاً وتجسسـاً مـن الدرجـة الأولـى ، بـل لـم يكـن ليتصـور أحـد أن محـاولـة اختـراق عدنـان لجهـاز أحـد الزمـلاء قـد بـدأت فـى الأصـل بهـدف البحـث فـى قاعـدة بيانـات الشـركة عـن موظفـة زميلـة وليـس أى شـئ آخـر كمـا كـان ظـن شـفيق فيـه ، ولكـن حـدث فجـأة مـاكان يخشـاه ويتمنـاه أيضـاً مـن كل قلبـه فـى آن واحـد .

●●●

(٨)

بسرعة بالغة ألقى عدنان بنفسه أرضاً أسفل مكتب شفيق ، وجعل يزحف متسحباً بين المكاتب بغية الابتعاد شيئاً فشيئاً لكيلا يراه أحد وهو يستعمل مكتب زميله فى عدم وجوده ، وبخاصة أن الفتاة الساحرة ناردين صبرى كانت هى من دخلت المكان فجأة، فخفق قلب عدنان بشدة ، حبس أنفاسه وهو لايصدق عيناه ، فهاهى ذى الفتاة الحسناء التى سحرته قد أطل قمرها مرة أخرى، فراح يلاحقها بعينيه وهو يحكم إخفاء نفسه فى مكمنه الذى لاذ به ؛ وفى الوقت ذاته كان يود من كل قلبه أن ينبرى واقفاً أمامها، ثم يدنو منها ويشرع فى إدارة أى حديث معها ، ولكنها باغتته بمفاجأة أخرى حين اتجهت كالمتسللة إلى مكتب شفيق وجدى ، وبدأت فى إدارة جهاز الحاسب الآلى ، وهى تنقر بعصبية وقلق بالغين على سطح المكتب ، ثم ذفرت بضيق شديد حين حاولت اقتحام الجهاز برقم سرى كان مدوناً فى ورقة مطوية فى ثنايا قبضة يدها الأخرى ، فأطفأت الجهاز بعد سلسلة متكررة من المحاولات المتوترة والفاشلة ، وقد أيقنت تماماً أن شفيق وجدى قد غير الرقم السرى الذى يعمل به الجهاز ، وكانت عينا عدنان الكامنتين خلال ذلك تتابعانها عن كثب بدهشة ولهفة جارفتين، وقد تباينت فيهما الكثير من المشاعر والأحاسيس الغريبة ، الاعجاب ، الوحشة ، القلق عليها من أن يفاجئها الزميل صاحب الشأن وهى تعبث بجهازه هكذا ، ذلك الزميل المريب الذى بات فى حكم المؤكد

لـه أنـه يدير عمـلاً خطيـراً غيـر مشـروع، وأنـه ان ظهـر فجـأة فسـيعرف أن الفتـاة قـد فضحـت أمـره كمـا كان يشـك فيـه هـو شـخصيـاً ، وسـيكون مـن غيـر المستبعد حينهـا أنـه لـن يتـورع عـن الإقـدام علـى أى عمـل طائـش ومتهـور يحفـظ لهـا اسـتمرار سـرية عملـه المريـب ، أو علـى الأقـل حتـى لايفتضـح أمـره ويقـع تحـت طائلـة القانـون ، ولذلـك هيـأ عدنـان نفسـه لأى احتمـال مفاجـئ ، ولـو كان الدفـاع عـن هـذه الفتـاة بحياتـه ذاتهـا ! ، أجـل لِمَ لايدفـع المرء حياتـه ثمنـاً مـن أجـل الآخريـن الأبريـاء ؛ وبخاصـة لوكانـت لهـم مالهـذه الفتـاة مـن وجـه ملائكـى بديـع ، وروح طاهـرة بريئـة ، وحتـى لـوكان لايعـرف لهـا اسـما ولاعنوانـاً ولاهـى أيضـاً كذلـك ، فكلاهمـا فـى الظاهـر لايعـرف الآخـر ، وإن كان كلاً منهمـا يـذوب فـى الآخـر ، ويعرفـه فـى سـويداء نفسـه جيـداً ، هكـذا حدثـت عدنـان نفسـه ، وأن ثمـة لغـز غريـب وراء انجذابـه لهـذه الفتـاة هكـذا ، سـواء كانـت فتـاة الشـاليه ، أو الموظفـة الزميلـة فـى الشـركة أو حتـى التـى تأتيـه خلسـة بلبـاس مـن الأنـوار السـاطعة فـى أحلامـه القديمـة والآنيـة ، فكلهـن فـى النهايـة يمثلـن فتـاة واحـدة ، وإحسـاس واحـد لشـخص واحـد ، ولـذا فكـر فـى الوقـت نفسـه الـذى يهيـئ فيـه نفسـه للمـوت دفاعـاً عنهـا ، أن يتحـين الفرصـة ويحـاول الظهـور بشـكل طبيعـى أمـام الفتـاة حتـى تعـرف علـى الأقـل مـن فـى وسـعه أن يضحـى بحياتـه مـن أجلهـا، فقـرر أن يتعـرف إليهـا بـأى حجـة مـن الحجـج ولوكانـت واهيـة ، فلقـد كان كل مايخشـاه حقـاً أن تختفـى فجـأة كمـا ظهـرت لـه فجـأة ، وأن يكـون هـذا الاختفـاء أبديـاً .

اختلـس عدنـان النظـر إلـى الناحيـة الأخـرى مـن المكان الفسـيح، حيـث كان يوجـد مدخـلاً آخـر لـه فـى الناحيـة المقابلـة ، نظـر فـى سـاعته والتـى

كانت تشير إلى قرب انتهاء ساعة الراحة وعودة الزملاء إلى مكاتبهم، فكان عليه أن يتصرف بسرعة جداً ، فجعل يزحف مسرعاً كالدودة من وراء مكتب لآخر حتى بلغ الناحية المقابلة ، واستتر وراء عمود فى زاوية المكان ، ولما تيقن أن أحداً لن يراه انتصب واقفاً ، وراح يسوى ملابسه وشعره ، ويعدل من وضع نظاراته الطبية على أرنبة أنفه ، ثم تقدم عائداً نحو الداخل فى اتجاه الفتاة ، التى أسقط فى يديها لما وقعت عيناها عليه، ولكن خفقان قلبه الجنونى غير له فجأة كل خططه وأفكاره ، فلقد تجهم وجهه فجأة ، وتحاشى أن ينظر إليها ، ووجد نفسه عاجزاً تماماً عن التحدث إليها ، أو إلقاء التحية عليها ولو بشبه إيماءة من رأسه !! .

راحت ناردين تلملم بعض الأوراق من هنا وهناك أو هكذا تصنعت، وهى تزيح بين الفينة والأخرى خصلات شعرها الأسود الغطيس الناعمة جانباً وكأنما لتسترق النظر خلسة إلى هذا الزميل «عدنان فخرى» ، والذى كان جالساً آنذاك وراء مكتبه وقد راح كذلك يبادلها النظرات المختلسة ، وقد جفت الدماء فى عروقه تماماً ، وابيضت شفتاه وأصبحتا أنشف من قطعة الكاوتشوك المتحجرة ، وبين طرفة عين وأخرى بدت وكأن الأرض قد انشقت وابتلعتها ، لم يدر بنفسه إلا وقد وقف كالمجنون يدير عيناه باحثاً عنها فى أرجاء المكان ، كان الموظفون قد بدءوا يتوافدون إلى المكان تباعاً ، راح عدنان يدفعهم بيديه جانباً وهو يهرول خارجاً من أقرب نقطة كانت تقف عندها الفتاة ، وفتش فى الدور كله عنها ، وبسرعة ارتقى درج السلم إلى الدور الذى يليه ثم الذى يليه ولكن دون جدوى ، أحس بنوبة من الإحباط والغم

تجتاحانـه، لـم يقـو بعدهـا علـى العـودة إلـى مكتبـه ، فانصـرف مغـادراً المكان برمتـه دون اسـتئذان ، جـرى عابـراً طريـق الكورنيـش إلـى صديقـه البحـر وهـو يلهـث ، وقلبـه يتواثـب بـين جنبيـه بصـورة جنونيـة .

كان البحـر على سـعته لايكفـى لاحتـواء غضبـه الـذى راح يلقيـه فيـه، وقـد أخـذ يتقـدم ناحيـة موجـه المترامـى بـين المـد والجـزر علـى حافـة الشـاطئ ، وخصـلات شـعره التـى تخللهـا قبـل الآوان بيـاض الخريـف العمرى تتراقـص مـع لسـعات الهـواء البـارد لحظـة انكسـار قـرص الشـمس الدامـى علـى حافـة الأفـق ، فتطلـع إليهـا عدنـان بعينيـه الوسـنانتين وكأنمـا ينشـدها كلمـات النفـس الشـاعرية قائـلاً :

– ويحـك يـا أميرتـى الذهبيـة لمـاذا تغربـين ، تؤذنـين بالرحيـل الأبـدى، اسـتحلفك بـالله اخلعـى ثـوب الغـروب ، واسـفرى عـن وجهـك الضحـوك ، لاتُـنيرى قـاع البحـار ، اشـرقى واشـعلى مهجـة الأشـواق ، لاتكونـى سـراباً، وخداعـاً بصريـاً ، فـإن تكونـى الوهـم فأنـا لـك مـن العشـاق الواهمـين ، أتـوق إلـى الوهـم ، ومرحـى مرحـى بعالـم الأوهـام إن كنـتِ فيـه تسـكنين ، عالـم أنـا فيـه بفضلـك سـيد الموهومـين .

كانـت نظـرات النـاس المتطلعـة إليـه شـفرية ، مـاكاد يفـك طلاسـمها فـى نفسـه حتـى ضـاق بصراخهـم الجنونـى فـى وجهـه : البحـر ليـس جبانـة للموتـى يامـن جئـت تلقـى تراتيـل الفنـاء فـى جوفـه، البحـر الحيـاة ياغريـق البحـر ، البحـر النـور والأمـل لا الغـروب والكآبـة أيهـا الموهـوم المهمـوم ، خلـه للعشـاق بحـق وحقيـق ، وليـس للمجانـين الذيـن يهيمـون علـى وجوههـم وراء السـراب .

ارتعد عدنان وهو يظن الظنون فى نفسه وقد أدماه هذا الإحساس وقتله ، إحساس أن كل مايراه محض سراب وخداع بصرى، فبالله أى فتاة بيضاء حسناء كانت تقف قبالته منذ دقائق معدودات، وأى قوام سارح زين مجلس ناظريه وقد راح يمسحها خلسة من فوق لتحت ، ومن تحت لفوق، لا لإيقاد نار الفتنة والرغبة فى نفسه ، توقان الرجل المشبوب للمرأة المثيرة؛ وإنما ليطابق بين الصورتين، صورتها فى عالم الحقيقة ، وصورة النصف المفقود منه لحظة ميلاده، وهنالك تذكر رفيق صاحبه الراحل ، والذى راح يواسيه ذات مرة بعد معركة هائلة بينه وبين بهية فقال له عدنان : بهية شريكة حياة ، زوجة افتراضية ، تركيبة بشرية فاشلة ، أما التركيبة الإلهية فمحال أن تخلف كل هذا الدمار وهذه الكراهية ، تزوجت نعم ولكن ليس من نصفى الآخر ، هيه يا صاح ، تزوجت امرأة فى خيالى أنجبت منها بنات أفكارى .

صرخ رفيق وأكمل ووصفى وهللوا : أى شعر هذا ، وأى فلسفة تلك، فاستطرد عدنان قائلاً :

- لاتبحثوا عن شريكات للحياة ، فما أكثر الشراكات الخادعة، والشريك فيها قد يكون الشرك بعينه ، عذاب وألم وضياع ، ولكن فتشوا عن أنصافكم المفقودة ، الرجل والمرأة زوج ، يخلقان معاً ، يلقيان معاً ، ولكن ليس معاً دائماً ، أبونا آدم جهد نفسه وبذل حياته حتى وجد نصفه الآخر أمنا حواء ، نصف قلبه الآخر ، القطعة من جسده وروحه .

لـم يكـن رفيـق ممـن يعجبهـم مثـل هـذا النـوع مـن الحديـث ، فقـال وكرشـه يتدحـرج علـى بطنـه مـن فـرط الضحـك :

- لاقـدر اللّه أن يكـون هـذا الـكلام صحيحـاً ، فيالهـا مـن كارثـة لـوكان لـى حقـاً نصفـاً آخـر يشبهنى ، وقتهـا سـوف اضطـر لإخـراج زوجتـى يوميـاً مـن قسـم شـرطة الآداب .

فـارتج المقهـى بضحـكات المقهقهـين ، ولكـن عدنـان الـذى مسـحت وجهـه ابتسـامة سـخرية عابـرة مـن صاحبـه جعلتـه يتمـادى معـه فـى القـول:

- الطيبون للطيبات ، كن طيباً تكن لك الطيبة .

- هـاأنتـذا قـد اعترفـت بنفسـك ، أن بهيـة قريبتـى طيبـة ، فـألسـت أنـت طيبـاً ؟.

- اللّه أعلم .

قـال عدنـان ذلـك وقـد جعـل التعقيـب صراخـاً وعويـلاً فـى سـره الأبـدى : الطيـب بحـق سـوف يكـون مـن نصيبـه الطيبـة بحـق ، أو أن الطيـب يبحـث بكـد عـن طيبـة مثلـه .

كثيـراً مـالام عدنـان نفسـه علـى هـذه الزيجـة والتـى خلفـت لـه ثلاثـاً مـن الأبنـاء ، أو الضحايـا الأبريـاء ، وكان كلمـا تطلـع إلـى السـماء ابتهـل إلـى ربـه متسـائلاً أن هـل بالضـرورة أن يأخـذ الطيـب الطيبـة، والخبيـث الخبيثـة ، وهـل هـو قـرار قـدرى بحـت ، أم أنـه قـراراً سـيادياً للإنسـان نفسـه ، فلـوكان الأمـر القسـمة والنصيـب والمكتـوب علـى الجبـين فليصبـر وليشـكر ولايفجـر ، وأن وقوعـه فـى شـرك بهيـة سـوف يجعلـه بالضـرورة

يعيد النظر إلى نفسه ، التى من المحال أن تكون طيبة مع وجود مثل هذه البهية !؟ ، أما لو كان الأمر اختيارى ، فهذا آوان الاختيار الحقيقى، والبحث المحموم عن أنصافنا المفقودة ، وياله من نصف زئبقى لايقدر على الإمساك به بيد أو ببصر ، ففى الصباح تجلت داخلة بوجهها الأبيض الجميل الطلق الدقيق القسمات ، وبقامتها المشوقة الفارعة، وشعرها الأسود المسترسل بكثافة حجاباً حتى الفخذين من الخلف ، كان هو أول من سقطت عليه عيناها النجلاوين ، فأطرق خجلاً للوهلة الأولى ، غير أن ساقيه خانتاه وانتصبتا واقفتين من غير استئذان منه، وتمردت عيناه عليه ، وتوشحتا ثوب العقل الآمر والناهى ، وتطلعتا طويلاً إليها ، وحين لم يكن القرار له تقدم ناحيتها مسرعاً وسط دهشة مكتومة من المتواجدين فى المكان ، وحين أضحى القرار له ، تجاهلها رغماً عنه ، ومضى مغادراً المكان وهو يلهث من فرط الخجل والتوتر ، وحين تنازعت السلطات فى نفسه ، جذب نفسه عائداً إليها، ووقف قبالتها طويلاً ، وتوقفت هى من أجله وتطلعت إليه ، وحينها أدرك : أن الفتاة الوحيدة التى لاتستطيع أن تتكلم معها بسهولة هى تلك التى تحبها ، وأن الكلمة الوحيدة التى تملكها حيال معشوقتك ، وتطبق عليها بشفتيك المعذبتين – من بين قاموس الكلمات البشرية المهول – أحبك ، ولهذا دام صمته طويلاً ، ثم أولاها ظهره ومضى مغادراً المكان وهو يتعثر فى إقدامه المتقهقر ، فلم يكن من المعقول ولا الجائز عقلاً أن تكون أول كلمة يفوه بها لإنسانة لاتعرفه ولايعرف عنها أى شئ : أحبك !!.

وفى المساء لم يأت لزيارته الريس عويضة كما اعتاد أن يفعل فى الآونة الأخيرة ، فارتدى ملابسه ومضى خارجاً بعد أن اطمأن على أولاده بمكالمة هاتفية قصيرة ليس بمحض ارادته ، وفى الطريق لمح من بعيد بعض الصيادين يقفزون من مراكبهم إلى الشط ، ثم يمرقون وهم فى عجلة من أمرهم ، ويحمِّلون طاولات السمك على سيارات النصف نقل المتجهة إلى الشوادر والمطاعم، قرع باب البيت البسيط الذى يسكن فيه الريس عويضة والذى قابله وسحابة من الجهام تعلو وجهه الطيب ، فسأله عدنان بدهشة من وجد عكس مايجد دائماً من آيات الترحاب والتهليل والتبجيل :

- مساء الخير ياريس عويضة ، لم نعد معاً ، وانتظرتك فى بيتى كالعادة ولم تأت ؟.

- أهلاً ياأستاذ ، الظروف .

قالها عويضة بجفاء واضح ، ولم يهش ولم يبش فى وجهه كما كان يفعل دائماً عند استقباله ثم يدعوه للدخول ، ويقدم له الشاى والهريسة والكبدة الاسكندرانى المعصور عليها الليمون اليافاوى الشهير، ثم يودعه بمشنة ملآنة بالسمك الطازج ، ولما طال وقوفه بالباب قال مبتسماً :

- لتخرج لى أو لأدخل لك .

فقال عويضة بعصبية مفاجئة :

- لاهذا ولاذاك ، صباح الخير ياجارى أنت فى حالك وأنا فى حالى .

أذهلت كلمات عويضة الجافة عدنان ورسمت أخاديد عميقة من الدهشة فى تقاسيم وجهه ، وبسرعة وضع يده كى تكون حائلاً بينه وبين إغلاق الباب فى وجهه ، وهو يهز رأسه استنكاراً ، فاسترسل عويضة قائلاً بذات العصبية :

- اسمع يأستاذ لاتضطرنى فى نهاية عمرى إلى الخيانة والحرام ، جلوسك المتكرر على جهاز الأستاذ شفيق وجدى فى غيابه ومن غير علمه حرام ، وأنا من حبى وتقديرى لك لم أقو على ابلاغ صاحب الشأن أو العمل بأفعالك الصبيانية المريبة، والمرسى أبو العباس هذه خيانة منى لواجبى وللقمة العيش والملح............

فقاطعه عدنان بإشارة من يده وهويتنفس الصعداء وضاحكاً فى الوقت ذاته وقال وكأن هماً ثقيلاً قد انزاح عن صدره :

- معك حق ، فى البداية وقعت فى الخطأ ، أما الآن فأنا أبحث عن الخطأ ذاته .

نظر عويضة نظرة مستفهمة ، فجذبه عدنان من يده برفق إلى الخارج وهو يكمل حديثه قائلاً :

- فى قهوة القرش سوف أشرح لك كل شئ ، ولكن باللّه عليك لاتتخل عن مناداتى بكلمة يابنى .

فتبسما وتعانقا طويلاً .

كان هواء البحر فى هذه الليلة عاصفاً ، وقد أرسل بأطراف العباءة التى يرتديها عدنان إلى عنان السماء ، وقد راح يمضى بمفرده قرب

الشاطئ ، فلقد كانت هذه هى رغبته حين فارق عويضة بعد أن جلسا طويلاً فى قهوة القرش يتبادلان أطراف الحديث ، ولكم كان تحذير الريس عويضة له شديداً ويشبه فى وقعه جرس الإنذار، فرجل مثل شفيق وجدى لايرحم ، وجميع من يعملون فى الشركة يعلمون جيداً بمدى انحرافه وإجرامه منذ زمن طويل ، وقبل أن ينتقل عدنان من الفرع الرئيس فى سموحة إلى فرع سيدى جابر ، ولقد كانت هذه الكلمات كافية فى حد ذاتها لكى يفهم أنه لم يمض منذ البداية فى الطريق الخطأ ، وإنما فى طريق الصواب ، ولكن تحذير عويضة النقاش له كان بالغاً فى الشدة لعلمه المسبق بمن هو شفيق وجدى هذا ، فهو ليس موظفاً تقليدياً بل أحد عتاة الإجرام ، والذى جاء من الحضيض والفقر المدقع ، ثم هاهو ذا بين ليلة وضحاها يصبح ممن يشار إليهم بالثراء ، وبات من ملاك السيارات والشقق الفاخرة والشاليهات الباذخة، فلقد كان هذا هو مايتردد فى الخفاء بين موظفى الشركة وبين بعضهم البعض، أما الحقيقة فلايعلمها أحد غير اللّه .

كانت الفتاة التى تشغل عقل وبال عدنان ، هى الشئ الوحيد الذى تحاشى ذكره ، فلم يشر إليها أثناء جلسته مع الريس عويضة فى قهوة قرش من قريب أو من بعيد ، لالشئ إلالرغبته فى عدم الزج بها فى أمر لايُعرف له عاقبة ، ولا إلام سينتهى ، وبخاصة أنه تأكد من صحة أمرين اثنين :أن شخصاً مثل شفيق وجدى منحرف بكل تأكيد ، وأن الفتاة تفتش مثله عن الجريمة وربما الجرائم التى يخفيها ، ولكن فجأة تفجر فى رأسه سؤال كالقنبلة المدوية : وماذا لوكانت هذه الفتاة نفسها شريكة له فى جرائمه، حينها هل يتعين على أن أفتش عنها

لاكحبيبة ولكن كمجرمة ، ولن أقدمها لقلبى كما كنت آمل بل إلى المحاكمة !.

فالتفت ناحية البحر وصرخ بعلو حسه :

- أى عالم مخادع ذلك الذى نحيا فيه ، أين الحقيقة وأين السراب ؟!.

ولكنه سرعان ماتذكر الفتاة وقد عجزت عن الدخول إلى ملفات شفيق وجدى السرية ، فلم تكن تملك وقتها مايمكنها من الدخول والتجول فى جهاز الحاسب الآلى كما تشاء ، وهذا دليل على براءتها ، فلوكانت ضالعة فى أى جريمة مع شفيق لأصبح من اليسير عليها أن تحصل على الكود السرى الذى تستطيع أن تدخل به على الجهاز ، كما أن توترها وقلقها خير دليل على براءتها ، وأنها مثلى كانت تفتش عن شئ ما يدين شفيق ، وفوق ذلك وكما يقول لى قلبى واحساسى المرهف نحوها : إنها انعكاس لنصفى الآخر ، ألست نصفها الآخر ، فلوكنت منحرفاً لأضحت مثلى منحرفة ، لكوننا اثنين متماثلين فى واحد ، لاضدين فى واحد .

قسمات وجهها الرقيقة ، ابتسامتها الصافية الرائقة كماء البحر ، حركاتها ولفتاتها وهمساتها الشاعرية ، جلها أشياء نقلتها فى ناظريه من مصاف الجنس البشرى إلى الملائكية المطلقة ، لمحها وهى تمضى قدامه من بعيد على سطح مياه البحر بثوبها الأبيض الهفهاف ، لم تكن خيالاً كما قد يظن المرء للوهلة الأولى ، كانت تتقدم منه بالفعل وقد توشى ثغرها الأحمر الدقيق بابتسامة مسكرة :

- لاتهرب منى هذه المرة .

- أأأأنتِ ؟!.

ضحكت ، وأخذت بيده ، وارتمت به على صفحة المياه وأجلسته :

- تعال ياحبيبى .

- ولكننا سنغرق فى الماء هكذا .

- لاتخش شيئاً مادمت معك .

تحسس عدنان جسده ورأسه بيديه لئلا يكون واهماً ، أو أنه عشق جنية من الجنيات اللائى يأتين بأعجب الأعاجيب ، فضحكت طويلاً ضحكة رقيقة رددها الصدى وتجاوب معها فى خشوع قدسى ، قالت وكأنما قد سمعت صوت وساوسه الدفينة :

- لست جنية البحر كما تتصور ، وأكثر ماأمقته قصص الحب التى تدور أغلب أحداثها فى الخيال .

- هه أنتِ الخيال بعينه .

أطرقت الفتاة طويلاً ، وقالت دامعة العينين :

- اضطررت إلى المجئ بهذه الهيئة الأسطورية بعد شكك فى .

- لاتسم الوساوس التى تتصارعنا شكاً ، نحن نمارس عادات بشرية أملتها علينا العناية الإلهية ولايد لنا فيها ، والعقل يغدو ويروح ويصور لنا الصور صحيحها وباطلها ودون أن يكون لنا أدنى دخل فى ذلك ، الشئ الذى يعنيك فى الأمر هو قرارى النهائى ، وأنك البراءة المطلقة .

ضحكت الفتاة برقة وعذوبة وقد طاول شعرها الطائر علو دقات القلب الممتزجة بأمواج البحر الهائجة فى السماء ، بعد فترة من الصمت وتبادل الأنفاس الساخنة اللاهثة تجرأ الفتى على الإمساك بيد محبوبته وناداها لأول مرة باسمها الذى كان لم يزل بعد يجهله :

- ناردين ، أأنتِ حقاً نصفى الآخر .

أفاقت ناردين فجأة من سباتها وقد غمرت المياه الدافئة تعاريج جسدها العريان ، اتشحت سريعاً بملاءة الفراش ، ثم جرت مهرولة إلى الخارج ، وحين تعثرت وجدت نفسها ملقاة إلى الأرض بجوار نتف من صورتها الممزقة وهى بملابس الزفاف البيضاء ، كانت الدهشة تملأ عينيها عن آخرهما ، وبدت كأنها تعيش حالة غريبة من الصراع النفسى غير الطبيعى ، وهى تكاد تصرخ هاتفة بجنون :

- أكنتُ حقاً فى كنف بشرى أم حيوان قذر لاآدمى ؟!.

●●●

(٩)

فـى الصبـاح الباكـر تصـادف مرورهمـا جنبـاً إلـى جنـب ، كان فـى طريقـه نحـو الداخـل فـى اللحظـة التـى كانـت هـى فيهـا خارجـة مـن البنايـة، الكتفـان تماسـا ، نظـر كل منهمـا نحـو الآخـر مليـاً ، ترجـرج بـين الشـك واليقـين فـى حقيقـة كونهـا قـد أومـأت لـه برأسـها مـع ابتسـامة لطيفـة عابـرة ، وحـين تخلـص مـن ارتباكـه اللحظـى كانـت قـد اختفـت تمامـاً، اسـتدار عائـداً إلـى الخـارج وهـو يتلفـت حواليـه بلهفـة شـديدة، تكهـن بأنهـا قـد سـارت فـى اتجـاه بعينـه ، راح بسـرعة متناهيـة يقطعـه حتـى بلـغ ناصيـة الشـارع ، ودار مـع الطريـق وهـو بـين السـعى الحثيـث والركـض السـريع ، كانـت رائحـة عبيرهـا الزكيـة تزكـم أنفـه ، وخصـلات شـعرها الطويلـة التـى أحـس أنهـا قـد لامسـت وجهـه لحظـة تماسـا معـاً بالكتفـين أشـعرته بأنـه يلـج فـى عالـم مـن الخـدر اللذيـذ ، وتمنـى مـن كل قلبـه أن يلحـق بهـا أينمـا كانـت ، كان الشـارع طويـلاً ويبـدو بلانهايـة ولا أثـر لهـا ، فقـرر علـى الفـور أن يدخـل أول شـارع علـى يمينـه ، وفـى اللحظـة ذاتهـا ومـع اندفاعـه الشـديد تكـررت صـورة ماحـدث بينهمـا فـى مدخـل بنايـة المؤسسـة الشـاهقة الارتفـاع التـى يعمـلان بهـا ، ولكـن هـذه المرة كان الصـدام ليـس بأطـراف الكتفـين ، بـل بالجسـدين نفسـهما ، ومـن غيـر أن يشـعر فـرد ذراعيـه وسـادتين حانيتـين واحتواهـا بهمـا قبـل أن تسـقط أرضـاً، فعـل ذلـك فـى جـزء يسـير مـن الثانيـة وهـو يتمتـم بآيـات الاعتـذار لهـا، وقـد اسـتلقت بـين ذراعيـه كحوريـة مـن حوريـات البحـر السـاحرات ، فابتسـمت قائلـة :

- لاداعى لكل هذا لاعتذار ، أنا أيضاً صدمتك بغير قصد.

كان فى إمكانها أن تتصرف مباشرة ، ولكنها بدت فى ناظريه تتباطأ فى سيرها ، ربما لتمنحه فرصة الدخول معها فى أى حديث، فهو قبل أى شئ زميلاً لها فى العمل ، فانتظرت قليلاً، ولكن خذله لسانه كالعادة وكلما رآها هى تحديداً ، فلما لم تجد أى داع للمماطلة أفسحت فى خطاها عائدة إلى العمل ، فاستدارت مع انحناءة الطريق العمومى ، عدنان كذلك استدار عائداً فى أثرها مغادراً الشارع الجانبى إلى الشارع العمومى ، ولكنه فوجئ بها واقفة فى سبيله وقد عقدت ذراعيها فوق نهديها الكاعبين ، وقد سددت إليه نظرة ما مليئة بالكثير من المعانى ، فقال عدنان فخرى وهو مغمض العينين وقد بدا فى رهبة من يلقى بنفسه من فوق ناطحة سحاب :

- آمل ياآنستى ألا أكون قد ضايقتك .

- هل بدر منى مايستحق هذه المراقبة .

- لا لاقدر اللّه ، أنا فقط ممتن لزيارتك لى فى المستشفى، أنتِ وبقية الزملاء بطبيعة الحال ، شكراً .

- لاشكر على واجب ، وآمل أن تكون فى صحة جيدة الآن .

قالتها وهى تمضى منصرفة ، كاد عدنان يمد يده نحوها ويمسكها من أطراف أناملها وفى عينيه نظرة المعاتب الذى يلوم تجاهل حبيبته له، وأنه من أنقذها من الموت المحقق ليلة الشاليه المشئومة ، وأنهما عشية أمس ظلا حتى ساعة متأخرة من الليل يجلسان معاً على سطح مياه

البحر الزرقاء ، فكيف إذا أصبح عليهما الصباح مضيا هكذا وكأن أحدهما لايعرف الآخر ، ومن غير وعى هتف هامساً باسمها الذى كان يناديها به فى الخيال وقد اتسعت المسافة بينهما للغاية ، ففوجئ بها تستدير ملبية نداءه :

- ناردين .

- ....

علت الدهشة وجهه ، ولم يدر هل سمعته حقاً ، أم أن شيئاً ما يعتمل فى نفسها مثل الذى يعتمل فى نفسه جعلها تنتبه إليه ، وخيل إليه أنها أيضاً مثله مشدودة إليه ، وأنه يشغل بالها كما تشغله هى، ولكن خجله المجوج أنطقه بعكس ماكان يضمره فى قلبه نحوها تماماً.

- آسف ، أقصد آنسة ناردين ، ماذا كنت تفعلين عصر أمس بجهاز زميلنا شفيق وجدى .

وعلى الفور سقطت ابتسامتها عن وجهها ، وحلت محلها تقطيبة حادة للغاية ، فأمسك عدنان رأسه بكلتا يديه ، فلم يكن هذا ماكان يقصده ، من المؤكد أنها كانت تنتظر منه كلمة أخرى ونظرة أخرى، وأن يدنو منها ويحدثها برقة ولطف ، لا بهذه الطريقة الفظة التى تشبه طريقة محقق النيابة «أسعد سلطان» والذى كان يستجوبه وكمن يستجوب لصاً محترفاً ، هكذا حدثته نفسه ، وحين تطلع فى صفحة وجهها البيضاء الناصعة أحس أن مهمته فى إزالة هذه التقطيبة الحادة ثقيلة للغاية ، وبعد نوبة من التردد تقدم منها ببطء وقال بنبرة تشبه الهمس :

- آنستى ، ماعلمته عن شفيق وجدى يجعلنى أحذرك منه بشدة، رأيتك بالأمس جالسة فى مقعد مكتبه ، كنت تعبثين فى جهازه ، كنتِ تحاولين الوصول إلى شئ بعينه، أليس كذلك ؟ .

- لا لا ليس ماتقوله صحيحاً .

صمت عدنان طويلاً ، وبدا وكأنما كان يصغى لحوار آخر يدور فى داخله ، ولكن ناردين قطعت عليه حبل شروده الطويل قائلة :

- قل لى إلى أين قادتك شكوكك فىّ بالضبط ؟.

- لم أشك فيكِ ، قلت لكِ لا .

- قلت لى !!؟.

- أجل ، الدلائل كلها تبرئك ، لاسيما الدليل الأول أو الأخير أو لنسمه مانسميه .

فغرت فمها دهشة وقالت وقد اتسعت عيناها الحوراء عن آخرهما :

- أى دليل تقصد ؟.

كانت ناردين مندهشة للغاية من طبيعة هذا الحديث المبتور العجيب الذى لامعنى له ، والذى كان يدور بينهما آنذاك ، وبين طرف ثالث خفى لم تره هى ولكنه كان بلاريب يكمن فى كل سويداء نفس عدنان ، ويحدثه أن فتاة الشاليه البائسة ، هى نفسها فتاة البحر

الساحرة التى زارته ليلة أمس ، كما زارته من قبل وهو راقد طريح الفراش فى المستشفى ، وكلهم هم ذات الفتاة الناعسة الهيفاء الماثلة أمام عينيه ، كم كان يود عدنان فى هذه اللحظة الأسطورية أن يمد إليها يداه ، ويلتقط برفق أطراف أصابع يديها الرقيقتين ، ويشبك أصابع أياديهما فى بعضها البعض ، ولكنه تراجع عن ذلك خشية أن يقبض العدم ، ولئلا يستفق على الحقيقة المؤلمة إن كان مايراه عدماً بحق وحقيق، لا بل حقيقة بمعنى الكلمة ، حقيقة من لحم ودم تسد عين الشمس بنورها الساطع ، وكالمتردد بين الملامسة وبين المباعدة اكتفى بالنظر إليها طويلاً وهو يقول كالهامس الولهان :

- إحساس ما يملأ أغوارى هو دليل البراءة والنقاء والطهارة التى تفعم نفسك .

ولو كان الأمر بيده لاسترسل معها فى حديث النفس النشوانة الفائرة إلى الأبد :

- كم برأيك مر من اللحظات ، الدقائق ، الأسابيع والشهور والسنين وآدم يبحث عن حوائه ، آسف حبيبتى وصلت متأخراً ، ولكنى وصلت على أية حال .

ولكنها قطعت عليه شروده قائلة :

- ماهى معلوماتك بالضبط عن شفيق وجدى .

كان شفيق وجدى ربما هو الحجة التى تعلل بها عدنان كى يحاول اقتحام السياج الحديدى الذى يفصل بينه وبين نصفه الآخر المفقود،

وكان هـو الحجـة ذاتهـا بالنسـبة لناردين التـى استشـفت بقـرون استشـعار المرأة البالغـة الحساسـية أن الرجـل الـذى يقـف قبالتهـا ليـس صـورة لحظيـة تفنـى فـور نهايتهـا ، بـل هـى البدايـة العنيـدة ، هـى العاصفـة التـى لاتمضـى مـن غيـر أن تأخـذ ماتريـده ، فقـررت أن تضـع سـداً سـريعاً بينهمـا لئـلا تمضـى العاصفـة وقـد انخلـع معهـا قلبهـا اللهفـان إلـى سـاكن حبيـب يشـغله ، ولكـن عدنـان أحـس برغبتهـا فـى تغييـر حديثـه عـن إحساسـه الدفـين الـذى يضمـره فـى نفسـه ، ذلـك الإحسـاس الأسـطورى الـذى هـو دليـل براءتهـا ونقاوتهـا فـى نظـره ، وأن سـؤالها عـن المعلومـات التـى لديـه عـن شـفيق وجـدى كفيلـة بـأن تمـد حبـال العلاقـة بينهمـا قبـل أن تنقطـع ، فنظـر بعيـداً إلـى أحـد الكافيهـات المطلـة مباشـرة علـى البحـر وهـو يقـول لهـا برقـة :

- يمكننـى أن أحدثـك عـن معلوماتـى عـن شـفيق وجـدى فـى مـكان آخـر غيـر هنـا ، هنـاك ممكـن ؟ .

قبلـت ناردين صبـرى دعـوة زميلهـا عدنـان فخـرى فـى الحـال ومـن غيـر سـابق تفكيـر ، ولـم يكـن سـبب قبولهـا الدعـوة يرجـع إلـى رغبتهـا فـى الحصـول علـى المعلومـات التـى لـدى عدنـان عـن زميلهـم المريـب فـى العمـل شـفيق وجـدى ، كذلـك كانـت دعـوة عدنـان لهـا لاتمـت بصلـة لشـفيق وجـدى، كان الأمـر فـى الأصـل لايعـدو كونـه مجـرد حجـة تقـرب الفتـى مـن فتاتـه ، والفتـاة مـن فتاهـا ، وعلـى هـذا المنـوال سـار اللقـاء بينهمـا ، فحـين جلـس قبالتهـا فـى الكافيـه المشـاطئ لميـاه البحـر الضاربـة سـاعة الضحـى إلـى الزرقـة الذهبيـة ، نظـر عدنـان إليـه مليـاً وكأنمـا يقـول لـه : لـم تعـد ملهمـى أيهـا البحـر بعـد أن حضـرت ملهمتـى الحقيقيـة .

وكأنما سمعته فقالت له هامسة وهى تتطلع إليه من وراء نظارتها الشمسية السوداء الكبيرة ، وتحكم بيدها فى الوقت ذاته خصلات شعرها المتطايرة على رأسها وقد سكنته رياح البحر الهوجاء :

- ماذا كنت تقول ؟.

فقال لها مبتسماً بعد عناء وهو يغالب خجله ودقات قلبه التى فضحته :

- كنت أقول إذا حضر الماء بطل التيمم .

أحس أنها لم تفهم مقصده على وجه التحديد ، فاسترسل موضحاً وهو يديم إليها نظرة الانبهار التى لم تفارقه البتة منذ رآها لأول مرة :

- من قبل كان البحر يعيننى على البوح بأعذب الكلمات ، ويمنحنى أروع الصور شاعرية ، أما الآن وأنا أتطلع إليكِ فلست فى حاجة إليه بالمرة .

أطرقت ناردين خجلة ، وسرت قشعريرة مسكرة فى جسدها، فيما استطرد عدنان قائلاً بعفوية بعد أن ملك زمام نفسه المضطربة :

- ناردين هذه ليست مغازلة منى لكِ ، هذه هى الحقيقة ، فمن يزرع ورداً يجنى ورداً ، كما أن هناك أناساً يزرعون فى نفوس الآخرين الطمأنينة وراحة البال ، فمن الطبيعى أن يعود عليهم مازرعوه بالخير والرضى ، أما أنتِ ....

فقاطعته ناردين قائلة بحسها الأنثوى المرهف :

- الكلام واضح ولاداعى لأن تسترسل فيه ، أستاذ عدنان حضرنا من أجل الحديث عن شفيق وجدى .

- شفيق وجدى مجرم لاريب فى ذلك ، ولكن لاأكتمك سراً أننى اتخذته بغير قصد منذ البداية حجة تقربنى منك .

كان الحديث لايحتاج إلى تفسير أكثر من ذلك لتفهم مغزى كلام عدنان ، وإلام يرمى فى حديثه إليها ، فقالت بشكل مباشر وكأنما لتلفت نظره إلى شئ ما :

- أنت متزوج وعندك أبناء ، عرفت ذلك أثناء زيارتنا الجماعية لك فى المستشفى .

أطرق عدنان صامتاً لفترة طويلة ، بعدها أدار وجهه ناحية البحر وهو يتنهد تنهيدة عميقة ثم قال :

- بهية زوجة افتراضية ، هى ليست نصفى الآخر ، أللهم إلا إذا صدقنا الأساطير القديمة التى تقول بالمخلوق الذى نصفه إنسان ونصفه الآخر وحش همجى ، أنجبت منها ولدين وبنت واحدة ، هم أيضاً أبناء افتراضيين لأنهم لم يأتوا من زوجة حقيقية ، أعنى بالزوجة النصف الآخر ، النصف الحقيقى الذى أشعر أنه يكملنى وأننى أكمله .

بدا على ناردين الاهتمام الشديد بحديثه ، حتى أنها تخلت عن حذرها قليلاً ورفعت النظارة قليلاً عن عينيها الساحرتين ، وقد جعلت كل حواسها آذاناً مصغية له وقد أردف قائلاً :

- ومع ذلك هم أبرياء لاذنب لهم ، أحبهم أكثر مما أحب نفسى، الطلاق رخصة شرعية حان وقتها بلاجدال ، الطلاق هو بوابة الطوارئ الذى نفر منه حين تشتعل النيران فى أرجاء المكان الذى نتواجد فيه ، هو طوق النجاة الذى يلقى إلينا فى لحظة الغرق فى خضم مياه البحر، ولكنى مع ذلك لست ممن يؤمنون بالمثل القائل : إذا جاء الطوفان ضع ولدك تحت رجليك .

بدا عدنان فى حالة يرثى له ، وقد أغمض عينيه عن آخرهما وهو يرى النار تشتعل فى كل أرجاء العالم لاسيما جهة واحدة ، فلما هم يهرول ناحيتها هارباً ، سمع صراخ وعويل أبناءه وقد أوشكت النيران تشتعل فى أجسادهم الرقيقة ، فاضطر للبقاء بجوارهم ، والتضحية بنفسه من أجلهم ، وهنالك فتح عينيه عن آخرهما وحملق فى وجهها هائماً :

- الضرورة اقتضت منى البقاء والتضحية ، ولكن هذا لايعنى أن أضحى بنفسى دائماً ؛ وبخاصة بعد أن وجدت نصفى الآخر .

قال عبارته الأخيرة وهو يحاول الإمساك بإحدى يديها المبسوطة كشال حريرى إلى فخذها اللفاء ، ولكنها تملصت منه فى الحال وهبت واقفة ، وقالت وهى تعيد وضع النظارة السوداء على عينيها وتنظر بحركة مفتعلة فى ساعة يدها الفضية :

- أستاذ عدنان قد لاتكون معادلة النصف الآخر هذه صحيحة.

- لولم تكن صحيحة لما دعينا أزواجاً .

- لنفترض جدلاً أنها صحيحة ، فلماذا تتصور أننى على وجه الدقة نصفك الآخر .

- إحساسى العميق يقول ذلك .

- لوكان إحساسك عميقاً حقاً كما تقول ، لكنت قد أدركت أشياءً كثيرة خافية عليك .

قالت ناردين ذلك وهى تتنهد تنهيدة حارقة وتتقدم ناحية مخرج المكان فى آن واحد ، فجرى عدنان لاحقاً بها وهو يلهث قائلاً :

- ليس فقط إحساسى هو الذى يقول إنك نصفى الآخر .

- كونى تهورت مثلاً وقبلت دعوتك ، فأصبحت بغير حق ترانى نصفك الآخر ، وتقطع على الطريق أيضاً بهذا الشكل .

- معذرة ، ولكن مابيننا ياناردين هو خير دليل على صدق إحساسى .

فصرخت ناردين فى وجهه صرخة دهشة رهيبة لفتت الأنظار إليهما وهى تقول :

- مابيننا !! ، أأنت مجنون !؟ .

لاحت أمام عينيه لحظة كانت مسجاة على مياه الشط غارقة فى دمائها ، ولحظة أفاق من غفوته ليجد المد والجزر قد سحباها إلى داخل أعماق البحر المظلم وبعيداً جداً عن الشاطئ ، تلك اللحظة التى كاد فيها يموت من أجلها ، بل لم ينس لحظة تراءت له على الشاطئ

فـى كرمـوز ، وقـد أتتـه كمخلـص مـن مخلصـى السـموات العـلا وهـى ترفـل فـى مشـيتها علـى صفحـة ميـاه البحـر، وكانـت رؤيتـه إيّاهـا مدعـاة لكـى يهـدأ الـروع المجنـون ، ويسـكن القلـب المفتـون ، إنـه رآهـا وأحبهـا وهـام بهـا قبـل أن يعرفهـا ، وضحـى بحياتـه مـن أجلهـا ، وكاد يلقـى حتفـه لـولا أنقـذه لنـش خفـر السـواحل البحـرى، أكان كل هـذا وهـم ، وأليسـت هـذه الماثلـة أمامـه هـى نفسـها مـن رآهـا مـن قبـل رأى العـين فـى الخيـال والواقـع معـاً، ثـم مـن أملـى عليـه اسـمها الـذى كان يجهلـه ، هكـذا ظلـت نفـس عدنـان تحدثـه طويـلاً فـى برهـة قصيـرة جـداً مـن الزمـن ، أفـاق بعدهـا ليجـد أن الفتـاة قـد غـادرت الكافيـه ، فجـرى محـاولاً اللحـاق بهـا وهـى تعبـر الطريـق، وهـو يهتـف بهـا ويسـتحلفها أن تلتفـت إليـه ، وأن تسـمعه حتـى يفـرغ مـن حديثـه تمامـاً ، ولكنهـا باغتتـه بمـا تمنـى مـن كل قلبـه أن يحـدث ، إذ توقفـت فجـأة عـن المسـير ، والتفتـت ناحيتـه ، ولكنهـا أسـمعته هـذه المـرة مالـم يكـن يتمنـاه البتـة :

– إذا لـم تتصـرف فـوراً ، فلسـوف أنـادى العسـكرى كـى يأخـذك إلـى السـجن ، أو حتـى السـراية الصفـراء .

●●●

(١٠)

كلاهما لم يغمض له جفن الليل بطوله ولم ينم حتى الصباح، وكانت آلامهما واحدة بشكل مذهل ، كان ما آلم عدنان وأقض مضجعه إحساسه بالذنب ناحية ناردين ، وأنه قد ضايقها بتسرعه الشديد، ولم يكن ألمه وضيقه من أجل نفسه وشكه فى حقيقة الأحاسيس التى تعتمل فى نفسه ، والتى تحركه كيف تشاء وكأنه دمية لاحول لها ولاقوة ، كذلك كان الحال بالنسبة لناردين التى أحست أنها قد جرحت مشاعر إنسان تعس ، إنسان يعيش مأساة بكل ماتحمله الكلمة من معنى ، ولقد كان فى وسعها أن تصده ، ولكن ليس بمثل هذا الجفاء ، وهذا العنف ، والتهديد بالسجن وإيداعه مستشفى الأمراض العقلية ، فلكم شدها إليه برجولته الرقيقة الراقية ، وشتان بينه وبين من عرفتهم وهم يرفعون لواء الرجولة والفروسية وهم إلى الحيوانات والبهائم أدنى ، أما أكثر ماكان يؤلمها حق الإيلام هو ذلك الإحساس المغناطيسى الذى يقود صاحبه بشكل قسرى فى اتجاه ما، ويجعله يمضى كالمغيب المعدوم الإرادة ومهما أبدى من وسائل التمنع والإباء، ولهذا قررت أن تنقطع عن العمل لفترة حتى يتلاشى هذا الأثر الجاذبى الذى يدفعها نحو المجهول ، ولكن كان قرارها سيفاً مسلطاً على عنق إرادتها هى، فكلما تمنعت وجدت نفسها أكثر ضعفاً، وأقل قدرة على مقاومة رغبتها الدفينة ، وشيئاً فشيئاً شرعت ترفع راية الاستسلام ، فقفزت داخل ملابسها قفزاً ، وجرت إلى موقف

السيارات الأجرة المتجهة إلى الاسكندرية ، ومن فرط اشتياقها كادت تأخذ السيارة السيرفيس لحسابها الشخصى كى تطير بها طيراناً إلى مقر عملها ، ومن غير أن تضطر لإنتظار مرور دقائق أخرى مملة حتى تمتلئ السيارة عن آخرها، كان كل همها هو أن تذهب إلى عملها ثم ليكن مايكون ، وفى اللحظة التى ساقتها فيه إحدى قدميها عنوة إلى مدخل مؤسسة العمل، وهى تتلفت حواليها بلهفة وشغف شديدين ؛ كانت القدم الأخرى قد تلقت أمراً بالانسحاب الفورى عائدة إلى بيتها إذعاناً لصوت العقل والأخلاق والأعراف .

كان عدنان قد جن جنونه تماماً كلما طالت عليه غيبة ناردين، ولم يلب دعوة الطارق حين راح يقرع باب العشة بالمطرقة اليد الحديدية عدة مرات ، لم يشك عدنان فى كون الطارق هو الريس عويضة، ولكن كيف سيقابله ونفسه قلقة ومضطربة هكذا وإلى أبعد حد يمكن وصفه ، بل فكر لبرهة أن يفتح الباب بسرعة ، وأن يهرول فى أثر الريس عويضة ويطلب مساعدته بأى شكل من أجل الوصول إلى فتاته، مُنية نفسه ، ورغبة قلبه الملحة، ولكنه تريث فى قراره لئلا يضر بسمعة الفتاة إن هو تعجل بتصرف خاطئ غير محسوب ، بخاصة وأنه لايعرف عنها حتى هذه اللحظة أى شئ يسمن ويغنى من جوع ، فليظل كل شئ فى طى الكتمان حتى يأتى اللّه أمراً كان مفعولاً .

وحين اخضر الليل خرج إلى البحر البارد لافاً نفسه بكوفية الصيادين التى أهدته إياها مهجة إبنة الريس عويضة ، وتطلع إلى ظلمات البحر فى ليلة لم تكن مقمرة ، كانت رائحة البحر الندية

وأصوات أمواجه وهى تضرب حافة الشاطئ الصخرية ، وقطرات الماء المتطايرة على وجهه هى الأشياء التى رسمت له صورة الواقع الذى ابتلعه الليل فى جوفه السحيق ، ظل منتظراً لفترة طويلة أن تتكرر صورة الأمس القريب ، وأن تأتى إليه ماشية على صفحة الماء بفستانها الأبيض الطويل ، وتدس أصابع يدها الناصعة البياض فى أصابع يده الخمرية اللون ، ثم يمضيان فى هدأة الليل الذى لايقطع حبل سكونه إلا صوت أنفاسهما المتلاحقة، وكلمات العشق المخنوقة بجنون الوحشة واللهفة ، وفى صوت متوحد كأنما خرج من حنجرة واحدة يهمسان :

- معذرة حبيبتى لقد آلمتك .

- معذرة حبيبى لقد آلمتك .

أخذ عدنان الشارد يقلب هاتفه المحمول بين أصابع يده ، شئ ما جعله يضرب الأرقام الخاصة بفتاة الشاليه ، ابنة القمر ، عروس البحر البيضاء ، كانت الأرقام لم تزل بعد ثاوية تضوى فى حنايا ذاكرته القوية ، لم يرن الهاتف المطلوب مطلقاً ، ولم يجبه أحد ؛ هذا ماكان يتوقعه غير أن الواقع كان شيئاً آخر ، فهناك من فتح الخط على الطرف الآخر ، وهناك من رد عليه بعد فترة من الصمت والترقب :

- هالوو، مَنْ ؟.

لم يصدق عدنان نفسه، ازداد ارتباكه وشحوب وجهه وهو يقول :

- بل مَنْ أنتِ بحق السماء ؟.

- ألست أنت الطالب .

قالتها وهى تستوى جالسة فى فراشها ، وقد لمعت عيناها بالدهشة، وتساءلت وهى تلملم خصلات شعرها الطويلة المتناثرة على الوسادة :

- ولكن كيف عرفت نمرة هاتفى !؟ ، حتى زملائى وأقرب الناس إلى لايعرفونها !!.

كان فم عدنان لم يزل مفغوراً عن آخره بالدهشة التى فاقت دهشتها بكثير ، ولم يجد كلمة واحدة يجيب بها على أسئلتها المتلاحقة على الطرف الآخر ، ظل هذا هو حاله وأخيراً تنهد بعمق وقال كمن قر قراره فى النهاية على حقيقة واحدة لاجدال فيها :

- كل الذى يمكننى قوله لكِ أن القدر يلعب لعبة عجيبة فى حكايتنا ، وأنت من قام ابتداءً بالاتصال بى ، ورأيتك قبل أن أراكِ ياابنة الليل والسماء والبحر ، أنتِ من سرقك البحر منى ، ولكن مادام القدر الرحيم قد أعادك إلى ، فلن تأخذك منى بعد ذلك أية قوة حتى الموت نفسه .

- كنت أفكر فى وسيلة ما ، أية وسيلة للاتصال بك كى اعتذر لك عن اتهامى لك بالجنون ، ولكن هاأنتذا قد أكدت لى أنك أجن مجنون على وجه الأرض .

فقال وقد شرع يفعل أغرب الأفاعيل :

- أنا نفسى أعتقدت كونى مجنوناً ، وبى مس من الجن، ولكن أى جنون هذا وبِمَ نسميه إن كان يفعل بنا مالم يجد له العقل والعلم

نفسه أى تفسير ، لاتظنين بى الظنون وأننى فعلت المستحيل حتى أحصل على رقم هاتفك السرى ، فهذا هاتفى قد أغلقته ، بل ألقيته فى اليم ، فهل انقطع صوتى عنك ، لا أظن ، اغلقى هاتفك الق به من النافذة ، كل هذا لن يحجب صوتنا عن بعضنا البعض ، نحن لاننطق نحن بلاأية أسباب نتواصل نتخاطر.

أخذت ناردين نفساً عميقاً وهى تديم النظر إلى هاتفها المحمول ، وصوت إلحاحه الشديد يشعل فى نفسها نيران رغبة التحدى ، تحدى ظاهرة اللامعقول واللاسببى فى عالم صرف مادى ، وبعد تردد أغلقت هاتفها وألقت به بعيداً ، فسقط أرضاً وحسبته قد تهشم تماماً ، ولكن صوته مع ذلك ظل مسترسلاً فى حنايا نفسها :

- أما زال الشك يملأ نفسك بعد ؟ ، أما تزالين خائفة من التسليم للأمر الواقع ، وأن كل منا يكمل الآخر ، وأننا من غير بعضنا البعض جسدان لاروح فيهما ولاحياة ، كلانا مقدر له أن يكون بعضاً من الآخر ، وأنه قد آن أوان تلاشى صحراء التيه التى ضللنا فيها طويلاً، وأن نكون معاً إلى الأبد .

كانت ناردين بشعرها المهوش المجنون تلف وتدور حوالين نفسها فى الحجرة ، وقد أمسكت رأسها بكلتا يديها صارخة :

- مستحيل ، مستحيل ، مستحيل .

أحس عدنان أنه قد تجاوز حدود الشفافية الرقيقة ، وأنه بدا كمن يمارس تأثيراً سحرياً على محبوبته ، وأن رغبته وحبه الشديد لها أوشك أن يرفعه إلى مصاف من يطلب فيجاب ، وأن جنى سليمان

أوشـك لـو شـاء أن يحضرهـا بعرشـها الأسـطورى إلـى مخدعـه فـى أقـل مـن رجعـة الطـرف ، ولكـن تراهـا أى سـر تخفـى فـى دثـار كلمـة مسـتحيل التـى ظلـت ترددهـا كالمجنونـة بلاانقطـاع ، وتراهـا مـاذا تظـن بـه الآن وقـد اقتحـم عالمها بـلا أسـباب مـن تلـك الأسـباب التقليديـة التـى ألفهـا البشـر، فلوكان جنياً حقاً يمـارس أعمـالاً خارقـة بحقهـا ، فمـاذا تكـون هـى وبِـمَ يمكـن وصفهـا يـوم اسـتدعته هـو دونـاً عـن كل البشـر إلـى عالمهـا العجيـب بمكالمـة مجهولـة ، ثـم تركتـه ملقيـاً علـى الشـط وذهبـت إلـى المجهـول ، فطيـرت صوابـه وراحـة بالـه ، حتـى أنـه لـم ينقطـع عـن زيـارة مكتـب محقـق النيابـة أسـعد سـلطان بعـد أن خـرج بريئـاً مـن قضيـة القتـل لالشـئ إلا لكـى يتأكـد مـن وجـود إنسـانة مـا ظـل يداويهـا حتـى مطلـع الصبـح ، إمـرأة ليسـت كأىٍ مـن النسـاء اللائـى عرفهـن فـى حياتـه ، وحـين أفـاق مـن سـنة أخذتـه لـم يجدهـا بجانبـه ، لقـد ظهـرت بصـورة غريبـة ، واختفـت بصـورة أغـرب ، فهـل سيسـتمر الحـال هكـذا ، انقبـض قلـب عدنـان هلعـاً مـن التمـادى مـع هـذا الخاطـر المزعـج ، فلقـد كان ظهـور ناردين فـى حياتـه بمثابـة عـودة الـروح والمـاء والنـور والحيـاة إلـى جسـد كاد يفقـد كل معالـم كونـه كائنـاً حيـاً ، ليـس مـن واقـع الحيـاة الكئيبـة الجافـة التـى أملتهـا عليـه علاقتـة المتوتـرة بزوجتـه وأبنائـه ، وإنمـا لإحساسـه العميـق أن لـكل إنسـان علـى وجـه البسـيطة نصـف آخـر لايجـب التفريـط فيـه أبـداً ، وأيـاً كانـت المحاذيـر والمعوقـات ، بـل ليصـارع العالـم بـكل سـدوده وآسـاده ، وأنسـه وجنـه ، وشـياطينه ومسـتحيلاته ، حتـى يحظـى بالحـب الحقيقـى الـذى لايشـك لحظـة واحـدة أنـه قطعـة أصيلـة مـن صلبـه ونسـيج جسـده وقلبـه وروحـه .

فـى الأيـام التاليـة مـارس عدنـان فخـرى تجربـة إنسـانية فريـدة فـى نوعهـا ، تـرك الأمـر لإحساسـه المرهـف كـى يهديـه إلـى حبيبتـه كمـا تهـدى البوصلـة السـفينة الشـاردة فـى قلـب ميـاه البحـر إلى برالأمـان ، كان يتململ فـى جلسـته فـى مقعـد مكتبـه ، يشـرب القهـوة بعصبيـة ، ويفـرك أصابـع يديـه ببعضهـا البعـض بقلق وتوتـر ، وحيـن راح يمسـح جبينـه واتتـه فكرة أن يطلـق العنـان لقلبـه للبحـث عـن مكـان ناردين حبيبتـه فـى المؤسسـة ، وفيمـا هـو متجـه إلـى الخـارج مـر بمكتـب شـفيق وجـدى الـذى كان لـم يـزل بعـد متغيبـاً عـن العمـل، وكان عدنـان قـد نسـى أمـر شـفيق تمامـاً أو هكـذا بـدا، فلقـد كانـت نارديـن هـى شـغله الشـاغل فـى كل الأوقـات ، والتـى أنسـته بحضورهـا القـوى فـى روعـه وفـؤاده جملـة مـن الأشـياء التـى كانـت لاتفـارق مخيلتـه للحظـة ، فلـم يعـد مباليـاً بلحظـة الغـروب التـى كانـت تأسـر لبـه ، كان الشـروق والنـور والأمـل هـم ديدنـه فـى تلـك المرحلـة مـن حياتـه، ولهـذا حـين بـادر بالخـروج مـن المؤسسـة برمتهـا ، وسـار قاطعـاً الطريـق نحـو بنايـة مـا أخـرى ، لـم يكـن مندهشـاً مـن تصرفـه، كانـت دهشـته الحقيقيـة لولـم يجدهـا حيث قـاده قلبـه إلـى إحـدى المكاتـب التـى كانـت تجلس إليهـا نارديـن ، والتـى أذهلهـا بشـدة وجـود عدنـان فخـرى فـوق رأسـها ، كانـت هـذا المبنـى الصغيـر قـد ألحق حديثـاً بمبنـى الشـركة الرئيـس ، وكان أكثـر موظفـى الشـركة أنفسـهم يجهلـون أن هنـاك ملحقـاً قريبـاً يتبـع لشـركتهم ، فهبـت نارديـن واقفـة وهـى تتلفـت حولهـا جزعـة :

- كيف عرفت مكانى ، وكيف جئت إلى هنا !!؟.
- ابقى كما أنت ، ولسوف أشرح لكِ كل شئ .

جلست ناردين وسحابة من التوتر تغشاها ، فيما كان عدنان الذى يمسك ملفاً بيده يقدمه إليها وهو يقول :

- خذى هذا الملف من يدى ، تصنعى أننا نتناقش بخصوص شئ ما فى العمل .

بارتباك مدت يدها المرتعشة وانتشلت من يده الملف ، وراحت تفر صفحاته البيضاء الفارغة باهتمام لم يكن مصطنعاً ، بل كان وقع كلماته فى نفسها قوياً ومؤثراً للغاية :

- أقسم أن قلبى هو الذى قادنى إليكِ ، لم أسأل ولم أفتش عنك ، قررت فقط أن أجدك فوجدتك .

- ورقك ناقص ياأستاذ عدنان .

قالتها وهى تعيد إليه ملفه ، فمد يده من طرف خفى كى يحيل بينها وبين إعادتها الملف إليه ، وهو يقول لها بصوت خفيض لكيلا يلفت نظر الموظفين المتواجدين فى المكان :

- لم أفرغ بعد من حديثى ، أود أن أعرفك أكثر ، وأن تعرفيننى أنتِ أيضاً أكثر ، مستحيل بعد الآن أن أفرط فى لحظة واحدة من لحظات حياتى لاتكونين أنتِ فيها .

فنظرت إليه من تحت نظاراتها الطبية الشفافة بعينيها النجلاوين المتلألئتين ، وقالت وهى تقلب فى الملف بيديها :

- يخيل إلى حيناً من الزمن أنك تعرف عنى مالم تعرفه الأم نفسها عن ابنتها ، وفى حين آخر أتصور أنك لاتعرفنى بالمرة، وتجهل حقيقتى تماماً ، أوكأنك تقصد امرأة أخرى غيرى .

- محال أن أقصد غيرك ، وأقسم أننى لست صاحب المبادرة فى معرفتك ، بل شئ غامض ، سرى ، أو بالأحرى قدرى، هو الذى وضعنا معاً فى طريق واحد .

- أرجوك لاتقتحمنى بهذه الصورة .

- بل أكرر لكِ ، مابيننا لايمت لمسألة اقتحام رجل لامرأة بصلة، الأمر أكبر بكثير من الاعجاب والحب والرغبة ، الصورة الأولى التى جمعنى فيها القدر بك من المحال أن تكون عملية خداع بصرى .

- افهم ، المرأة التى قصصت لى حكايتها ليست أنا بحال من الأحوال ، لست امرأة الشاليه المخضبة بالدماء التى أخذها منك البحر ، أنت واهم .

نظر إليها عدنان بدهشة لاتوصف ، أخذ خطوة جانبية جعلته وراء مكتبها أكثر من كونه بجانبه ، دنا أكثر من مقعدها الجالسة فيه، وقال بنبرة تفتقر إلى ضربة بقبضة يده على سطح مكتبها حتى تتكامل مع كل معانى الثقة التى أفعمت بها نبرة صوته :

- لم أقصص عليك شيئاً من هذا القبيل ، علمك بهذه التفاصيل الدقيقة يؤكد لى كونك هى ، أو كونها هى أنتِ، أنتِ فتاة الشاليه ، وهى أنتِ بكل تأكيد .

- أشعر إنك جنى ، أو تلاعبنى بجنى من مردتهم ، حتى تسلبنى إرادتى وتجعلنى طوع أمرك .

- قبل قليل كانت مثل هذه التهمة البشعة لتنطلى على ، وكنت لأصدقك ، أما الآن فقد ازددت ثقة فى كوننا نصفين تعارفا بمعجزة ولن يفترقا ولو بمعجزات الدنيا بأسرها .

- أستاذ عدنان ، أنت تخيفنى ، انصرف ولاتعد إلى هنا مرة أخرى .

قالتها بلسانها ، وعينيها تناشدانه أن يبقى وألايرحل ، كان هذا هو إحساسه حين هبت واقفة بطريقة لافتة للنظر ، وقالت ماقالته بهمس وعبرة تختنق فى موق عينيها اللامعتين ، أخذ الملف الفارغ من يدها الممدودة إليه ، وحين عاد شارداً للغاية إلى مكتبه فى المبنى الرئيس وجد مفاجأة مذهلة لم تخطر له على بال .

●●●

(١١)

كان شفيق وجدى جالساً فى مقعد عدنان فخرى يدخن سيجارة وعلى شفتيه ابتسامة عريضة للغاية ، وما أن رأى عدنان مقدماً حتى انتصب واقفاً وهو يقول بذات الابتسامة التى لم تكن من القلب بطبيعة الحال :

- لامؤاخذة .

كان الضيق بادياً فى وجه عدنان بعد لقائه غير السار بفتاة أحلامه ومهجة نفسه ناردين صبرى ، غير أن هذا الضيق قد استحال إلى شئ آخر لايمكن وصفه ، شئ يعرفه فقط من خاضوا أعتى المعارك الحربية وأكثرها شراسة ، فلقد كان شفيق بملامحه الصارمة المحددة فى وجهه وكأنما بطعنات سكين حام لاينذر اللقاء معه بخير البتة ، فجلس إلى مكتبه مباشرة وانتظر المبادأة من الطرف الآخر ومن غير كلمة عتاب واحدة ، حينها مال شفيق إلى الأمام قليلاً وقال بنبرة خفيضة وهو يقدم ملفاً من الأوراق لعدنان :

- سوف نبدو وكأننا نتحدث فى العمل ، حتى لانلفت أنظار الزملاء إلينا .

أمسك عدنان الملف بدهشة ، والتى ازدادت جداً مع اكتشافه أنه هو أيضاً كان لم يزل ممسكاً بملف من الأوراق البيضاء الفارغة ، فلقد لعب هذه اللعبة قبل قليل ، وكان هذا هو ذات مدخله مع ناردين

صبرى ، ولكنه أبدى تجاوباً ظاهرياً ، بل شرع زيادة فى التمويه يضع النظارات الطبية السميكة على عينيه ، ويفحص فى الأوراق الفارغة ، وهو يصغى بكلتا أذنيه لشفيق الذى استطرد قائلاً :

- من خلال وسائلى الخاصة علمت أنك قد جلست إلى مكتبى أكثر من مرة ، بل وأعلم أشياء كثيرة أرانى فى حل من ذكرها الآن ، ولكن مايعنينى الآن هو الملف الذى قمت بسحبه كلية من جهازى .

كاد عدنان يقطع عليه استرساله ، وأن هذا لم يحدث ، بل محض كذب وهراء سخيف ، غير أنه آثر الصمت حتى يبوح البحر العميق بكل سره الدفين ، فمن المؤكد أن شفيقاً هذا يخفى جريمة شنعاء لابد من كشفها أياً كانت النتائج مؤلمة ، وكلما نطق شفيق بحرف زيادة كلما تأكدت ظنون وشكوك عدنان فيه، والذى ألقمه أذنيه تماماً وقد شرع يقول بنبرة لم تخل من كل أمارات التهديد والوعيد :

- عدنان فخرى ، أعد إلى ما أخذته ، ماأخذته لايخصك فى شئ، كما أنك لن تستفيد منه بأى شكل من الأشكال ، بل سيفيدنى أنا .

تلاحقت ضربات قلب عدنان بسرعة قصوى ، والذى أضمر شيئاً فى نفسه تعارض فى الوقت ذاته مع رغبته فى إيثار السلامة والبوح لشفيق بحقيقة كونه لم يجلس حينها إلى جهازه إلا لهدف واحد فقط، هو البحث عن بيانات الزميلة نادين صبرى ، ولكنه فوجئ بنفسه يمضى بشكل لاإرادى فى اتجاه آخر، ويسلك مسلك من يساوم ويناور، فقال وهو يلتصق بظهره إلى مسند مقعده :

- ومن قال ياشفيق وجدى أننى لن أستفيد .

- أنت واهم .

- حسناً ، لتدعنى أغرق فى أوهامى ، ولتتفضل أنت بالعودة إلى مكتبك .

قال عبارته هذه وهو يرد عليه ملف أوراقه البيضاء الفارغة، فأمسك شفيق بملف أوراقه وقال وهو يصر غيظاً على أسنانه :

- هل هذا هو آخر ماعندك ياسيد عدنان .

- أجل .

- أرى أنك حديث عهد بفرعنا الرئيس ، سل من شئت من الزملاء عن شفيق وجدى قبل أن تعطنى إجابة قطعية .

ضحك عدنان ضحكة سخرية هادئة وقال لشفيق الذى كان يتلمظ غيظاً مثل كلب ثائر يبدو فى لحظة تأهب للهجوم :

- فى هذه الحالة سوف تكون العاقبة وخيمة لكلينا وليس لى وحدى .

- فلنتفاهم إذن .

- لابأس .

- حسناً .

تنهد شفيق تنهيدة ارتياح عميقة ، وجذب مقعد جانبى وجلس قريباً من عدنان ، وقال وهو يشعل له نوع من السيجار الكوبى الفخيم:

- سيجار مادمنا قد أصبحنا أصدقاء .

أمسك عدنان بالسيجار الهافانا البنى اللون ، ليس لكونه غير مدخن وإنما ليعلن تحفظه الصورى قائلاً :

- ليس قبل أن نفتح المزاد ياسيد شفيق .

- مزاد !؟ ، ليس هناك من سيدفع لك غيرى إن اتفقنا .

- لاأعنى المزاد التقليدى ، ماأعنيه أن تقدم لى أكثر من عرض، وأنا من سيقرر فى النهاية .

فرك شفيق جبينه الأسمر المخدد براحة يده علامة التوتر الخفى، بعد أن أحس أنه أمام شخصية استهان بظاهرها وهى فى جوهرها من الصعوبة بمكان ، فقرر أن يلجأ إلى أسلوب آخر يكون من خلاله أكثر حدة وعنفاً لإيقاف تطلعات مثل هذا المساوم الحقير فقال :

- اسمع أيها الحيوان البغيض ، ماأفعله فى الخفاء يجعل حياة أمثالك أهون بكثير من حشرة ندهسها بأحذيتنا فى الطريق ونحن غير منتبهين .

- وهذا الشئ العظيم الذى تفعله فى الخفاء سيرفع بلاشك من سقف طموحاتى إلى حد الجنون .

- هه ، قلتها وأقولها لك ثانية أنت واهم أبله .

- وأنت كلب مجرم .

قال عدنان جملته بصوت جعله مسموعاً إلى حد ما ، ثم قام بغية مغادرة مكتبه علامة إنهاء الجلسة مع شفيق وجدى ، الذى هب واقفاً وقال هامساً وهو يمسك عدنان فخرى من رسغه :

- قل عرضك أولاً أيها التافه .

- حسناً ، أنا لاأقبل النقود بشكل قطعى ، أنا أتطلع إلى الشراكة ، لنكن شركاءً فى هذه الجزئية فقط ليس أكثر.

كانت ليلة ذات اليوم المشحون بالأحداث هى موعد لقاء عدنان بأبنائه الثلاثة ، لم يُدر المفتاح كعادته فى خصاص الباب كى يدخل بيته فى الابراهيمية ، فلقد علم من ابنته مليكة فى آخر مكالمة هاتفية بينهما أن بهية قد غيرت كالون باب الشقة العمومى ، ولم يشأ عدنان إثارة أية أزمة بسبب هذا الاجراء السخيف الذى اتخذته بهية ، التى لم تتوار منه هذه المرة ، وكما فعلت فى المرات السابقة التى ذهب فيها إلى البيت بعد مغادرته إياه ، وكان العكس هو ماحدث لم يخرج إليه الأبناء الذين بقوا فى حجرتيهما المطلتين على شريط الترام السكندى الشهير ، وكان عدنان قد لمح الولدين والبنت لحظة مروره داخلاً من باب العمارة القديمة ، ولهذا كان فطناً للعبة التى قامت بها بهية لحظة دخوله حين سألها عن ولديه وإبنته فأخبرته أنهم غير متواجدين فى المنزل ، فهز عدنان رأسه أسفاً ، ولم يفه بكلمة تكذيب واحدة ، ومن فوره أخرج مصروف نفقات البيت الشهرية ، ووضعها بهدوء جم إلى مائدة حجرة الاستقبال ، ثم استدار بغية الانصراف ، فقطعت عليه بهية السبيل وقالت بنبرة خشنة :

- الدنيا كلها تتغير أللهم إلا أنت .

- ....

- النقود التى تتركها لاتكفى شيئاً ، أبناؤك نفقاتهم زادت بصورة غير طبيعية ، والأسعار ارتفعت بجنون أم أنك لست مدركاً مايجرى ويدور فى الدنيا .

دمعت عيناه وهو يديم النظر ناحية الحجرتين اللتين تحتويان فلذات كبده الثلاث ، فقد اشتاق إليهم بشدة ، وكان وهو فى طريقه إليهم يسابق الزمن ، ويمنى نفسه بمعانقتهم عناقاً حاراً يعوضه بعض الشئ عن أسابيع الغيبة الطويلة التى يكون فيها بعيداً عنهم ، ولكونه كان يكره مسألة الصدام ، وبخاصة التى يكون ضحيتها فى الغالب هم الأبناء أنفسهم ، فلقد صبر وآثر السلامة ، ولم يبد اعتراض على شئ، حتى مطالبة بهية له بزيادة مصروف البيت والذى يحمله فوق طاقته تقبله بصدر رحب، وأخرج أكثر ماتبقى فى حافظة نقوده ، واستبقى القليل جداً لنفسه ، وحين استدار للمرة الثانية كى ينصرف ، باغتته بهية باعتراض سبيله وهى تحدجه بنظرة نارية قائلة :

- يبدو أن حياة الاستهتار واللامسئولية التى تعيشها الآن قد استهوتك حتى النخاع .

أدرك عدنان أن بهية تتربص له ، وتريد الاشتباك معه بأية وسيلة، ولم يكن هو مستعداً للدخول معها فى أى نقاش من أى نوع ، فلقد كان مشحون الرأس إلى حد الانفجار ، وكفى أن يوماً واحداً قد جرت فيه جملة من الأحداث الساخنة ، ولايعقل أن يزيد الطينة بلة بالدخول

فى صدام مع زوجة متربصة له دائماً، والتى لم تصبر هنيهة حين انصرف خارجاً من البيت بهدوء ، فسمعها تهتف بالولدين والفتاة أن أباهم لم يبال بعدم وجودهم، وأنه لم يبد رغبة حقيقية فى انتظارهم لحين عودتهم من الخارج، وكأنهم لقطاء قد وجدهم أمام مسجد أو فى ملجأ، ثم سمعها وقد أجهشت بالبكاء ، لتكمل صورة الضحية التى هجرها زوجها الطائش العربيد ، وهجر أبناءه سعياً وراء نزواته وغرائزه، تمهل عدنان فى قراره الذى اتخذه بضرورة الالتفاف عائداً إلى المنزل من أمام باب المصعد ، وابراء ساحته أمام أبنائه ، وأن بهية أمهم حقيرة كاذبة لم تقل الحقيقة ، وأنه ليس خائناً لها ولاقاتلاً ولاطائشاً ، غير أنه قرر الانصراف بسرعة حتى لايفلت منه العيار ويدخل فى المواجهة المرتقبة مع زوجته ، المواجهة التى تخطط لها بهية منذ زمن وأرادت أن تسقطه فى شركها منذ لحظات ، وربما برر انصرافه الفجائى بدعوى صورة واحدة سيئة أفضل من صورتين سيئتين ، وأن صراع الهدم والانتقاص من شأن الآخر الذى تريد بهية دفعه إليه لن يكون ضحاياه الفعليين غير الأبناء أنفسهم ، كانت هذه فلسفته ، والتى طار بسببها صواب الريس عويضة وهو يضرب كفاً بكف ، والذى راح يلوم عدنان بشدة ، وربما راح يلمزه من تحت لتحت فى رجولته المنقوصة ، وأن بهية هذه خطر جسيم على الولدين والبنت، وأنها لن تخرج للمجتمع آباء وأمهات صالحين ، بل طالحين من ذوى الأنفس المريضة مثلها، وكان ماقاله عويضة النقاش لحظة انصرافه غاضباً :

- أنت رجل ضعيف ولاتقوى على مواجهة بعوضة ، فى العهد الغابر قلنا سى السيد ، والآن لن نقول إلا سى السئ .

كانت كلمات الريس عويضة قاسية للغاية ، والذى لم يلب نداء عدنان فخرى والذى أراد أن يستوقفه ليشرح له فلسفته ووجهة نظره، بل شدد على ساقه وعكازه التى يتحامل عليها فى سيره حتى يسرع أكثر فى انسحابه من أمامه ، ولكى يظهر له فى الوقت ذاته أكبر قدر من الغضب، مادعا عدنان إلى الصراخ قائلاً :

- كان فى وسعى أن أدمر البيت وأن أجعله خراباً يباباً ، وأن أحيله تراباً على رءوس الجميع ، وأن أشوه بهية بقدر ماشوهت سيرتى، بل أكثر بكثير ، وقتها كنت سأرتقى القمة أمام أبنائى وأمامك وأمام العالم كله ، ولكن قمة ماذا ؟! ، الخراب ، الدمار ، الحطام ، وماذا بعد، هيه أليس من الحكمة الهدوء والتريث حتى يُظهر أبنائى براءتى بأنفسهم أيها الشيخ الحكيم .

على حافة الأفق البعيد قبالة البحر الهادر مباشرة ، بدا شبح الريس عويضة وقد توقف ، تقدم منه عدنان شيئاً فشيئاً وهو يقول بصوت حمله الريح سريعاً إلى أذنى عويضة الذى كان مصغياً له :

- الحرب أهون بكثير من السلام ، البناء قد يستغرق أشهراً والعديد من السنوات الطوال ، أما الهدم فقد لايستغرق طرفة العين التى نطرفها فى لحظة واحدة ، ولعلى قد تماسكت فى لحظة الانفجار حتى أصل إلى أصوب قرار .

- هيه .

ارتمى عدنان فى فراشه وقد انهك جسده وفكره للغاية ، فقد عاش حياته منذ نعومة أظفاره وحتى هذه اللحظة مسالماً وكارهاً للعنف والمواجهة والصدام ، ولكن هاهو ذا قدره يدفعه للصدام مع شفيق وجدى ومع أقرب الناس إليه ، بل حتى مع نفسه ، فهو لم يكن كارهاً لبهية بقدر ماكان كارهاً للأجواء غير السوية التى خلفها وجودها فى حياته كشخصية غير سوية بالمرة ، فقلبه كان كقلب عصفور مرهف ، عصفور لايعرف الضغينة ، ولايسعى لشئ غير الحب والوداعة ، هو السنونو العطوف الذى يحنو على وليفه، هو طائر من نوع غريب ما لبث أن وجد هواه حتى شرع جناحيه للأفق حاملاً وليفه إلى عالم بعيد من غير مزعجين ومنغصين ، عالم يتنفس الحب والأمان ، ولأمر ما كان حضورها قوياً فى نفسه تماماً فى تلك اللحظة ، أحس بنيران الصبابة والهوى تشتعل فى أعماقه ، وقد بدا مخدراً بصورتها التى تراءت له أينما ولى وجهه فى جنبات البيت الأربع ، كانت ناردين فى صبيحة ذلك اليوم العصيب قد أسدلت ستارة سوداء سميكة فى سبيل استمرار تعلقه بها ، بل طلبت منه ألا يظهر فى طريقها مرة أخرى وإلى الأبد ، ولكن نظرات عينيها قالت له غير ذلك ، بل استحلفته أن يبقى وألا يرحل ، غفلت عينا عدنان ردحاً من الزمن وهو مذبذب بين جملة من المتناقضات ، تلك المتناقضات الحلوة والمرة التى ترحه ، ولم تخله نائماً ولامستيقظاً ، غير أنه أفاق فى الفجر على صوت هاتفه المحمول وهو يرن رنيناً متصلاً، وحين أجاب الطالب بلهفة المشتاق، سمع صوت بكاء متصل على الطرف الآخر ممتزج بصوت نوارس البحر الهائمة فى الخارج ، فانتصب واقفاً وكله آذان صاغية وهى تصرخ قائلة :

- ابتعد عنه ، سوف يقتلك ، سوف يقتلك لامحالة .

(١٢)

وقـف عدنـان فخـرى يتهيـأ ويتجمـل أمـام مـرآة قديمـة مهشـمة ، ذات حـواف صدئـة يعلوهـا السـواد مـن كل جانـب ، ومـا أن يفارقهـا حتـى يعـود إليهـا ثانيـة ليطمئـن إلـى كونـه فـى أحسـن صـورة ، وفـى الحقيقـة لـم يكـن الأمـر يحتمـل كل هـذا الاهتمـام ، بـل كان الأمـر خطيـراً للغايـة ، ولهـذا دعتـه لمقابلتهـا فـى منطقـة نائيـة علـى شـاطئ البحـر فـى منطقـة أبـى قيـر ، ولكـن عدنـان اعتبرهـا مقابلـة فـى المقـام الأول مـع حبيبـة ، لامقابلـة مـع فاعلـة خيـر، لكونهـا سـوف تجمعـه بمـن يهفـو إليهـا قلبـه وكفـى ، ثـم لايهـم موضـوع المقابلـة بعـد ذلـك ، ولايهـم كذلـك أن يدفـع حياتـه ثمنـاً للقـاء يجمعـه بمـن طيـرت النـوم والراحـة مـن عينيـه ، وبـات الشـئ الهـام فـى ناظريـه مـن لحظـة اتصالهـا بـه هـو أن تـراه فـى أحسـن صـورة ممكنـة ، وأن يبـدو أمامهـا متأنقـاً وذا رائحـة طيبـة ، ولهـذا بالـغ فـى رش نـوع مـن العطـر الفـواح علـى نـواح متفرقـة مـن جسـده وملابسـه وكأنـه عريـس ذاهـب إلـى عروسـه .

كان اليـوم إجـازة رسـمية فـى البلـد ، ولـم تكـن الطـرق مزدحمـة بالموظفـين والطلبـة ككل صبـاح ، بـل كانـت الطرقـات هادئـة والجـو صحـواً مشمسـاً ، وتمنـى مـن كل قلبـه أن يمـر الوقـت سـريعاً حتـى يلقاهـا ويعانقهـا بعينيـه عناقـاً حـاراً ، ثـم ليتباطـأ الزمـن حتـى يطـول لقاءهمـا معـاً قـدر الإمـكان ، ولكـن هيهـات أن يشـبع ويملـى عينـاه منهـا ومهمـا طـال مقامهمـا معـاً .

كانت ناردين من لحظة مغادرتها للبيت قد عقدت العزم على مصارحة عدنان بكل شئ ، وأن يبتعد من سبيل شفيق وجدى ذلك المجرم العتيد فى الإجرام ، والذى لن يتورع عن أذيته وتدمير حياته ومستقبله ، بل كل أفراد أسرته ان استدعى الأمر ذلك ، ولكن عدنان لم يمنحها الفرصة مطلقاً للبوح بأى شئ ، ففور أن لمحها تهب عليه مثل نسمة الربيع الحالمة حتى جرى نحوها وقد فرد ذراعاه عن آخرهما ، وكأنما هى موجة البحر التى كان يناجيها فى صباه كلما رآها مندفعة صوب الشط : «هلت ..هلمى ..أسرعى بالاحضان نلتقى» .

كانت ناردين فى لحظة اللقاء الأولى كمن أخذتها سنة ، بدت هائمة مغيبة ، يداها وعيناها وكل جوارحها ومشاعرها ظلت أسيرة فى قبضة يديه وعينيه لفترة ليست بالقصيرة ، وحين أفاقت من خدرها اللذيذ تماطلت وهى تشد يديها النديتين برفق من بين راحتى يديه وقالت كالمخدرة :

- أستاذ عدنان لم آتِ إلى هنا إلا لمصارحتك بكل شئ ، فأعنى على ذلك أرجوك .
- حذرتينى بالأمس بما فيه الكفاية ، روحى وحياتى أقل مايمكننى تقديمه ثمناً لمجرد لقاء عابر يجمعنى بكِ .
- أرجوك هناك مايهمنى أن تعرفه .
- لاتضيعى هذه اللحظات الذهبية فى الحديث فيما يعكر صفونا ، ولتكن النتيجة ماتكون .

أمام إصراره الشديد واسترساله الطويل فى الحديث سكتت، وهى تتحين الفرصة من آن لأخر كى تفاتحه فى الموضوع الذى جاءت من أجله :

- فى صباى كانت الشمس تغرق أمام عيني فى قلب البحر، وكدت أغرق ذات مرة وأنا أفتش عن هذه الشمس الغارقة فى قاع البحر ، حتى عرفت أن الأمر كله محض خداع بصرى ، وحين كبرت وبدأت أفكر فى بيت وزوجة وأبناء ، اكتشفت أن عملية الخداع البصرى مستمرة ، وأننا قد نحيا مع أناس لايمتون إلينا بصلة ، نحيا تحت سقف واحد نعم ولكن كالغرباء فى مخيم للاجئين ، فى حين أننا نترك من يستحقوننا حقاً ، ومن نشعر أننا منهم وأنهم منا ، من أصلابنا ، ومن أنفسنا ومن لحم أجسادنا، قد تقولين أنه ربما لايكون للمرء أدنى ذنب فى هذه المعادلة ، ولكن ماذا تقولين إن قيض له إعادة ترتيب هذه المعادلة المختلة ؛ وبخاصة عندما تتهيأ له كل الأسباب بوجود ضالته المنشودة أمام عينيه ، فهل يضيعها فى رأيك ، وهل يمكن للمرء أن يغض الطرف وقد وجد الشئ الذى اقتلع من قفصه الصدرى ماثلاً أمامه ، ولايفصل بينه وبين هذا الشئ أى شئ ، أى شئ ....

- أستاذ عدنان ، يبدو أنك تمر بأزمة نفسية .

قالتها مقاطعة إياه وهى تقاوم رغبة دفينة فى أعماقها كانت تدفعها دفعاً جنونياً نحو عدنان ، والذى لم يكترث بماقالته البتة، واكتفى بإبداء كل أمارات الدهشة وهو يقول :

- نادرين لماذا تصرين على مناداتى بكلمة أستاذ ، لماذا تضعين الحواجز بيننا دائماً هكذا ؟ .

- لأننـى قد أكون العمـاء نفسـه بالنسـبة لـك ، لمجـرد عمليـة خـداع بصـرى ليـس أكثـر .

- مستحيل !.

- ومَنْ أدراك ؟.

- قلبى ، إحساسى .

- آه ه ه لوتسمعنى .

- ناردين ، أربعـون سـنة ضاعـت مـن عمـرى هبـاءً ، وأيـاً مـاكان ماسـتقولينه لـى ، فمـن المحـال أن أضيـع هـذا اليـوم المشـمس الجميـل فـى الحديـث عـن المجـرم شـفيق وجـدى ، وعـن مخاوفـك علـى حياتـى.

- بل كنت سأحدثك عن حياتى أنا .

- حياتك دعينى أكتشفها بنفسى .

قالهـا وهـو يضـع أطـراف أصابـع يـده علـى ثغرهـا الأحمـر الدقيـق حتـى لاتتكلـم ، ثـم أردف قائـلاً وهـو يضـع يـده الثانيـة علـى فمـه هـو :

- حتـى أنـا لـن أتكلـم ، ولتكـن أعيننـا هـم اللسـان الـذى ينطـق بـكل شـئ ، لسـان الفـم ينتقـى الكلمـات مـن العقـل ، أمـا الأعـين فتنطـق بمـا تخفيـه القلـوب .

أحسـت ناردين برعـدة تسـرى فـى جسـدها ، وقـد ذابـت عينـي عدنـان الرماديتـين فـى لجـة عينيهـا السـوداوين ، والبحـر يتلـو تراتيـل العشـق الممـوج ، وموسـيقاه الملائكيـة الصادحـة أسـكتت كل الـكلام المبـاح ، وحـين

شـدته الأمـواج إلـى أعمـاق البحـر المغرقـة ، أفـاق مـن سـكرة الحـب وهـى تتملـص مـن حضنـه ومـن ذراعيـه المطوقـين لهـا ، اللذيـن كانـا لوهلـة خاطفـة مـن الزمـن حصنـاً وقلعـة مهولـة لجسـدها النشـوان ، الملفـوف بخصـلات شـعرها السـوداء الطويلـة الحريريـة ، راحـت تجـرى باكيـة علـى رمـال الشـط الخالـى مـن البشـر مثـل غـزال شـارد ، لا ليجفـل مـن صيـاده وإنمـا ليهـوى فـى شـباكه ، ظلـت تجـرى وهـى تناشـده بـالله فـى سـويداء نفسـها أن يلحـق بهـا ، أن يعيـد كـرة الهجـوم ، يضمهـا إليـه ، ويعتصرهـا مـن خاصرتهـا بذراعيـه القويـين، وأن يطبـق بشـفتيه علـى شـفتيها الملتهبتـين ، ولكنـه حـين لحـق بهـا بإرادتهـا ، نظـر طويـلاً إليهـا ، وراح يزيـح خصـلات شـعرها جانبـاً عـن صفحـة وجههـا الناصعـة البيـاض ، ثـم مضـى يتمتـم بآيـات الاعتـذار ، وقلبـه المضطـرب النشـوان يدعـوه للتمـرد علـى مبادئـه وعقلـه المغفـل ، ولمزيـد مـن المعانقـة والأحضـان ، لِمَ لا وقـد ذابـت وترنحـت وتخـدرت حواسـها ، ورفعـت رايـات الاستسـلام البيـض علـى كل أسـوار قلعـة المقاومـة والممانعـة فـى نفسـها ، فاحتضنهـا وهـو يباعدهـا عنـه ، ثـم قـال لاهثـاً وهـو يخفـى أنفـه الأقنـى فـى جدائـل شـعرها السـارح علـى حافـة الأفـق الـوردى :

- ليكـن هـذا آخـر لقـاء بيننـا ونحـن اثنـين ، لقـد خلقنـا لنكـون معـاً، لكـى نكـون شـيئاً واحـداً إلـى الأبـد .

فـى الهزيـع الأخيـر مـن الليـل كان البحـر ثائـراً فـى الخـارج ، والريـح والأمطـار الرعديـة تعابثهمـا نـوة مـن نـوات البحـر الهوجـاء ، وكانـت النـوارس تطلـق صيحاتهـا القدسـية التـى ذكرتـه بلحـن قـديم كان يسـمعه كثيـراً فـى صبـاه ، ومـن آن لآخـر كان نورسـاً شـارداً يصـدم بمنقـاره الطويـل

خطـأً زجـاج نافـذة عشـته ، ولهـذا حـين طـرق البـاب طـارق مـا ، خيـل لعدنـان النائـم وهـو يحتضـن الوسـادة بشـدة فـى ثنايـا صـدره أن هـذه طرقـات لنـوارس الليل الشـاردة ، ولكنـه أفـاق مـن سباته تمامـاً حـين تأكد أن الطرقـات منتظمـة مـع ماتحمله مـن جلبـة واضحـة ، فخمـن أنـه الريس عويضـة ، وأنـه لـم يكن ليأتـى فـى مثل هـذا الوقت البـارد المتأخـر جـداً إلا لأمـر بالـغ الأهميـة ، فقـام مسـرعاً يدس قدميـه فـى نعليـه ، وهـرول ناحيـة البـاب وهـو يتثـاءب ، ولـم يـدر فـى خلـده ولـو علـى سـبيل الخيـال المبالـغ فيـه أن تكـون ناردين هـى الطـارق ، لقـد كانـت هـى حقـاً ، ولكنهـا لـم تكـن هـى ذلـك الطـارق الليلـى ، تسـمر عدنـان فـى مكانـه وقـد أحـس أنـه يعيـش نوبـة مـن أقسـى نوبـات الخـداع البصـرى ، كان البـرق آنـذاك يومـض ويخبـو ويرتعـش بقسـمات وجهـه المخـدد ، والـذى قـال وهـو علـى عجلـة مـن أمـره ويفـرك كفـي يديـه ببعضهمـا البعـض :

- ألـن تدعنـا للدخـول !؟.

تفـرس عدنـان بذهـول فـى تفاصيـل الصـورة المبهمـة ، صـورة لامعنـى لهـا أو تفسـير غيـر أن نوبـة مـن هـلاوس المـخ قـد تملكتـه ، والتـى يغيـب المـرء خلالهـا عـن الوعـى تمامـاً ، ويضحـى الواقـع شـيئاً عبثيـاً بكـل ماتحمله الكلمـة مـن معنـى ، كانـت الصـورة العجيبـة التـى لاحـت أمـام ناظريـه فجـأة وحـين فتـح بـاب العُشـة الخشـبى ، هـى التـى جعلتـه ينزلـق إلـى هـذه الحالـة الغيبوبيـة التـى يكـاد المـرء لايفـرق خلالهـا بـين ماهـو حقيقـى وواقـع وبـين ماهـو خيالـى وجنونـى، ناردين وشـفيق وجـدى كيـف؟!! ، كانـت ناردين مطرقـة بوجههـا المخضـب بالمسـاحيق إلـى الأرض ، وقـد وضعـت شـالاً حريريـاً شـفافاً حـول كتفيهـا العريانـين ، وشـفيق وجـدى يضمهـا إليـه بذراعـه المفتـول وهـو يكـرر طلبـه مبتسـماً :

- هل ستتركنا واقفين بالباب كثيراً هكذا وفى مثل هذا البرد القارس .

ومن غير وعى أشار لهما عدنان أن يدخلا ، وعيناه مسلطتان على ناردين بصفة خاصة ، حاولت ناردين أن تتقى نظراته بإطراقة طويلة إلى الأرض ، أوبالنظر إلى سقف المكان ، فيما راح شفيق يخلع سترته ويلقى بها جانباً ، وهو يتلفت فى المكان الضيق من حوله ثم قال :

- المكان هنا أدفأ بكثير من الخارج .

كان عدنان لم يزل بعد لم يهضم المفاجأة ، واستيعابه المباشر للصورة كان يعنى قبوله لفكرة المشى على الماء والجدران ، وأن تكون السماء تحت الأرض ، وأن البحر يُرى بالارتفاع رأسياً وليس بالعرض أفقياً ، أى القبول بفكرة المستحيل نفسه ، ولكن شفيق قطع عليه شروده المسترسل قائلاً وهو يشير إلى ناردين :

- سيد عدنان ، نسيت أن أقدم لك ناردين صبرى زوجتى .

انتفض عدنان فى محله وكمن مسته صاعقة من هول المفاجأة الكارثية التى أطبقت عليه ، وكادت ترديه قتيلاً ، فقد كان الأمر كارثة بكل المقاييس وبخاصة أنه قد هوى معها فى بحر لاقرار له من العشق والهوى ، وازداد اعتقاده يوماً بعد يوم بل لحظة بعد لحظة ؛ أنها قدره ونصفه الآخر ، هى حواء التى لم تخلق إلا لآدم واحد فقط ، أجل هى حوائى وأنا آدمها ، ولكنه فى الوقت ذاته وجد تفسيراً لحظى فك به سريعاً طلاسم شفرة جفولها المستمر منه طوال الفترة الماضية ، ولكن ضعفها واستسلامها له فى شاطئ أبى قير زاد الأمر تعقيداً بالنسبة

له، لقد حاولت فيما يبدو أن تعترف له بالحقيقة ، ولكن الحقيقة بدت له حينها أنه أعمى وأبكم وأصم ، لايريد أن يسمع أو يرى أو يكلم إلاها، هى دوناً عن نساء العالمين وليكن مايكون ، ولتكن كذلك من تكون فتاة الشاليه ، ابنة البحر والقمر ، الموظفة الزميلة فى العمل ، ولكن كان أبعد ماتصوره على الإطلاق أن تكون لأحد غيره ، فماباله وقد اكتشف كونها زوجة ! ؛ ولَمَنْ ؟ ، لأحقر حيوان رعديد على وجه الأرض .

- معذرة لقد تعطلت سيارتنا ، كنا على مقربة منك فى مناسبة تخص بعض الأصدقاء ، وحين اشتدت علينا الرياح والمطر قصدنا بابك .

لم يفكر عدنان من قريب أو بعيد فى الكيفية التى عرف بها شفيق وجدى عنوانه ، بل لم يحر عبارة أو حرفاً واحداً حين قال له شفيق معتذراً :

- معذرة لكوننا قد أزعجناك .

- ....

مد شفيق يداه كى يجلس ناردين إلى جانبه فى الأريكة الكائنة أسفل النافذة المواربة التى تطل على البحر مباشرة ، ثم راح برفق يخلع من على كتفيها شالها الحريرى ، كانت ناردين فى كامل زينتها ، وحين خلع شفيق الشال المسترسل إلى الأرض من على جسدها بدت مرتدية فستان سهرة عار وشفاف للغاية، وهنالك طلب شفيق من عدنان بلطف بالغ منشفة كى يجفف بها جسد ناردين من قطر الماء المتساقط عليه ، لم يماطل عدنان كثيراً ، بل سارع بإحضار المنشفة من

على حافة مسند السرير وقدمها لشفيق ، ثم جعل يدير ظهره جانباً، وهو يكتم أنفاسه التى كانت تحترق غيظاً وكمداً آنذاك فى صدره ، وذلك حين شرع شفيق يمسح الماء بمنشفته الخاصة عن نهدي ناردين العريانين ثم كتفيها فجدائل شعرها الطويلة المبللة ، فظهرها فساقيها، بعدها نظر شفيق فى ساعته وقال ضاحكاً :

- ليس هناك أى داعٍ للخجل ياسيد عدنان ، نحن أخوة وزملاء عمل قبل أى شئ .

لم يجد عدنان مايمكن قوله ، غير أنه بعد فترة طويلة من الصمت والترقب كان قد استجمع خلالها تلابيب شجاعته وقال :

- سوف أعد لكما شيئاً دافئاً لتشرباه .

فبادر شفيق وجدى بشد عدنان من طرف مرفقه قائلاً وهو يسدد إليه نظرة ذات مغزى عميق :

- لابد من الانصراف حالاً للبحث عمن يصلح لنا السيارة، وهيا عد أنت إلى نومك ان استطعت هاهاها .

قهقه شفيق مجلجلاً بالضحك ، ضحكة كانت مدمدمة كأعتى وأعنف زلازل الأرض قاطبة ، ولم يفهم عدنان مغزى هذه الضحكة اللهم إلا حين انصرف شفيق خارجاً من منزله المتواضع .

●●●

(١٣)

كانت كلماته واضحة تمام الوضوح : أنا أعرف كل مادار بينكما فى الخفاء ، وأنه يحبك بجنون ، وأنت أيضاً تبادلينه نفس الحب ، كان من الممكن أن أتخلص منكما برصاصتين حقيرتين من مسدسى، هذا الحل مازال مطروحاً أمامى بقوة إن لم يرد لى هذا اللص اللعين ملفى الذى سرقه خلسة من جهاز حاسبى الآلى، المطلوب منك أيتها الساقطة : أن تشعلى جنونه ، أن تعيديه إلى عقله ، وإلا فإن رصاصتى الحقيقية سوف أوجهها إلى ....، أنتِ تعلمين جيداً سوف أوجهها إلى مَنْ !؟ .

ظل عدنان فى حيرة بالغة من أمره بعد أن غادر شفيق وجدى وحده المكان ، فى حين ظلت ناردين مستكينة فى مكانها على الأريكة بالقرب من النافذة المواربة ، كانت النوارس فى الخارج لم تزل بعد تعزف اللحن القديم ، ذلك اللحن السماوى الذى كان يسميه فى صباه: الحبيبة المفقودة ، وكان حين رأى ناردين لأول مرة خيل إليه أن هذا اللحن القديم لم يعد له أى معنى ، وأنه قد اندثر إلى الأبد فلم تعد هناك حبيبة مفقودة ، كيف لا، وحبيبة قد باتت ملء سمعه وبصره وخفقات فؤاده وكل شئ فى الوجود، فما بال نوارس البحر تشدو فى شجن ذلك اللحن القديم ، ويتجاوب صدى السماء مع شدوهم الحزين ويردده فى خشوع جم ، أى تناقض هذا ، وأى تشكيك تريد نوارس البحر أن توقع الفتى البائس فيه ، أليست ناردين هى الحبيبة المفقودة،

وأليست هى من تقبع عريانة فى مخدع خياله ، وهى من توسوس له بفتنتها المسكرة أن يفتك بأنوثتها الساخنة فتكاً تشتهيه كل امرأة من حبيبها الأسد الهصور ، لِمَ لا والفرصة سانحة له ، فلقد مضى شفيق خارجاً بعد أن أحكم إغلاق الباب الخارجى عليهما بنفسه ، وكأن غيبته ستطول ، ستطول إلى الحد الذى يكفى لشيطان مبتدئ أن يسقط أى اثنين كانا فى فخ الرذيلة الشبقى ، فمابالهما وهما حبيبان يحترقان شوقاً لبعضهما البعض من أجل لقاء أبدى لايفترقان بعده البتة .

أحس عدنان بارتعاشة قوية تسرى فى كل كيانه ، وكذلك ناردين كانت ترتعش ليس بتأثير من برودة الجو ، وإنما خجل المرأة الطبيعى حين تعيش لحظة الاختلاء مع رجل غريب ، الخجل الذى يثير جنون الرجل ، ويضرم نيران الرغبة فى نفسه ، نار قدر لها ألا تنطفئ إلا بمعرفة المرأة ، وبخاصة إذا كانت هذه المرأة هى حبيبة القلب المشتهاة.

- أعرف أنك مصدوم فى .

أخيراً نطقت ناردين قائلة ذلك دون أن ترفع عيناها فيه ، وقد أولاها ظهره تماماً :

- هذا كابوس مفزع ، محال أن يكون حلماً أبداً ، يبدو أننى كنت مخطئاً حين صممت على معرفة حقيقتك بنفسى .

- أرجوك لاتسئ فهمى ، جئت إلى هنا بغير رغبتى ، هذه حكاية مؤلمة يطول شرحها ، حاولت أن أشرح لك الأمر كله لكنك لم تمنحنى الفرصة ، الذى يهمنى فى الأمر الآن : أن تعلم أننى لست بغياً أو شيطانة كما قد يصور لك عقلك .

ارتمى عدنان جالساً على حافة الأريكة التى تجلس إليها ناردين وهو لم يزل يوليها ظهره ، وجعل نظره لصق الأرض المرتمى عليها ظلهما الشبحى المرتعش ، ظلهما كاد يتمرد على الطبيعة التى نألفها نحن معشر البشر ، وأنه يتبع الأصل ، ويكون رد الفعل الذى يأتى على أثر حركة صاحبه ، ولكن فى هذه الحالة الإستثنائية التحم الظلان وتعانقا بالجسدين والشفتين طويلاً ، وآنذاك كانت ناردين منكمشة فوق الأريكة وآخذة بتلابيب نفسها، وعدنان مازالت تتصارعه الصور والأحداث المتلاحقة ، ورغبته فى اتباع ظله النشوان ، والارتماء فى أعناق حبيبته نصفه الآخر، ورغبته الأشد فى ألا يدنس هذا الحب الطاهر البرئ ، حب لايشترط فيه اجتماع الجسدين ، بل الروحين وكفى، وليتلاشى الجسدان إلى الأبد ، فما حاجتنا إلى الجسد إن كنا نرى من نحبهم بغير أبدان أكثر مما لوتلبستهم أجمل الأجساد وأروعها، وأجمل الوجوه وأكثرها سحراً ونضارة ، الأجساد تبلى ، وقد تحترق أو تصير دمية قبيحة بين ليلة وضحاها ، أما الروح فهى مبدأ العشق الأزلى الأبدى ، لِمَ لا وقد أحب هذه الجالسة إلى جواره قبل أن يراها بعينيه ، وألم يطف به طيفها الشفيف منذ أن تفجر فيه الإحساس القوى بالأنثى ، وكانت المفردات التى تلتئم بها نغمات لحنه القديم التى لم تزل بعد نوارس الليل تتغنى بها فى أرجاء السموات العلا ، هيه ، فليذهب الشيطان إلى الجحيم، المجرم اللعين الذى يحيك أبشع الألاعيب الدنيئة فى الخفاء ، وليذهب النخاس القذر بجسدها على مافيه من روعة وجمال ساحرين وكفى ماتبقى لى من روحها الحبيبة ، كان هذا هو القرار الذى اتخذه عدنان فى سريرته،

وأعاد التوازن والثبات إلى نفسه بعد صراع مرير مع شيطان الهوى، فلوى عنقه جانباً لكى يتسع له مجال الرؤية لكى يراها ولو بشكل غير مباشر ، فلمحها وقد ارتمت إلى الوراء نائمة وقد تكشفت تماماً، فبادر مسرعاً بشد ملاءة الفراش عنوة ثم فردها عليها ، ومد يداه وأحكم أغلاق النافذة الخلفية ذات الضلفتين الشيش المواربتين، وقبل أن يمضى مغادراً المكان ألقى نظرة أخيرة عليها ، كانت تبدو كطفل برئ نائم فى المهد وتهدهده ملائكة السماء الرحيمة ، هذه الصورة ظلت لصق عيناه وقد أسند ظهره إلى باب البيت الخارجى الموصد وهو يتطلع طويلاً إلى البحر الهادر ، تقدم للأمام وقد جعل يقى رأسه بكوفيته الخضراء الجوخ من مياه الأمطار المنهمرة ، ولسانه يلهج بذكر حبيبته بأسى ومرار بالغين ، فلم تكن صدمته الحقيقية فى كونها امرأة متزوجة ، بل كانت حقيقة زواجها من مجرم كشفيق وجدى هى الكارثة الحقيقية ، ذلك الشيطان القواد المخنث الذى أتى بزوجته إلى عرين من يحبها فى رسالة واضحة : شئ فى مقابل شئ ، زوجة ساحرة الجمال فى مقابل ملف ضائع ، والله وحده أعلم بسر هذا الملف اللعين الذى يلهث شفيق وراءه هكذا ككلب مسعور ، وأياً كانت قيمة هذا الملف فهل تعدل أهميته قيمة الشرف والعرض والغيرة ونخوة الرجال، من المؤكد أن شفيقاً هذا زومبى ديوث رجيم ، قال أن قتل عدنان أو إيذاءه بأى شكل كان لن يعيد إليه ملفه الضائع، فقدم العرض الذى توهم أنه لايمكن رفضه ، ولكن تراه بأى قوة أوتهديد مارسه ضد نادرين حتى تقبل أن تأتى صاغرة منصاعة هكذا كالمخدرة ، وكأى فتاة منحرفة من فتيات الليل ، جن جنون عدنان

وهـو يفكـر بصـورة سـيئة فـى ناردين حبيبتـه البتـول ، الطاهـرة النقيـة ، ولـولا أن جمعتهمـا معاً المعجـزات التـى لايصدقهـا عقـل ، لشـك فـى نفسـه وفـى قـواه العقليـة، وأن حياتـه محـض أوهـام وخزعبـلات وصـور زائفـة وخـدع بصـرية ، ولكـن يبقـى أن هنـاك حقيقـة واحـدة تظـل باقيـة وقـادرة علـى الصمـود فـى خضـم هائـل مـن الأكاذيـب والأباطيـل التـى تنغـص عليـه وعلـى النـاس أجمعـين حياتهـم ، تلـك الحقيقـة التـى سـتجلى جهـام كل شـئ، وتكشـف الصـورة علـى حقيقتهـا فـى يـوم مـن الأيـام ، ولعـل هـذا اليـوم غيـر بعيـد .

بـدت مـن بعيـد مـن وراء ربـوة عاليـة تغطيهـا بقايـا مراكـب الصيـاديـن الهالكـة ، سـيارة سـوداء فاخـرة ، كانـت متوقفـة ، وبداخلهـا شـخص مـا يغـط فـى النـوم العميـق وهـو يجلـس وراء المقـود ورأسـه محدوفـة إلـى الـوراء، لمح عدنـان كل ذلـك بعينيـه المسـهدتين حـين انشـق الفجـر ، وتبـين الخيـط الأبيـض مـن الخيـط الأسـود ، وتهـاوت الشـمس فـى لجـة مـن السـحب الداكنـة ، فانعكسـت رغـم ذلـك غلالـة مـن الضـوء الخافـت ، ولعـل مـارآه عدنـان كان يرجـع إلـى بصيرتـه قبـل بصـره ، فتقـدم مـن السـيارة ، وراح يمسـح بطـرف كوفيتـه النافـذة الزجاجيـة مـن قطـر المـاء الـذى خلفـه المطـر الكثيـف ، كان شـفيق فـى داخـل السـيارة قـد أيقظتـه حركـة احتـكاك يـد عدنـان بالنافـذة ، فضغـط زراراً جانبيـاً هبـط علـى أثـره اللـوح الزجاجـى فـى مكمنـه ، بسـط راحـة يـده أمـام عدنـان وكمـن ينتظـر أن يوضـع فيهـا شـيئاً مـا وعلـى شـفتيه ابتسـامة واثقـة ، فقـال عدنـان بنبـرة هازئـة :

- أنت فهمت معنى الشراكة التى طالبتك بها خطأً .

قبض شفيق راحة يده ، وضرب بها على ساقه وهو يطلق تنهيدة غضب حارقة :

- هيه .

- كونك مجرماً عتيداً فى الإجرام فهذا لم يدهشنى ، أما ما أدهشنى حقاً وبشدة كونك ديوثاً بقرنين لانخوة عندك ولامروءة ، أنت سافل وضيع لاتستحق المَلَكُ الوديع النائم فى مخدعى الآن .

مد شفيق قبضة يده الهائلة ، وجذب رأس عدنان من عناقه إلى داخل كابينة السيارة ، وباليد الأخرى أخرج مسدساً من التابلوه الأمامى ، ثم ضغط بشدة فوهته بشكل يدعو للألم فى صدغ عدنان وهو يقول بغلٍ واضح :

- دماؤك لاتساوى ثمن الرصاصة التى سأطلقها عليك الآن.

- هه ، اقتلنى ولن تحصل على شئ إلى الأبد .

تجمدت الصورة لفترة طالت كثيراً ، كان ذهن شفيق يعتمل خلالها بسرعة ثم قال وهو يترجل إلى خارج السيارة بعد أن قذف عدنان بشدة بالغة إلى الأرض الموحلة :

- كنت سأقتلك بسبب فهمك الخاطئ للأمور ، أنت حملتها أيها الحيوان فوق ماتحتمل ، زوجتى السيدة الطاهرة تركتها أمانة فى بيتك حتى يفرغ الميكانيكى من إصلاح السيارة ، ولم يكن من المعقول أن تبيت معى الليل البارد بطوله فى كابينة السيارة والوحوش ترعى من حولنا فى كل مكان .

- أجل ، هذا على اعتبار أننا فى صحراء مقطوعة .

- لاتسخر منى ، هذه هى الحقيقة ، وهذه أحد أهم عيوب ثقافتنا الرجعية ، أن نظن الظنون بمجرد أن يختلى رجلاً بامرأة تحت سقف واحد ، قل لى ياهذا لماذا تصورت أننى أقدم لك زوجتى ومابيننا بعيد كل البعد عما ذهب إليه خيالك المريض ، تكلم ، لماذا لماذا ؟ .

- لأننى رجعى متخلف .

قالها عدنان بسخرية ممضة ، وقد هب واقفاً ، ثم استدار على عقبيه منصرفاً وهو يضرب كفاً بكف .

حين أفاقت ناردين من سباتها العميق أحست براحة وطمأنينة لم تحسها فى حياتها من قبل ، لقد نامت نوماً عميقاً لذيذاً وهى آمنة مطمئنة وكأنها نائمة على صدر أمها الرءوم لا فى بيت رجل غريب لايجوز لها ولاتحل له ، ولكم ودت من كل قلبها أن تبقى فى هذا المكان المريح إلى الأبد ، ولاسيما أنه سيجمعها بحبيب قلبها، والذى رغم الاكتواء بنيران عشقها إلا أنه آلى على نفسه ألا يمس شعرة واحدة من شعر رأسها ، وهى المستسلمة التى لاحول لها ولاقوة صاغرة رهن إشارة فقط من طرف بنانه ، فإذا النساء تفنن فى إظهار أعظم مالديهن من صور الأنوثة والعشق ، فلن يجدن أروع من الرجولة الكاملة المتمثلة فى شخص عدنان سبباً لإبراز أنوثتهن الكاملة الطاغية: «هيه أيها الرجل الرائع ، أقسم أننى لو لم أكن نصفك الآخر كما تظن ، لوددت من كل قلبى أن أصبح مجرد ظفر فى إصبع قدمك لانصفك كله» .

قالت ناردين ذلك فى نفسها وهى تصلح من هندامها ، وتلف جسدها العارى بالشال ، ثم وقفت بجدية أمام المرآة المهشمة تعقص شعر رأسها إلى اليمين تارة وإلى اليسار تارة أخرى ، فلقد أرادت أن تبدو فى ناظريه كأى سيدة محترمة وجميلة مهندمة فى آن واحد ، لا تلك الساقطة التى رآها فى الليل ، كانت نادمة ومضطرة ومغيبة ، ولكن من يصدق ، كانت على أية حال تريده أن يمنحها فرصة ، مجرد فرصة واحدة للدفاع عن صورتها التى من المؤكد أنها قد تحطمت تماماً فى نفسه ، ولعله يلعنها الآن فى داخله ، وينفى بكل ماوسعته الحيلة أنها فتاة أحلامه ونصفه الآخر المفقود ، وقد لايتردد حين يراها فى لطمها بصفحة يده على خدها الأيمن والأيسر ، بل قد يجرها من شعرها الطويل ويركلها إلى خارج حياته كلها ، وبيته الطاهر الذى لايأوى غير الشرفاء الأطهار ، لا الساقطات العاهرات ، وحين طرق الباب عدة مرات اضطرت للاقتراب من الباب ، وأدنت أذنها تماماً منه وهى تتساءل عن هوية الطارق بفضول لامعنى له ، أللهم إلا أن يكون هذا الرجل لا ذاك ، فأتاها كما تمنت صوت الرجل الذى تعشقه ، لا ذاك الذى تمقته بكل جوارحها ، كان صاحب الصوت الهادئ الوقور فى الخارج يجيبها قائلاً :

- أنا عدنان فخرى .

فتحت ناردين الباب وهى فى غاية الدهشة من صاحب المكان الذى يستأذن امرأة لعوب فى الدخول ، بعدها تراجعت إلى زاوية مخنوقة فى المكان وهى حذرة منه فربما يفقد أعصابه وينهال عليها

ضرباً مبرحاً ، ولكن عدنان لم يعرها مجرد نظرة أو التفاتة ، واكتفى بإخبارها أن زوجها شفيق وجدى ينتظرها فى الخارج ، دنت منه ناردين بعدما مرت فترة عصيبة من الصمت والتردد ثم هتفت به برقة قائلة :

– أستاذ عدنان .

ولكن إشارة من يد عدنان الذى كان يوليها ظهره ألقمتها حجراً كبيراً فى فمها فأسكتتها تماماً ، لم تجد بداً من الانصراف خارجة وقد سترت جسدها كله ، بملاءة الفراش التى وضعها عدنان بنفسه عليها بالليل ، وحين أرادت أن تعيدها إليه أشار لها بامتعاض أن تتصرف لحال سبيلها من سكات ، بعدها مضت إلى الخارج وقد وضعت النظارة السوداء على عينيها الدامعتين ، كذلك طفرت الدموع مدراراً من عيني عدنان ، وانثالت كالسيول على جانبى وجهه حتى بللته تماماً ، وكانت النوارس فى الخارج آنذاك مشرعة أجنحتها للأفق وهى تعزف ذات اللحن القديم ذى الشجن الغريب .

●●●

(١٤)

البحـر ينـادى مـن يحبـه ، يلهمـه أراجيـز الشـعر ، وأسـاطير القـص والنثـر ، ويسـكره بموجـات قدسـية ، الصيـادون يفرشـون شـباكهم الملونـة سـاعة الشـروق ، ويلملمونهـا سـاعة الغـروب ، يمدحـون البحـر الجـواد ، وإن مسـهم شـحه مدحـوه أكثـر فأكثـر لئـلا ينقطـع خيـره، ليحرسـه رب كـريم عالـم الأسـرار ومايغيـض فـى أرحـام البحـار ، تـارة يكـون مـلاذهـم ومهجتهـم وتـارة أخـرى يتـوارون منـه ومـن نواتـه الجنونيـة ، الريـس عويضـة أتـى متلفعـاً بكوفيتـه الصـوف الدكنـاء فـى الصبـاح الباكـر كـى يخبـره بضـرورة مغـادرة العشـة ، فمـن المنتظـر بـين لحظـة وأخـرى أن تضـرب موجـة عنيفـة مـن النـوات سـاحل البحـر ، ولكنـه تسـمر طويـلاً وراء التلـة حـين رأى ناردين خارجـة مـن العشـة وقـد لفـت جسـدها بمـلاءة الفـراش الـذى ينـام فيـه عدنـان ، وكان شـفيق وجـدى قـد انصـرف بسـيارته مغـادراً المكـان مـن غيـر أن ينتظـر زوجتـه ناردين صبـرى ، شـاع الابتئـاس والضيـق فـى وجـه الرجـل للغايـة ، وأحـس بغصـة تكـوى حلقـة ، فأمسـك رأس عصاتـه الغليظـة، وبدلاً مـن أن يتـوكأ عليهـا ، أشـهرها لفـوق وكأنهـا سـيف بتـار ، وتقـدم كمحـارب غضـوب مـن بـاب البيـت الـذى كان مفتوحـاً علـى مصراعيـه ، وكان عدنـان واقفـاً فـى صحـن المكـان وظهـره إلـى بـاب ، فطـرق عويضـة خشـب البـاب بطـرف عصاتـه عـدة طرقـات متلاحقـة وعنيفـة ، فاسـتدار عدنـان علـى عقبيـه بسـرعة لينظـر مـاوراء هـذه الطرقـات المفاجئـة والمفزعـة للغايـة ، كان عويضـة النقـاش ينظـر إليـه شـذراً ، والـذى قـال بحـدة متناهيـة :

- البحر النجس لايلزمنا ، الصيادون الأطهار تركوا لك هذه العشة تزكية لأنفسهم ، لا لكى تتجسها لهم بأفاعيلك المشينة ، تكلم ياولد ، ماذا كانت تفعل ناردين صبرى هنا فى مثل هذه الساعة المبكرة من النهار !؟.

كان الوقت غير مناسب بالمرة للحديث وتوضيح الصورة ، وبخاصة فى أمر محرج من هذا النوع الثقيل ، ولكن مع إلحاح نظرات الريس عويضة الضاغطة غالب عدنان فخرى دموعه ، وحالته النفسية السيئة، وقال بنبرة فيها حشرجة ممضة :

- المكان كما تسلمته منكم كما هو ، يعلم الله وحده أننى لم أدنسه ، ويمكننى أن أغادره فوراً .

عض عويضة على أسنانه غيظاً لفترة ، بعدها قال وهو يرخى عصاته المشهرة :

- أمامك خمس دقائق فقط تلملم خلالها أغراضك اللعينة، ثم لترح فى داهية تأخذك ، وتأخذ الساعة التى عرفتك فيها .

أومأ عدنان بالإيجاب ، حاول فى البداية أن يدافع عن نفسه، فقضيته جد سهلة ، وما أيسر أن يأخذ عويضة جانباً ويشرح له كل شئ بالدليل القاطع ويحوز البراءة السهلة المستحقة ، ولكنه وجد نفسه عازفاً عن النطق ، وأنه يرح ويجئ بقدمى القدر لابقدميه هو ، وإنه إن قرر الذهاب فهو يمضى فى اتجاه آخر عكس الذى يريده ، فلِمَ يعاند قدره ، ولِمَ يتجشم مسئولية الدفاع عن شرف امرأة غامضة تهاوت صورتها أمامه للحضيض ، فأياً ماكان حبه لها ، وأياً ماكان انحيازه

الفطرى اللاإرادى إلى جانبها ، وأياً مادفع من أجلها من حجج وأعذار واهية ، فكل ذلك لايصلح أن يكون شفيعاً لإمرأة جاءته ليلاً ولو كانت مخدرة مع نخاس رعديد يعرضها عليه فى مقابل شئ لايملكه هو من الأصل : «ترى أى لعبة قدرية تلك التى كتب علىّ أن أحياها ، وأخوض غمارها على هذا النحو المريب « ، هكذا حدثت عدنان فخرى نفسه، وقد شرع فى الحال يضع أشياءه وأغراضه الشخصية فى الحقيبة التى أخرجته بها بهية من بيت الابراهيمية ، تلك الحقيبة التى صارت لرحال مايكاد يهبط فى مكان حتى يضطر لمغادرته إلى مكان آخر ، وعند رجل السرير المعدنية ألفى أثراً غالياً واقعاً إلى الأرض ، فثنى جسده بزاوية حادة جادة جداً حتى اقترب من الأرض والتقط المنديل الخاص بناردين ، راح يتنشق عبيره نشواناً رغم أنفه ومايحس به من ضيق وغضب منها ، بل أحس أنه العوض الإلهى الذى منحه إياه فى لحظة الضنك والعسر التى خيمت فوق سماء حياته ، ضم المنديل بشدة إلى قلبه ، وهو يتمتم فى نفسه جملته التى يعيدها مراراً وتكراراً : « إذا كانت الصورة سوداء ، لاتحرقها ، فربما يشع الضياء يوماً .

إن تبدلت الوجوه الطيبة وصارت غير الوجوه ، وضاقت الأرض بما رحبت وتخلت السماء ، فلاتظنن أن البحر أرضاً مفروشة بالورود، وإنما يمنح فقط من يكابد الحياة طوق النجاة ، المرساة البعيدة تتراقص أمامها المراكب الخربة القديمة التى شطَّت وخرجت من الخدمة منذ زمن بعيد ، وبالكاد يربطها حبل ذائب بوتد مثبت إلى أرضية الشاطئ، اللصوص والحشاشون وغواة المتعة الحرام ينزلون فى أكناف تلك القوارب المتآكلة الهياكل ، كانت الاسكندرية التى يعرفها عدنان حق

المعرفة تتوارى آنذاك وراء غلالة الليل ، المنظر من ناحية من يتطلع إلى الاسكندرية أروع بكثير من المنظر الذى تطل عليه الاسكندرية ، حيث أغرب مكان فى الوجود ، وحيث بدا عدنان واقفاً فى المرساة على حافة البحر ذى الرائحة الكريهة ، تصور لأول وهلة أن السكندريين أنفسهم لايعلمون عن تلك المرساة شيئاً ، وأن هذا المكان العجيب يصلح أن يكون فى أية بقعة من الأرض غير الأسكندرية عروس البحر الأبيض المتوسط ، وحين راح يجيل النظر فى أنحاء متفرقة من المرساة ، وجد عجباً عجاباً ، عالم الليل الذى حضر بأسوأ مافيه ، فما أكثر أشباح المراكب الهالكة ، التى ذابت أخشابها وتسلل إلى قلبها الماء وطرح البحر ، وهياكل الأسماك النافقة ، نام أو حاول عدنان أن ينام فى إحداها ، ولكن جفاه النوم تماماً حين سمع أصواتاً منكرة تأتى من هنا ومن هناك ، وضحكات رقيعة عابثة ، وقرقرة النارجيلة ، والمراجل وهى تغلى وتفور ، ومن بعيد لمح مركباً كبيراً يحمل أشباحاً ويمخر فى هدأة الليل عباب البحر فى رحلة إلى المجهول ، وسرعان مادوت فى أرجاء البحر أصوات صفارات الإنذار ممتزجة بأصوات طلقات رصاص مدوية، لنشات خفر السواحل راحت تنتشر فى كل أنحاء المكان ، وتعيد المركب الفار بأشباحه عنوة إلى الشط وتقبض على من فيه ، قفز عدنان بسرعة فى قلب القارب المخروم الذى كان مختبئاً فيه ، تسلل إلى مسمعيه عدة أصوات هازئة ممتزجة بأصوات شخشخة أكداس القش التى مُلئت بها قلوب بعض المراكب الراسية على الشط وهى تقول :

- هل سيحكمون على قطعان الموتى هؤلاء بالموت ؟ .

- هه يالهم من بؤساء تعساء ، حتى الموت نفسه يرفضهم .

- الذين خرجوا بمركب الأمس نجوا من حرس الحدود بأعجوبة .

- شرطة إيطاليا أو اليونان أومالطا أو قبرص ، سوف يعيدونهم إن نجوا إلى مصر ، لاتقلقوا .

رنت فى الأفق ذى الصدى العاصف أصوات ضحكات متداخلة، فصرخ أحدهم هاتفاً بحذر :

- صمتاً يارفاق حتى لايلقى علينا القبض نحن أيضاً ، نحن أبرياء ، ونعترض ونهاجر بطريقتنا نحن ، وبمراكب أخرى من صنف آخر ، مراكب المزاج التى تنقلنا ونحن فى مكاننا إلى أبعد مكان فى الوجود ، هجرتنا بالدماغ وليس بالجسد هاهاها .

مضت فترة طويلة من الصمت بعد رحيل لنشات حرس الحدود، غير أنه علت مع اقتراب الفجر أصوات الشخير ، وكان أكثر من تدثروا بالظلام قد غلبهم النعاس ، أللهم إلا عدنان الذى طفق يفكر فيما جرى له، وفى سلسلة الطعنات التى مزقت نياط قلبه فى أقل من أربع وعشرين ساعة ، يوم واحد فقط هو الذى حدث فيه كل شئ، وعاش صراعاً مريراً ظهرت خلاله صورته الواحدة كألف صورة متناقضة ، فهو الشيطان وهو الملاك ، النذل الجبان الحقير والشهم ذو المروءة والنخوة ، هو الغروب وهو الشروق ، هو الموت وهو الحياة، الماسة المضلعة ذات الأوجه الكثيرة وحين يتساقط عليها الضوء من عدة نواح تبدو بألف شكل وشكل ولكنها تظل جوهرة ثمينة ، أما الإنسان ومهما كان واحداً وواضحاً يُرى لابحسب

مايكون وتكون حقيقته ، وإنما بحسب مايراه الناس ، بحسب مايتصورون ويتوهمون، وربما بحسب الهوى واسوداد النفوس تلقى الأحكام جزافاً على الآخرين، وأحس عدنان بنفسه وقد ألقى عرياناً فى حلبة المصارعة وجميع من يعرفهم يكيلون له اللكمات القاتلة حتى أبناءه أنفسهم، إلاها ، حبيبة القلب البتول أو التى كان يظنها هكذا ، وقفت فى زاوية مبهورة العينين عاضة على أصابع يديها بقلق وتوتر بالغين، وتشير إليهم أن يرحموه ، وأن يدعوه وشأنه كى يمضى إلى حال سبيله ، وما أثار دهشته فى هذه المرة أن صورتها ظلت على ألقها المعهود ، لم تشبها شائبة ، نقية طاهرة وإن وضعها القدر فى لوحة الخطيئة الدامية، ولكن أى قاض هذا الذى يمنح الدنايا والخطايا ثوب الطهارة الأبدى ؛ أللهم إلا قلب محب ، قلب لايعطى البراءة عنوة وافتئاتاً على الحقيقة وإنما بتلمسها بأكثر الأحاسيس دقة ومصداقية، هى براءة مستحيلة ولكنها بحكمه مستحقة ، وإن خفت كل دلائل البراءة .

أفاق عدنان من سباته هلعاً ، ومنديلها الحريرى لم يزل فى قبضة يده المسندة إلى قلبه ، أحد نوارس البحر الهائمة فى السماء الملبدة بالغيوم السوداء ألقى قيح سائله اللزج فى فمه ، فهب عدنان يلقى برأسه خارج المركب المكشوف ليبصق القرف السائل الذى امتزج بلعابه، وحين رفع رأسه وهو فى غاية الامتعاض والتشنج وجدها فوق رأسه تضحك ملء شدقيها وهى تمد له يدها السمراء قائلة :

- جواز سفرك أيها المحظوظ الذى يأتيه رزقه من طيور السماء الشاردة .

لم يعر ضحكاتها أى اهتمام ، بل نظر بدهشة إلى يدها الممدودة نحوه وقال :

- جواز سفرى !؟.

- أجل والعشرون ألفاً ، هات أيها الحاذق .

كان عدنان الذى هاش شعر رأسه ، وكلحت بشرته ، وتهدلت ملابسه ، وتبللت حقيبته الشخصية بالمياه التى تغمر قلب المركب ، فى غنى عن تعريفها بنفسها ، وأنه قد صار مثل أى صعلوك مفلس لايحتكم من هذه الدنيا على شئ يذكر ، أللهم إلا أنفاس صدره ، ودقات قلبه التى لايدرى إلام ستصير ، إلى البقاء أم السكون الأبدى ، فشهقت وهى تضع كلتا يديها فى خاصرتها صارخة فيه أن ينهض ، وإلا سيلقى مالايحب أويطيق ، فانصاع عدنان لأمرها وهم يمرق فى أثرها قائلاً :

- عن أى عشرين ألفاً ، وعن أى جواز سفر تتحدثين ياأخت، أنا لاأفهم شيئاً .

وحين التفت الفتاة نحوه لتكيل له الشتائم والإهانات توقفت بشكل فجائى ، وقد جدته مختلفاً بمعنى الكلمة ، بل إنه لايشبه بالمرة من اعتادت أن تراهم فى المرساة ، تلك المرساة التى يسمونها مرساة رضوان ، فقالت وهى تهندم هيئتها بصورة لاشعورية :

- تبدو غريباً يافندى ، ولكن من يأتى إلى مرساة رضوان يعرف جيداً لماذا أتى إلى هنا .

- أنـا بالفعـل غريـب ، وبالـرغـم مـن كونـى أحـد أبنـاء الأسـكندرية كابـراً عـن كابـر ، إلا أننـى أتيـت إلـى هـذا المكان الغريب بمحـض الصدفـة .

- هـه الصدفـة أم المحـروق الحشـيش والنسـوان ومنقـوع البراطيـش والبيـرة والنيلـة وكيـت وكيـت .

هز عدنان رأسه بالنفى القاطع وقال :

- لا لا ، أقسم لا ، لست من هذا الصنف من الرجال .

- واضح .

- واضح ماذا ؟.

جعلت الفتـاة تتأملـه مليـاً وتمسـحه مـن أعـلاه إلـى أدنـاه ، ثـم دارت مـن حواليـه وهـى تقـول :

- واضـح عليـك الأرق والقـرف والفقـر والصعلكـة ، لاوظيفـة ولازوجـة ولاأمـل فـى الحيـاة ولكنـك مـع ذلـك تبـدو........

لـم تتـم جملتهـا ، ولكـن مـن عينيهـا تألقـت نظـرة الاعجـاب الكامنـة فـى نفسـها نحـو هـذا الشـخص الـذى انشـقت أرض المرسـاة فجـأة عنـه ، فقالـت وهـى ترقـق فـى صوتهـا علـى عكـس طبيعتهـا :

- حسـناً أنـك أتيـت إلـى مرسـاة رضـوان ، سـوف أكلـم أبـى مـن أجلـك ، كـى يخلصـك مـن كآبـة الحيـاة ، ولـن نطلـب منـك بطاقـة هويتـك ولامليمـاً واحـداً .

لـم ينبـس عدنـان ببنـت شـفة ، ولـم يجهـد ذهنـه بالتفكيـر فـى مزيـد مـن الألغـاز العجيبـة التـى تلاحقـه كأنفاسـه ، وعـاد إلـى المركب التـى كان قابعـاً فيهـا كالمتشـردين ، كان لـم يتخلـص بعـد مـن نوبـة القـرف والغثيـان مـن مخـاط الطائـر الـذى امتـلأ بـه حلقـه ، وجعـل يبصـق بتقـزز فـى ميـاه البحـر ، وحـين مـد يـده ليمسـح فمـه انتبـه فجـأة إلـى أنهـا لـم تـزل بعـد ممسـكة بمنديـل ناردين الحريـرى ، فتراجـع علـى الفـور خشـية مـن أن يلوثـه بقـاذورات الطائـر اللعـين، واكتفـى بتجفيـف فمـه بظهـر سـاعده الآخـر ، ثـم كمـن طويـلاً فـى مكانـه وهـو شـارد فـى لاشـئ .

كانـت الفتـاة قـد أشـارت إليـه أن ينتظرهـا حيـث كان ، غابـت فتـرة مـن الزمـن ولكنهـا عـادت بهيئـة أخـرى ، كانـت قـد زينـت وجههـا وشـفتيها المكتنزتـين بحمـرة الأصبـاغ ، وبالغـت فـى سـواد أهـداب عينيهـا بالكحـل ، وأسـدلت شـعرها المصبـوغ باللـون الذهبـى وأعفتـه لهـواء البحـر يعبـث بـه ويطيـر كمـا يشـاء ، كذلـك كانـت قـد اسـتبدلت جِلبابهـا الشـعبى المشـجر بالألـوان السـماوية المتباينـة بسـروال جينـز ضيـق جـداً وبـادى برتقالـى اللـون ، أبـرز جنـون الأنثويـة ، حـين تكـون للأنثـى الرغبـة فـى افتعـال حالـة مـن الجنـون الفاضحـة ، كانـت تحمـل لفافـة فـى يدهـا بداخلهـا السـمك المشـوى المدسـوس فـى قلـب رغيفـين خبـز بلـدى أسـمر ، ألقتهـا إليـه بصـورة عبثيـة ، فتلقفهـا بتلقائيـة المفجـوء ، وأتبعـت ذلـك بالقـاء زجاجـة ميـاه غازيـة وهـى تضحـك قائلـة أثنـاء تلقفـه إياهـا :

- مـن بـال النـورس فـى فمـه ، أمـه دعـت لـه أن يـأكل سـمكاً مشـوياً مـن يـد حفيظـة بنـت رضـوان .

- شكراً .

لم يمهل عدنان نفسه أى فرصة لتصنع الصبر والإباء وعدم الرغبة ، فقد كان جائعاً للغاية ، الجوع المتمرد الذى يبدى صاحبه فى صورة الوحش النهم ، وسرعان ماانهمك فى تناول الطعام ، وقد أرسل إلى الفتاة أذنيه وهى واقفة فوق رأسه تتأمله باعجاب مستور ، ثم قفزت إلى جانبه فى قلب المركب وهى تتفرسه متأففة وهى تقول :

- هيئتك رثة متربة ورائحتك نتنة ، وعيناك متورمتان منفرتان ، وذقنك غير حليقة ، وهناك شعر أبيض كثيف نافر كالزغب من طاقتى أنفك ، ولكن قلبى مع ذلك يحدثنى أنك ابن ناس ، كذلك لاتبدو من رجال الحكومة والسلطة الذين يأتوننا متخفين ، لا أدرى لماذا انشرح لك صدرى ، سبحان الله فيك شئ خفى يبعث على الطمأنينة .

لم يعر عدنان ماقالته الفتاة انتباهاً ، ولكنه توقف عن الطعام تماماً مغالباً تقلصات مصارينه الجائعة وقد استطردت قائلة :

- وقلبى يحدثنى أيضاً أنكَ...............

لم تكمل جملتها ، ربما وقعت عيناها خلسة على المنديل الحريرى النسائى الذى لم يفلته بعد عدنان من قبضة يده التى لايأكل بها ، أو ربما وقعتا على صورة أخرى مجهولة فى خزانة نفسها العميقة ، هى التى أسكتتها على هذا النحو المفاجئ ، وجعلتها تتلعثم وقد علت دقات قلبها للغاية فى صدرها الناهد، ولأول مرة لم تضحك بصوت ، بل بدت ضحكتها رخيمة تكاد لاتسمع وهى تدفعه من كتفه بجانب كتفها وهى تقول له وكأنما لتغير مجرى الحديث بالكلية :

- ألن تدعونى كى نأكل عيشاً ومِلحاً معاً .

قالت ذلك وهى تديم إليه النظر ، فاضطربت وقامت مهرولة من جانبه ، ولكنه أمسكها من طرف يدها فى اللحظة التى كانت تتخطى فيها بقدمها حافة المركب إلى الشط :

- لماذا تتصرفين قبل أن نأكل العيش والملح معاً .

- لا أعرف لا أعرف .

قالتها وهى تركض فوق رمال الشط مبتعدة بقدر وسعها، بدا الاستغراب شديداً فى عينى عدنان ، والذى لم يعد إلى تناول الطعام، بل نحَّى ماتبقى منه جانباً ، وقفز إلى الشط ، وتطلع طويلاً إلى البحر وكأنما يفتش فى أمواهه المغرقة عن سره الدفين وهو يقول له متمتماً :

- وماذا تخفى لى أيضاً أيها البحر فى قرارك العجيب .

●●●

(١٥)

استتر عدنان جيداً وراء تلة عالية وقضى حاجته ، ثم ذهب إلى حافة مياه البحر المثلجة واغتسل جيداً ، فقد كانت رائحته حقاً لاتطاق، بعدها عاد إلى المركب ، وشد حقيبته التى كان يركنها جانباً واستبدل ملابسه التى اتسخت بشدة بأخرى نظيفة من تلك التى كان يضعها فى حقيبته ، ولم ينس أن يعطر نفسه جيداً ، ويمشط شعر رأسه الناعم ، غيرأنه انتبه فجأة على من يطلق صفارة إعجاب من ناحية ما :

- ابن ناس بحق وحقيق .

كانت حفيظة تقف وراءه مباشرة وقد حملت كل آيات الاعجاب فى عينيها العسليتين والتى استطردت قائلة :

- ليت الوقت كان صيفاً ، كنت ستستمتع معى جداً ونحن نسبح فى مياه البحر يا ....

- ومن قال لك أننى أعرف فن العوم .

شهقت شهقة طويلة وقالت باستنكار :

- اسكندرانى لايعرف السباحة اسكندرانى مزيف ، السكندرى قرش ، قرموط لعيب ، سمكة ابن سمكة يا..........

لأول مرة يجد عدنان مايضحكه فاعتدل ناحيتها وقال :

- عدنان فخرى ، وأنتِ ؟.

- قلت لك حفيظة بنت رضوان .

ابتسم عدنان للفتاة المليحة السمراء ابتسامة عريضة وقال وهو يتأمل فى ملابسها المحكمة الضيق على جسدها البض ، والذى كان يترجرج رجرجة شديدة كقطعة الجيلى مع كل حركة أوالتفاتة منها ، وشعرها السائح المصبوغ الذى يتراقص به هواء البحر بجنون :

- الجلابية السماوية اللون المشجرة ، والمنديل الأصفر أبو قوية المدندش بالترتر وخرج النجف ، الذى كنتِ تعقصين به أطراف شعرك فى قلبه ، كنت فيها تبدين أكثر جمالاً وواقعية من هذه الملابس الضيقة .

تفلت حفيظة فى صدرها كعادة بنات البلد وقالت شاهقة :

- يامى ، ومالك منتبه إلى هكذا ، ماذا لبست وماذا خلعت، أتصور أنك ذئب بشرى خطير .

ضحك عدنان للمرة الثانية من قلبه وقال :

- أجل أنا ذئب بشرى ، هيا اختبئى منى إذاً .

وبشكل مفاجئ رفعت طرف البادى الضيق الذى ترتديه من الخلف ، وشدت من مخنق سروالها الجينز الخلفى مطواة قرن غزال ، وأشهرتها فى وجه عدنان وهى تقول له بنبرة فيها خشونة وقد غرزت سن المطواة ولكن بحساب فى خده :

- من يقترب أو يفكر فى مجرد الاقتراب من حفيظة بنت رضوان ، شوهت له حفيظة بنت رضوان وجهه ، وشقت بطنه وأخرجت مصارينه للطيور وسمك البحر ، و............

فقاطعها عدنان وهو يضحك قائلاً :

- كفى ، هذا يكفى جداً .

أولته حفيظة ظهرها وقالت وهى تتطلع إلى البحر :

- الدنيا ياافندى غابة كبيرة مفتوحة الكل يريد أن ينهش ويأكل فى لحم الكل ، وإذا لم يكن الانسان منتبهاً لنفسه جيداً أكلته الذئاب والسباع وقروش البحر .

صمتت لفترة طويلة وقالت مردفة وقد خالجت حديثها غصة مكتومة :

- أمى ماتت ، ولم ينجب أبى غيرى ، ربانى كما لوكنت ولداً أو وحشاً ، والعمر جرى بى إلى الخامسة والثلاثين كما ترى ، ولم يفكر فى الارتباط بى أى رجل حتى الآن ، هيه فقط كان هناك من يتصور أننى سهلة المنال ، لقمة سائغة يأكلها لحماً ثم يلقى بها عظماً .

دنا منها عدنان ، وقد جعل ينصت إليها بانتباه شديد وهى مسترسلة فى حديثها بنبرة لم تخل من شجن دفين :

- أولاد الحرام الذين يأتون هنا ليلاً يعرفون جيداً من هى حفيظة بنت المعلم رضوان ، أحد الظرفاء السخفاء تجرأ علىّ ذات مرة، شدنى بالليل فجأة إلى واحدة من هذه النفايات التى تسمى قوارب ، مزق ملابسى ، حاول العبث بعفتى .

آنـذاك اسـتدارت حفيظـة وقـد كشـرت عـن أنيابهـا كوحـش كاسـر وقالـت وهـى تقبـض باحـكام علـى المطـواة :

- فكان جزاؤه أننى أعدمت ذكورته فى الحال .

- وبالرغم من كل هذه النظرة الوحشية ، يداك ترتعشان .

نظـرت إلـى يديهـا اللتـين كانتـا ترتعشـان بالفعـل ، فتنهـدت باستسـلام قائلـة :

- لكونـى أنثـى قبـل أى شـئ ، اللّه خلقنـى كذلـك ، وكان لابـد أن أظـل كذلـك ، ولكـن أبـى والذئـاب أرادونـى غيـر ذلـك .

أنـارت عينـا عدنـان بفيـض مـن نظـرات الاسـتفهام ، ولكنـه لـم يشـأ أن يقاطـع الفتـاة التـى استرسـلت فـى حديثهـا الـذى اعتصرهـا ألمـاً وشـجناً وهـى تقـول :

- الريـس عبدالخالـق هـو سـيد هـذه المنطقـة ، أطلـق علـى نفسـه رضـوان تيمنـاً باسـم سـيدنا رضـوان حـارس جنـة اللّه ، ومـن معـه مفاتيـح بوابـات الجنـة ، الفقـراء والغلابـة والمسـاكين فـى بلادنـا كُثـر ، ومـن يريـدون الخـلاص مـن ضنـك المعيشـة والحيـاة الصعبـة ، يأتـون بلاعـدد إلـى هـذه المرسـاة المجهولـة ليركبـون البحـر ورءوسـهم ملآنـة بالأحـلام العريضـة حـين يعبـرون البحـر إلـى الغـرب ، وأبـى المبتـز الكبيـر يفـرش لهـم أرض جهنـم الحمـراء بالـورود والأحـلام ، بعـد أن يكـون قـد أخـذ منهـم الجلـد والسـقط كمـا يقولـون ، فيركبهـم فـى مراكبـه التـى عفـى عليهـا الدهـر وأكـل وشـرب، وهـم ونصيبهـم، يغرقـون ، يموتـون ، أو يؤخـذون فـى مداهمـات حـرس

الحدود المصرية أو غير المصرية ، ثم يرحلون إلى السجون فى بلدهم ككلاب السكك الضالة ، هه وقلما ينجون .

- وماعلاقتك أنتِ بكل هذا .

- أنا ولافخر الجابية ، جابية الأموال التى تلف وتدور مثل عسكرى الدرك على المنطقة ، وتتأكد من هوية الخلق التى ترغب فى الهجرة غير الشرعية ، أو الذين يتسللون إلى المراكب خلسة من أجل المزاج والليالى الحمراء ، أو من هم على شاكلتك .

- المتشردون لعلك تقصدين .

- لاسمح الله ياافندى ، أنت مختلف بكل ماتحمله الكلمة من معنى .

وهنالك ابتسم عدنان ابتسامة عريضة وقال لها كمن أراد أن يهون عليها الأمر ، وهو ينظر باحتقار إلى المركب التى بات فيها ليلته الكئيبة :

- هل أفهم من ذلك ياأخت حفيظة أننى مدين لكِ بشئ من أجل هذه المركب الحقيرة ؟.

- أى نعم ياأخ عدنان ، من هذه الناحية فأنت مدين لى ليس بالمال فقط ولكن بحياتك نفسها ، هناك من كانوا يتربصون بك الدوائر ، وأنا من منعتهم عنك ، أنت هنا غير آمن بالمرة على حياتك .

قالـت ذلـك وهــى مسـتمرة فـى حديثهـا وقـد اقتربـت منـه بشـدة، ورققـت فـى نبـرة صوتهـا إلـى أقصـى حـد تملكـه :

- ولكن نم قرير العينـين هـادئ البـال فهنـاك مـن تسـهر مـن أجلك، بل سـهرت طويـلاً جـداً منـذ زمـن بعيـد مـن أجـل فارسـها وحتـى قبـل أن تعرفـه بالمـرة .

مـدت يدهـا أثنـاء ذلـك لتزيـح خصـلات شـعره الناعمـة عـن صفحـة وجهـه التـى طيرهـا هـواء البحـر الطائـش بشـكل جنونـى ، أحـس عدنـان برعـدة تسـرى فـى بدنـه ، ليـس لتأثـره بهـا ، ولكـن ماقالتـه لـه بعـد ذلـك جعلـه يحـس عجـب الدنيـا كلـه قـد تمثـل فـى تمـاس المشـاعر بعضهـا ببعـض علـى نحـو عجيـب ، وكأنــه هـو مـن يتكلـم إلـى ناردين ، وليـس حفيظـة جنيـة السـاحل ، الصـورة تنسـاح فـى بعضهـا البعـض بشـكل مثيـر ، فليس هـو الناطق وليسـت الواقفـة هـى ناردين ، بـل هـو نفسـه المقصـود ، وفتـاة الشـاطئ السـمراء تكـرر عليـه للتـو نفـس مـاكان يقولـه لناردين حرفـاً حرفـاً، الـكلام والفلسـفة واحـدة وإن تعـددت أفـواه الناطقـين :

- لابـد أن أمنـا حـواء قـد جـن جنونهـا حـين فقـدت نصفهـا الآخـر آدم ، بالرغـم ممـا فعلـه أبـى بـى إلا أننـى كنـت واثقـة مـن ظهـور نصفـى الآخـر فـى وقـت مـا وفـى مكـان مـا ، وأنـك أيهـا الفـارس الجميـل سـتظهر لـى يومـاً مـا ، وسـوف تأخذنـى علـى جـوادك الطيـار بعيـداً بعيـداً جـداً حتـى نلمـس بأيدينـا سـقف الوجـود ، وترينـى مـن الحـب ومتعـة الحيـاة مالـم أره فـى حياتـى مـن قبـل .

ظل عدنان واجماً فى محله ، وهو غير مصدق أن تلف به الأيام لفتها الطويلة هذه ، ثم تقع به فى خاتمة المطاف على عذراء تحمل فى نفسها ذات الفلسفة التى يحملها فى نفسه منذ صباه ، ومنذ أن كانت تعزف نوارس البحر الشاردة لحنها القديم المحبب إلى نفسه ، ولكن شتان الفارق بين من تحبه هى وبين من يحبها هو ، بين فتاة تريد أن تملكه قلبها بصورة فجائية، وبين أخرى أشبه بصندوق الأسرار الملئ بالطلاسم والألغاز ، ولكن تظل الحقيقة هى الحقيقة ، والحبيبة هى الحبيبة ، ولعل جميلة الشاطئ السمراء كانت تنتظر منه مجرد نظرة قبول ، تكون بعدها بمثابة إشارة يبدآ بها رحلة الحب السرمدية ، رحلة الحب التى كانا كلاهما يتوقان إليها ، حبها إياه ، وحبه لسواها ، فتاة أخرى ربما تكون هى صاحبة المنديل الحريرى الذى يكاد لايفارقه البتة ، ولكن لابأس ، المهم أن تبدأ الرحلة وليكن مايكون ، حتى كاد يصرخ فى وجهها قائلاً لها : ولِمَ العجلة ، والحب لايمكن أن ينشأ من نظرة أو من صورة يحتوشها الخيال ، أو فلسفة ذاتية، وأنه قد يكون الوهم بعينه ، ولكنه تمهل جداً فى النطق بأى حرف مما دار فى ذهنه ، فأليست هذه هى نفس فلسفته وأفكاره والتى أوقعته بأسرع مما تصور فى شباك محبوبة مجهولة بكل ماتحمله الكلمة من معنى، عشق صورتها وطيفها وواقعها وحتى أساطيرها ، أفيهدم على رأسه نظرية العشق التى ادعاها ، وكان أستاذاً فيها ، أم يُثّبِتُ فتاة الشاطئ على مبدئها ولاينقض دعائمه، وأنها لم تمض البتة فى الطريق الخطأ، بل فى طريق الحب الشرعى الذى يقودها لامحالة إلى نصفها الآخر المفقود بحق وحقيق ، ثم من يعلم فقد تكون عاقبة صمته

خيـر ، فتتسيه هـذه السـمراء الحسـناء صاحبـة المنديـل الحريـرى حبيبتـه الأصليـة ناردين ، التـى مـن المحـال أن تكون لـه بعـد أن تهاوت عـن وجههـا أقنعـة الزيـف والخـداع قناعـاً بعـد قنـاع ، كفسـاتين سـالومى السـبع والتـى صـارت فـى النهايـة عريانـة مجـردة تمامـاً ، وربمـا كان نفـس الشـئ وبـات القنـاع الأخيـر الـذى سيهوى مـن عليهـا كونهـا الحـب الزائـف الوهمـى ، فلِمَ ينتظـر التجربـة حتـى نهايتهـا ، ولمـا لايؤثـر السـلامة ويبتعـد عنهـا وعـن زوجهـا المجـرم شـفيق وجـدى فـى صمـت تـام ، فلاطاقـة للحمـلان بمجابهـة قطعـان الذئـاب الشرسـة ، كمـا أنـه لاطاقـة للذئـاب علـى الانتظـار كثيـراً حـين ينـزل حمـلاً وديعـاً مـن طريـق الخطـأ والطيـش فـى أرض مذأبـة .

نـام عدنـان فـى قـاع المركـب التـى سـدت لـه حفيظـة شـقوقها، كمـا تدثـر بالأغطيـة التـى منحتهـا إياهـا كـى لايقتلـه بـرد البحـر القـارس ، ولكنهـا لـم تصنـع لـه شـيئاً حيـال الشـياطين رواد المتعـة الحـرام والشـم والحقـن والشـراب الـذى يـودى بالعقـول ، والسـفر إلـى عوالـم المجـون والجنـون غيـر المعهـود ، فكانـت الأصـوات تصطـك بأذنيـه اصطـكاكاً مدمدمـاً ، والضحكات الكريهـة التـى تخـرج ملوثـة مـن نفـوس قـذرة وضيعـة ، فعلـم كـم لاقـت حفيظـة مـن الأهـوال والأوجـاع حتـى تحافـظ علـى نفسـها مـن أمثـال هـؤلاء الشـياطين الأوغـاد ، والذيـن بـدوا لـه كحيوانـات الغابـة المتوحشـين، والتـى كان يراهـا منفصلـة عـن بعضهـا البعـض فـى حديقـة الحيوانـات أو فـى السـيرك ، ولكـن فـى هـذه المـرة أمـام القضبـان لا وراءهـا، معـاً لامنفصلـين ، الأمـر جـد خطيـر لمـن يسـعى فـى هـذه الحيـاة بـلا أنيـاب أو أظافـر تقيـه مـن شـر البرايـا .

كانت الصورة فى مجملها تبدو كالحلم الغريب ، لرجل غريب نزل فى أرض عالم عجيب ، عالم كل من فيه مجهول عن الآخر، والكل يهدد الكل بالخطر الجسيم ، ولكن تظل عاقبة السير فى هذا العالم المجهول هو الصدام بما هو أثقل وطأة من المجهول نفسه ، كان الوقت فجراً حين أطلق شعاع الإبصار من عينيه شبه المقفلتين ، ففوجئ بها ممدة على أرض القارب إلى جانبه ولكن عند قدميه ، كانت الرؤية عسيرة مع الظلمة المنتشرة ، قام بسرعة جالساً فى مكانه وهو يديم النظر إليها غير مصدق نفسه :

- ناردين !.

شعرها الطويل المنتشر فوق وجهها وقاع المركب وقدميه، وأنفاسها الرتيبة فى صدرها الكاعب المضغوط فى أرضية المركب، وإحساسه المخدر الذى هفا إليها ، ونظره الذى زاغ وهوى فى لجة الخيال والأمانى لا الواقع الملموس ، فزاد جنونه وهتف بها وهو يمد يده ويهزها برفق :

- ناردين .

- ناردين وجع قلبك الحقيقى ، ماذا تريد منها ؟.

لم يكن الصوت لناردين ، ولا الوجه الشبحى الذى أطل عليه من وراء خصلات الشعر التى هوشها هواء البحر كان أيضاً لناردين ، فوجئ عدنان بفتاة الشاطئ السمراء هى من تتحدث وتتطلع إليه بعينين ظن لأول وهلة أنهما تعاتبانه ، ولكنهما كانتا تواسيانه تهتفان به : أن انس ماقد كان ، وانتبه إلام سيكون ، فماجاء بك إلى هنا شئ غير الحب ، وما أرقدنى تحت قدميك هكذا إلا ذاك الشئ نفسه «الحب» .

- حفيظة ، ماذا تفعلين هنا فى مركبى !؟.

- اشتقت إلى الأمان ، بل فى الحقيقة لم أعرفه من قبلك، فقل أننى كنت الآن فى حفلة تعارف .

كانت الكلمات أعمق وأرق بكثير من أن تخرج من فم فتاة موانئ صعلوكة مثلها ، نالت القليل جداً من التعليم ، ولكنه الحب من علم الناس مالايعلمون ، وهذب طبائعهم ، فياله من خائب ذلك الذى اراد أن ينال هذه القطة عنوة ، إن المرأة لتعطى كل شئ عن طيب خاطر مع الأمان ، ومع غير الأمان لايكون من نصيب الحقير المدنس غير أنيابها وغضبها الوحشى ، وهنالك تذكر رفيقاً صاحبه سيد المتحرشين بالنساء كما كان يلقب نفسه بهذا اللقب الأثيم ، وكيف كان عدنان يقول له مراراً وتكراراً ، لاتتحرش بالمرأة ولكن ادعها برقة كى تكون الساكن الأبدى فى قلبها ، من لم يعرف المرأة لم يعرف الحياة ، ومن لم يعرف الحب عاش حياته ميتاً وإن كان يسعى على قدمين وروحين ، ولكن ماباله هو ، وهو أمام امرأة لايبادلها نفس الإحساس والمشاعر، وكونها تتحدث كحديثه وتتكلم بلسان كلسانه ، لايجعلها بحال من الأحوال ترقى فيه ربوة القلب التى تربعت عليها ناردين بكل استحقاق منذ زمن سحيق ، والذى يخيل إليه أنه زمن خلقا وكانا فيه بعد أن كانا لاشئ على الإطلاق .

كانت حفيظة آنذاك تدقق النظر فى وجه عدنان الذى بدت تلوح فى قسماته تباشير الصباح ، وقالت بهمس حذر وهى تميل للأمام إلى وضع الجلوس فى الناحية المقابلة له على أرضية القارب المهترئة :

- غداً فى الفجر سوف تنطلق إحدى مراكب أبى رضوان الجيدة إلى ايطاليا ، سوف نركبها معاً فى السر ، أبى لن يعلم شيئاً عن هروبى معك إلى هناك ، وهناك سوف أكون خادمة لك ماحييت بالرغم من كونى لاأعرف عنك أى شئ ، بل لا أريد على وجه الإطلاق.

دام صمت عدنان طويلاً ، كانت الدهشة قد غلفت ملامحه ، وأشعلت ثورة من الأفكار فى رأسه والتى لم يعمل لها أى حساب من قبل ، فيما استطردت قائلة بذات الهمس وكأنما لتشيع الطمأنينة فى نفسه :

- خالى ربيع سوف يكون هناك فى انتظارنا ، سوف يساعدنا كثيراً حتى نتزوج ويكون لنا عملاً وبيتاً جميلاً وأطفالاً أيضاً ، أرجوك لاتفكر فى شئ ، فقط أعقد العزم وتوكل على الله ، وأقسم أننى لن أكون عائقاً فى طريقك لو فكرت يوماً فى العودة إلى مصر .

وبالرغم من هتافها المتكرر به ، إلا أنه لم يجبها ولو بطرفة عين، كان يبدو كالمغيب المخدر الحواس والعقل ، وربما كانت نفسه تحدثه فى كونه قد تمنى الموت فى الآونة الأخيرة ، تلك الآونة التى فقد فيها كل شئ ، وتجهمت الحياة فى وجهه شر تجهم ، فمابالـه يوليها الآن ظهره وهى تأتيه ضاحكة مستبشرة تزف إليه خبر الخلاص من كل شئ نكد عليه وآلمه ، فبيته الذى انهار يوشك أن يبنى له من جديد فى أجمل بقاع الأرض الساحرة ، بيت جديد جميل فيه الزوجه والحبيبة التى تجعل خدها مداساً له ، وتحبه من كل قلبها ولاتنتظر منه أى شئ غير رضاه ، حبيبة من لحم ودم لامن وهم وغم ، أجل

فقد غمته بهية ، وصدمته ناردين شر صدمة وأهمته بأبشع صورة لم تكن لتخطر على باله بالمرة ، فهاهو الله قد استبدلهما له بمن قد تكون خيراً وأنفع منهما ، صحيح أن الفارق بينها وبين ناردين على وجه التخصيص، بل بينه هو شخصياً شاسعاً جداً ، ولكن هل يملك قرار إعدام كل شئ فى لحظة واحدة بقولة لا ، وبرفضه هذا العرض السحرى ، وكيف لمن لايملك أن يتمنع عن العودة إلى الجنة ، ثم ألا تستحق الجنة ورياحينها الساحرة عناء الكد والمغامرة ، لِمَ لا ولوكان الموت هو الثمن الذى عليه أن يدفعه فى النهاية فى مقابل مغامرة بل مخاطرة قد يكتب لها النجاح فى النهاية ، ثم أليس الموت بكتاب مقدور وكأس يدور على كل دان وقاص ، وكل ظاهر وخفى ، بل لماذا نتوقع المصيبة قبل وقوعها ، ولما لاننتظر الأحسن والأجمل كى يكون هو النهاية المنطقية الرائعة لحياتنا ، هنالك دقت ساعة الخلاص فى دخيلته ، والرغبة فى الاختفاء ، والفرار الأبدى ولو إلى جهنم الحمراء ذاتها ، فلقد كان ما يهمه فى هذه اللحظة حقاً هو الخلاص من هذه الصورة البغيضة لحياته ومهما كان الثمن الذى سيدفعه باهظاً ، وتطلع إلى حفيظة حسناء الشاطئ السمراء فى هذه المرة كطوق نجاة وليس كأى شئ آخر .

●●●

(١٦)

عاشت ناردين لحظات عصيبة وأرقة فى حياتها ، لحظات جعلتها تفقد الكثير من المعانى الجميلة والقيم النبيلة للحياة ، بل فقدت معنى الحياة ذاتها ، فمنذ ظهور شفيق وجدى على سطح الأحداث فقدت معنى الأمان والراحة ، تلك الراحة وذلك الأمان اللذين وجدتهما فى الفترة الوجيزة التى أمضتها فى عشة عدنان فخرى ، ولهذا تاقت نفسها إلى البقاء إلى الأبد فى كنف بيت هذا الرجل الطيب الذى أحبها بصدق ، وأحبته هى أيضاً بصدق، وتذكرت ماقرأته ذات يوم عن تجربة أجراها علماء النفس ، حين جئ بعنزة ووضعوا أمامها طعاماً وشراباً وفيراً ولكن وضعوا ذئباً قريباً منها ، فيما أطلقوا أخرى آمنة مطمئنة بلاطعام أوشراب أللهم إلا ماأكلته من خشاش الأرض ، وبعد بضعة أيام وجدوا أن الأولى قد ضمرت وهزلت وبانت عليها مظاهر الضعف والموت، أما الأخرى فقد كبرت ونضجت وصارت أكثر صحة وانطلاقاً وإقبالاً على الحياة ، فخرجوا بنتيجة هائلة : وأن الأمان وراحة البال لاقيمة للمال والطعام والشراب بدونهما ، وأن العنزة التى خافت وفقدت الأمان فقدت معنى الحياة ، ومن يومها وناردين تشعر فى قرارة نفسها أنها تلك العنزة التى حُبست فى قفص ذهبى مع حيوان متوحش يدعى شفيق وجدى ، حيوان أنانى قذر بكل ماتحمله الكلمة من معنى ، جعلها تمقت الحياة وكل شئ، ولِمَ لا وقد جعلها القدر ضحية لهذا الرعديد منذ لحظة خروجها من إحدى دور الأيتام الراقية فى مصر الجديدة ، والذين خلعوا عليها ذلك الاسم

السينمائى ناردين صبرى لشدة جمالها وروعة مظهرها ، كانت لاتملك شيئاً من حطام الدنيا أللهم إلا رقتها وجمالها المبهر ، حتى دفتر التوفير الذى خرجت به من الدار لم يكن ليفى بمتطلبات حياتها ، ولهذا حين شاهدت شفيق لأول مرة فى محطة قطار مصر، تصورت أنه طوق النجاة الذى أرسله إليها القدر لنجدتها، وبخاصة أن شفيق حين رآها وهو فى طريق عودته إلى بلده الاسكندرية أعجبته بشدة وسُحر بجمالها الأخاذ ، وحين اقترب منها شيئاً فشيئاً وبلؤم صياد حاذق يضع قناعاً خادعاً على وجهه، وقعت الفريسة المسكينة بمنتهى السهولة فى شباكه المحكمة ، ثم سرعان ماظهر على حقيقته الوضيعة، ليس فقط بمعاملته المتناهية القسوة لها وإذلالها بكل الطرق، بل باستغلاله لها أسوأ استغلال بلانخوة أو رجولة ، فما كان أكثر اعتماده ولجوئه إلى جمالها وسحرها الفتان لإدارة أعماله المشبوهة ، وكم من ألف مرة وجه إليها اللكمات والشتائم المهينة والأوصاف البشعة وبمايكفى لأن تقتله آلاف المرات، ولن تفى مع ذلك حق نفسها فيما لاقته من أهوال لايحتملها بشر سوى، وأنها كانت لاتزيد عن كونها مجرد تمثال من الرمال لايلبث أن تذروه أيدى الرياح العاتية حين لايكون فى حاجة إليها، وحين تدعو الحاجة إلى وجودها يتوسل إليها بكل الوسائل الممكنة وغير الممكنة حتى يصل إلى بغيته التى ينشدها فى قرارة نفسه .

ولعل اكتشافه عشق عدنان فخرى الجنونى لها ، والذى كان لايعلم منذ البداية بحقيقة كونها زوجة شفيق وجدى أو غيره؛ دعاه لأن يستغل هذه المشاعر المضطرمة ليس فقط فى قلب عدنان بل فى قلب ناردين ذاتها ، والتى كانت تخفى ذلك تماماً، ربما حتى عن نفسها ، وإن

فضحتها عيناها واضطراب دقات قلبها كلما جاء ذكر اسم عدنان أمامها ، وحين فاجأها شفيق بحقيقة ماتكنه فى نفسها من مشاعر دافقة نحو عدنان ومادار بينهما فى الخفاء من لقاءات ، فلم يكن ذلك الانفعال الجنونى الذى أبداه فى حينها ، وتهديده النارى بقتلهما معاً ؛ غيرة وجنون الذكر على أنثاه ، بل وسيلة من وسائل الضغط الكاسحة التى تذرع بها شفيق أمامها ، كى يجعلها تقبل أن تكون الطُعم اللذيذ الذى يعيد من خلاله ملفه الهام المفقود ، والذى يتوهم خطأً أنه قد سقط فى يد عدنان فخرى .

فى البداية لم تبال ناردين بتهديده ووعيده ، وقاومت بكل الطرق، وصحيح أنها قد قبلت لعب مثل هذا الدور البغيض مضطرة مراراً وتكراراً ، إلا أن الأمر كان يختلف تماماً مع الشخص الوحيد والتى ودت من كل قلبها ألا تسقط فى نظره هو بالذات ، وألا يعرفها على حقيقتها، وأن تظل صورتها الجميلة الناصعة كما هى بلا أى شئ يفسدها ويضيع بهاءها فى ناظريه ، بل كان الأمر فى حقيقته أعمق وأكثر سرية من أن تبوح به حتى لنفسها ، وكانت تترك الأمر للأيام هى التى تكشف عنه بنفسها إن تركتها الأيام نفسها فى حالها ، ولكن حين أقسم لها شفيق بأغلظ الايمانات أنه لم يعد أمامه أى حل للخروج من هذه المحنة التى هو فيها غير القتل والتخلص نهائياً من عدنان فخرى الذى كشف ستره وسره ، وليس عدنان فقط ، بل أيضاً ماكان ربما يهم ناردين أكثر من أى شئ آخر فى الوجود ، ذلك الشئ الرهيب، الذى ظل سراً مطوياً إلى حين لايعلمه غير الله !.

جُنـت ناردين وهـى لاتتصـور أن تخلـو الحيـاة مـن هذيـن المَلَكـين الطاهريـن ، وتخلـو لشـيطان واحـد ، وتـراءت لهـا مئـات مـن الصـور التـى كانـت تعشـقها ، وحـين تطلعت إلـى صفحـة الأفـق البعيـدة ، لاحـت صـورة عدنـان أمـام ناظريهـا ، فهـزت رأسـها اسـتنكاراً والدمـوع تطفـر مـن عينيهـا، وكأنمـا تقـول كيـف تكـون الحيـاة مـن غيـر صاحـب مثـل هـذا القلـب البـرئ الطيـب ، الجـدول العـذب النقـى الرقـراق ، واحـة الأمـان والرحمـة الظليلـة التـى تحلـق أطيـار السـماء البديعـة فـى جنباتهـا ، وتتلهـى بنسـائمها المنعشـة ، تلـك الواحـة الطيبـة التـى انشـقت عنهـا فجـأة أرض الصحـراء الجدبـاء الحارقـة الشـمس التـى كانـت تعيـش فيهـا ، ليـس هـذا فحسـب ، فلقـد كانـت تصدقـه بكل جوارحهـا فـى أحاسيسـه الشـفافة التـى كان يبثهـا إياهـا ، وأنـه علـى يقـين تـام مـن كونهمـا ومنـذ مبـدإ الخليقـة كانـا كيـان واحـد ، ومالبثـا أن تفرقـا فـى رحمـين ، حواهمـا رحـم أكبـر ، باعـدت بينهمـا الأقـدار نعـم وفرقـت بينهمـا طويـلاً ، ولكـن هـذا لـم يمـت حقيقـة كـون كل منهمـا نصـف الآخـر المفقـود ، والنصـف الـذى لايصلـح أن يكـون نصفـاً لآخـر مـن غيـر نصفـه الـذى أخـذ منـه ، بـل لقـد كانـت أكثـر إيمانـاً منـه بهـذا الإحسـاس ، وكادت تـزف إليـه أكثـر مـن مـرة سـر الحقيقـة التـى تطويهـا نحـوه فـى نفسـها ، ولكـن شـيئاً مـا كان يمنعهـا ويغيـر سـياق حديثهـا معـه ، وكانـت تقـول لـه إذا التقتـه حلمـاً كان أو واقعـاً بلسـان عينيهـا الهدبـاء وقلبهـا الشـغوف اللهفـان ، لا بلسـان فمهـا القرمـزى المسـموع : «أحـس أننـى لاأكـون امـرأة بمعنـى الكلمـة إلا معـك ، لاأكـون واحـداً صحيحـاً ومخلوقـاً كامـلاً إلا إذا التقيتـك، وتلاصـق جسـدانا ، وذاب كل منـا فـى الآخـر ، فنعـود إلـى هيئتنـا الحقيقيـة التـى خلقنـا اللّه عليهـا منـذ الأزل وإلـى الأبـد».

وافقت ناردين صاغرة على طلب شفيق ، لم يكن أمامها حلاً بديلاً غير ذلك ينجى حبيبها من الموت المؤكد الذى يلوح به شيطان الوجود فى وجهها ، والذى انفرجت أساريره تماماً وراح ينتقى لها فستاناً فاضحاً من خزانة ملابسها ، وهو يصرح لها فى الوقت ذاته بخطته الدنيئة ، والتى ساعدته الصدفة المحضة فى تنفيذها على هذا النحو المبهر ، وحين ضربت الساحل السكندرى نوة غاضبة ، ولقد كانت الخطة بكل وضوح سلم واستلم ، ولكن رجلاً عملاقاً ، متسامياً عن الدنايا والسقوط فى بئر الخطيئة والخيانة ، كان من المحال أن يقترب منها ، وهو المؤمن النقى الطاهر الذى يملك فى نفسه أرق المشاعر وأصدقها ، لقد نامت ليلتها نومة الأبدية التى لايحب المرء أن يأتى بعدها فواق ، نامت مخدرة بالأحاسيس النبيلة ومفعمة بنشوة الطمئنينة وملائكة الحب القدسية حافة المكان من حواليها وفى كل جوانبه ، نامت طويلاً وعميقاً جداً لكونها كانت تصدقه ، وحين خرجت مع نور الصباح المطير مستورة بملاءة فراشه الشخصية لم تجد شفيقاً فى انتظارها فى الخارج ، كان قد طار طيران المجانين بسيارته الفارهة وهو يسب ويلعن كل شئ فى الحياة ، غير خاف عليه أن ناردين صبرى قد باتت مثله لم تعد لها حيلة غير الخلاص منه، وربما كانت تريد التخلص منه أكثر مما يريد هو وبخاصة بعد أن أصبح كارتاً قذراً محروقاً فى نظرها ، وأنها ربما تؤجل عملية التخلص منه إلى حين ، وحتى تبلغ غياتها منه والتى كان يعلمها شفيق تمام العلم ، بل كان يلاعبها دوماً بهذا الورقة السحرية والتى أخفاها جيداً ، ولكن حين فكر هو فى كيفية يتخلص بها منها ، أوصى نفسه

بالصبر والأناة معاً ، إذ كيف يتخلص من الأمل الوحيد المتبقى له فى الحياة والذى قد يمكنه من استرداد ملفه الخطير .

ناردين التى سارت لحظتها طويلاً بمحاذاة مياه الشط ، والمياه تغمر وتتحسر عن ساقيها ، والنوارس محدقة بها ، تنقر قدميها تارة وتزينها كعذراء بتول تارة أخرى وقد تحلقت فى دائرة من حول رأسها، وناردين بادية كمن خدرتها ليلتها الآمنة التى خلت بأروع الأحاسيس ، وأصدق المشاعر النبيلة ، ولايفيقها من هذا الخدر اللذيذ إلا نداءات داع الخلاص الأبدى من الشيطان الرجيم ، وربما فكرت لوهلة فى إلقاء نفسها فى اليم والتخلص من حياتها بكل مافيها من خير وشر، وحلو ومر ، بل الأقرب إلى النفس الخلاص لحظة اليأس القاتلة ، ومن صورتها التى من المؤكد أنها قد تشوهت إلى أبعد حد فى ناظرى عدنان ، بل من كل منغصات حياتها ، ولكن شيئاً ما واحداً ظل باقياً فى أعماق نفسها لم يمت البتة ، هو الذى أمسكها إلى حين عن التخلص من حياة ذلك القواد اللعين وحياتها هى نفسها !!؟.

وفى تلك الآونة كانت حفيظة إبنة المعلم رضوان قد تهيأت بكل مشاعرها وأحلامها للفرار سراً مع من رأت فيه هى الأخرى نصفها المفقود، فارس الخيال الذى أرسله الله إليها فجأة ، بعد أن كانت قد يئست تماماً من أن تسترد أنوثتها وحقها الطبيعى فى الحياة ، أن يكون لها حبيباً وبيتاً وأبناءً ، وأن تكون أماً ، يالروعة الكلمة حين تمتمت بها على شفتيها، فمابالها تكون إن عاشتها واقعاً ملموساً، عاشتها بين أولادها وبناتها ومع من هفا إليه قلبها ، بعيداً عن مرساة الشيطان التى يؤمها كل يوم وليلة

مئات من الحيارى الحالمين بالخلاص ، والمعربدين السكارى، طلاب المزاج والمتعة الحرام ، فكيف لاتستمسك بلحظة الخلاص التى تمنتها طويلاً وقد صارت فى قبضة يدها ، لحظة رتبت لها طويلاً وليس فى أربع وعشرين ساعة كما خيل لعدنان فخرى ، فكم من مرة التقته بالعناق والقبلات: أيا ساكنى الأزلى الأبدى، من قال أن الأمس القريب كان التقاؤنا فيه ، التقاؤنا خارج حصن الزمن ، وربما قبل أن نولد ، يالروعة الأحاسيس التى تفجرت كينابيع من الأضواء الشاعرية الملونة بألوان لم يعرفها بشر من قبل، ألوان عجيبة لاريب أنها قد جاءت من جنة الخلد، وحين نظرت فى مرآة خزانة ملابسها الخشبية العتيقة ألفت نفسها واحدة أخرى غير التى كانت تعرفها تماماً ، واحدة من طبقة أولاد الذوات المثقفات اللائى تربين على الشعر وأدب الفروسية والموسيقى والخيال «أيفعل الحب بالانسان كل هذا ؟ ، أم أن هذا العدنان الملائكى يملك عصا سحرية حولتنى من حيوانة حقيرة لاقيمة لها ولاوزن إلى إنسانة بكل هذه الرقة والجمال الشاعرى!؟».

آنذاك وهى تعيش مع نفسها حالة من الهيام السرمدى ، تسلل إلى أذنيها صوت المذيع عبر فجوات شيش النافذة المتهالك ، فعلمت من مذيع النشرة بوجود حالة من الاضطراب الشديد فى كل أرجاء البلاد، فانقبض قلبها وهى تخشى كل الخشية أن يتبدد حلمها سدى، وتضيع معه كل ترتيباتها أدراج الرياح ، وحين نظرت من وراء النافذة على المرساة التى غطاها الليل بسدوله الحريرية، رأت أشباحاً كثيرة تتحرك ناحية المركب الكبيرة ، التى كانت ستقلها فى الفجر مع عدنان فخرى ، فنفخت بضيق جم، حيث لم تمثل لها الصورة الجلية أمامها أى بادرة خير على الإطلاق، فمع هذا الزحام الشديد وتوافد الناس

بجنون على مراسى الهجرة غير الشرعية المجهولة ؛ سيغالى فى الأسعار التابع الكلب « تحسين « الشهير بالبقف ، الذى صار والدها يصدره فى واجهة الأحداث فى الآونة الأخيرة ، فى حين يختفى هو من الصورة تماماً ، وذلك تحسباً لأى غزوة فجائية من غزوات الحكومة للمرساة لمكافحة مراكب الهجرة غير الشرعية التى تستتر فى ظلمات البحر ، وكانت حفيظة قد رتبت كل شئ فى الخفاء هى أيضاً ومن غير علم أبيها مع تحسين البقف ، لكى ييسر لها أمر رحيلها مع عدنان فى صمت تام لايشعر به أى أحد على الإطلاق ولا المعلم والدها نفسه ، وحين خرجت متسللة من بيتها بحقيبة صغيرة لملمت فيها بالكاد حوائجها الهامة ، لم تنس أن تعود إلى ملابسها الشعبية التى تعودت عليها منذ صباها ، لاتلك الملابس الضيقة التى كانت تخنق جسدها المكتنز ، والتى لم تعجب عدنان، والذى نصحها بضرورة العودة إلى أصلها ، لا أن تبدو هكذا كدمية الجيلى المتأرجحة ، حفيظة ساعتها أحست أن هذه لحظة اهتمام نادرة فى حياتها تمر بها لأول مرة كأنثى من روح ومشاعر وليس من لحم ودم كما اعتادت ، فقبلت فى التو واللحظة بكلامه ، لاكونه مجرد وجهة نظر أو نصيحة ، بل أمراً يجب أن يطاع فوراً، لِمَ لا وقد بات أمر سيدها ورضاه عليها هو شغلها الشاغل فى الحياة الأولى والآخرة .

توجهت مسرعة إلى الشاطئ فى جنح الظلام ، ولم تكن الليلة قمرية كما كان مرتباً ، وسارت حذرة إلى حيث أخفيت المركب بين أجمة من الأشجار الكثيفة القريبة من البحر ، وقد غطيت بصفائح من الصاج الخردة إمعاناً فى التمويه ، ثم نادت بصوت خفيض على

البقف وهى تتلفت حواليها بذات الحيطة ، فخرج لها مسرعاً من وراء الساتر الذى كان يلوذ به ، وشدها من ذراعها وهو يقول لها بغضب جم :

- اللّه يخرب بيتك ياحفيظة ، أعين وآذان الحكومة ترصد كل حركة وكل دبة نملة قريبة من شاطئ مرساة رضوان.

- الزحام الشديد أقلقنى ، هل مازلت على وعدك لى ؟.

نظر البقف إليها بعينيه الضيقتين للغاية ، وقال وهو يمسح كرشه بصفحة يده وقد بدا أنه سيدخل معها فى مساومة دامية .

- لندع الأمر للظروف ياحلوة .

جذبته حفيظة من تلابيبه بحركة خاطفة ، وقالت وهى تغرز سن مطواتها الحامية فى جانب أضلع قفصه الصدرى :

- والمرسى أبو العباس أشرحك يابقف .

- أبوك اختفى وألقى بى فى وجه الحكومة ، وحين أحمل روحى على كف يدى ، فلابد أن تكون كف يدى الأخرى ملآنة بالذهب .

- اختصر ، ماذا تقصد بالضبط ؟.

- المرساة ممتلئة عن آخرها بخلق اللّه ، والمركب صغيرة ومتينة كما ترين ، ولسوف يتقاتلون بعد الثورة من أجل الفرار من العذاب والضنا ، أو يخلصون أنفسهم بالأموال.

- قلت اختصر.

- المركب ياحلوة لأعلى سعر ، وبالنسبة لكِ بصفة خاصة لاتأمنى دائماً لمن يقول لكِ سرك فى بئر .

بسن المطواة أحدثت له جرحاً غائراً فى وجهه وهى تقول له بحدة نمرة غير مروضة :

- أنت أيضاً سرك عند الحكومة ، لاتتحدى من لم يعد أمامها غير هدم المعبد على رأسها ورأس الجميع ، ولكنى سأرضيك على أية حال يابقف يابن الـ ....

قالتها وهى تدفعه بشدة إلى الوراء ، دفعة أسقطته أرضاً وقد غرق فى بحر من الدماء ، ثم هرولت مسرعة بقدمى قلبها الطيارتين إلى المركب التى يختبئ فى داخلها حبيبها عدنان فخرى ، ولكنها فوجئت بالمركب خالية تماماً ، ولا أثر إطلاقاً لعدنان أو حتى لحقيبته التى جاء بها ، وتذكرت كلمته الأخيرة لها وهو يتطلع طويلاً إلى النوارس السارحة فوق مياه البحر الزرقاء :

- أنا رحال مثل هذه النوارس الهائمة .

كان مافهمته حفيظة فى وقتها على أنه خير ، ويصب فى صالحها، وأن عدنان قد قبل بالهجرة الأبدية معها إلى إيطاليا على البر الآخر الغربى ، ولكنها لم تتصور أن كلمته كانت للوداع ، ولكن وداع مَنْ ؟ ، وداعها هى أم وداع الحياة بأسرها !!.

انبعثت من كنف الليل البهيم صرخة طويلة مدمدمة :

- قتيل .

فصرخت هى بدورها وكأنها رجع الصدى :

- قتيل .

بعدها جرت حفيظة مهرولة كالمجنونة إلى حيث ازدحم الناس بالمئات حول جثة ووريت التراب فى ركن منزو من المرساة، وحين بدأ الجمع فى الكشف عن وجه القتيل والذى أهيل عليه تراب الليل ، وهو يحتضن بذراعيه حقيبة أغراضه الخاصة ، استدارت بسرعة الريح صارخة صرخة رجت سماء الوجود على اتساعها رجاً عنيفاً :

- لا .

●●●

(١٧)

حين عاد عدنان إلى مكتبه فى المؤسسة التى تغيب عنها لعدة أيام وجد أكثر من مفاجأة فى انتظاره ، أولها أن الريس عويضة النقاش قد مات ، مات وهو غاضب عليه ، وثانيها أن مُحضراً من المحكمة قد جاء أثناء غيبته لكى يسلمه دعوى لحضور دعوى للخلع أقامتها ضده زوجته بهية منصور فى المحكمة بعد أسبوعين، ثالث هذه المفاجآت حدثت له أثناء وجوده ملقياً برأسه على سطح المكتب وشلال جارف من الدموع محبوس فى مآق عينيه الذابلتين من فرط الأرق والإجهاد اللذين أصاباه فى أيام التشرد التى خلت .

تقدم شفيق وجدى وهم وكآبة الدنيا مرسومان على صفحة وجهه المخدد ، وجلس بالقرب منه بلامقدمات ودخل فى الموضوع مباشرة قائلاً بنبرة محسوب حسابها بكل تأكيد ، ولئلا يطلع أحد على سره الكبير :

- كلنا بشر ، وكلنا عرضة للصواب وللخطأ ، اللّٰه خلق أنفسنا ضعيفة ، ويسامحنا أن تبنا وأنبنا ، أفلانسامح نحن معشر البشر بعضنا البعض .

أشعل سيجارة وراح يدخنها بعصبية وهو يكمل حديثه قائلاً :

- ناردين زوجتى مخلوق غبى ، تتصور نفسها فوق البشر، لاتريد أن تغفر لى زلتى التى أوقعنى فيها أولاد الحرام ، سوف أطلقها

لامحالة ، ولن أخيرها بين أمرين كما يفعل كل الناس ، لأننى صراحة لم أعد أطيقها ، بالأمس اضطرتنى إلى ....

لم يكمل جملته ، راح يلوك مؤخرة السيجارة ويعض عليها بعصبية مفرطة ، بينما اعتدل عدنان فى جلسته وقد بانت فى وجهه كل أمارات الاهتمام وهو ينظر مبهور العينين إلى شفيق، الذى قال وهو يرمى بالسيجارة تحت قدمه ، ويضرب بيده الأخرى صفحة المكتب :

- قتلتها .

- قتلتها !!؟.

قالها عدنان كالمجنون المتنمر الذى أوشك أن يهجم على فريسته ، وقد هب واقفاً من وراء مكتبه ، ولكن شفيق أمسكه من يده كى يعيده بهدوء إلى مقعده قائلاً :

- لم تمت ، لم تمت ، ناردين مجنونة وتدفعنى كذلك إلى الجنون، ولاأدرى إلام سيصل إليه الحال بيننا فى المرة القادمة ، أنت تحبها ، وهى أيضاً تحبك ، وأنا أريد أن أنسحب من بينكما من غير فضائح أو شوشرة ، أخطأت وأريد أن أتوب ، أخطأت وسوف أترك ليس المؤسسة وحدها فحسب ، بل مصر كلها ، سوف أهاجر إلى شقيقى الذى يحيا فى قبرص ، عدنان أخى ، لنسوى هذا الأمر بيننا فى أسرع وقت ممكن .

شرد عدنان طويلاً فى الكلام الذى قاله شفيق ، لم يكن يملك رداً يحسم به الموقف سواء بالسلب أو بالإيجاب ، لعبة لعبها فى بادئ الأمر،

وهاهـى حياة ناردين ورقبتها تحت نصل سكين شفيق وجدى الحام ، ناردين التـى يحس أنـه لـم يعد فقـط مـن أجلها ، بـل وجد أصـلاً فـى الحيـاة مـن أجلهـا ، فهـل يتركهـا أسـيرة قبضـة يـد هـذا الكلـب الدنـئ شـفيق وجـدى ، وهـل كان سـيمنحه ذلـك الملـف الخطيـر لـوكان قـد وقـع فـى يديـه حقـاً ، بـل هـل سـيصدقه شـفيق أن أخبـره أن الأمـر برمتـه قـد بـدأ بمحاولـة البحـث عـن بيانـات فتـاة أعجـب بهـا ولا أكثـر ولا أقـل ، ثـم تطـور بمحـض لعبـة الفضـول، والرغبـة الدفينـة فـى كشـف سـره الخطيـر ليـس أكثـر ، ذلـك السـر الـذى لايعلـم كنهـه إلا اللّه ، كان ضـد مَـنْ ، وسـيؤذى بـه مَـنْ ؟ .

– الوقـت سـيف مصلـت علـى رقابنـا أجمعـين ، مـن المؤكـد انـك قـد أخـذت الملـف علـى فلاشـتك الشـخصية ، هنـاك مـن رآك تجلـس إلـى جهـازى أكثـر مـن مـرة ، أنـا علـى يقـين مـن أن مايخصنـى عنـدك ، ومايخصـك عنـدى ، يمكنـك أن تزورنـا الليلـة فـى المكان الـذى أخفيـت فيـه ناردين ، ولننـه كل شـئ علـى خيـر مايـرام ، أو لايحاسـبنى أحـد بعـد ذلـك علـى عاقبـة غضبـى .

انصـرف شـفيق مـن المكان فـى لمح البصـر ، ولـم تُمـح نظـرة الذهـول مـن عيني عدنـان حتـى بعـد أن انطلـق خارجـاً فـى الطرقـات هائمـاً علـى وجهـه ، يفتـش عنهـا فـى كل مـكان ، ويسـأل عنهـا مثـل نـزار قبانـى مـوج البحـر وفيـروز الشـطآن ، وحـين اهتـدى أخيـراً مـع لحظـة الغـروب إلـى فكـرة الاتصـال بهـا هاتفيـاً ، صرخـت فيـه أن يخـرج مـن حياتهـا ، وأن يدعـه مـن الخيـالات والأوهـام التـى أغرقتـه لأم رأسـه ، وأنهـا امـرأة متزوجـة ، فلاهـى خلقـت لـه ولاهـو خلـق مـن أجلهـا ، الأمـر كلـه محـض أسـطورة

عقل مريض تعلق بالغروب ونوارس البحر الشاردة فى علياء السماء ، لست من أفكر فيه ولن يكون أبداً ، حتى نفسى لاأفكر فيها بالمرة ، أنا أفكر فيما هو أبعد من ذلك بكثير ، أنت لا تفهم أى شئ ، لأنك لاحيلة لك فى أى شئ من أجلى أو من أجل نفسك ، ابتعد ، ابتعد .

كان صراخها جنونياً ، مثل اللحظة المحدقة به وهو لايدرى إلى أى اتجاه يمكنه أن يمضى ، مات الريس عويضة غاضباً عليه، وبيته القديم فى الابراهيمية يتوارى أمام عينيه كالشبح الجاثن عن بعد فى فوق مشهد الغروب السكندرى الدميم ، بعد أن أعلنتها زوجته بهية صراحة أمام العالم كله أنها لاتريده ، وأنها تمقته من كل قلبها ، حتى أبنائه أقفلوا هواتفهم المحمولة فى وجهه ، العالم كله تجمد من حوله ، وبدا بلاحركة أو حياة أو معنى .

كانت الليلة لسوء الحظ قمرية ، وموجة البحر عالية ، والمد والجزر يعملان العجب كله فى المراكب الراسية على شط البحر السكندرى ، فكر ربان المركب أكثر من مرة فى الالتفاف عائداً بحمولته إلى البر ولكن الناس هتفوا به وترجوه أن يستمر فى سبيله، الذهاب إلى جهنم الحمراء أرحم بكثير من الموت الذى نحن فيه .

كانت حفيظة جالسة محشورة فى زاوية المركب الجانبية بين أكداس من اللحم البشرى ، وهى تتطلع إليه ، غير مصدقة عينيها أن حبيبها قد عاد إليها ، وأنه يجلس على بعد عدة أشبار منها ، وأنها لو مدت يدها قليلاً للامسته ، فى البداية تصورت أنه هو قتيل المرساة الذى وجد مدفوناً مع حقيبته فى رمال الشاطئ ، وبكته كما لم تبك

امرأة على مر التاريخ رجلاً من قبل ، وحين عاد إليها بقامته الفارعة صرخت كالمجنونة ، واحتضنته بشدة كما لوكان طفلها ، وراحت تقبله وتلثم جبينه ويديه وقدميه إن طالت، وهى تقول له : مادمت ياسيدى وحبيبى قد عدت إلىّ برغبتك فلامفر من المصير الذى كتبه اللّه لنا، ولنمض بعيداً إلى هناك، إلى الناحية الأخرى المقابلة ، لن نبعد كثيراً عن بلدنا، ولكننا سنبعد بكل تأكيد عن منغصات الحياة وهمومها بأكثر بكثير مما تتصور ، وسنحيا كحبيبين إلى الأبد .

ظلت تتحدث وتتحدث ، وكانت العبارة الوحيدة التى قالها لها :

- عزيزتى ، لاتتعجلينى ، فمازال الوقت مبكراً للحديث عن الحب.

كانت حفيظة قد فهمت ضمناً مغزى عبارته ، وأنه صريحاً معها إلى أقصى حد ممكن ، وأن قبوله مغامرة الهجرة الدامية لايعنى بالضرورة أنه يبادلها نفس مشاعرها الفياضة ، وفى الحقيقة لم تَفُت عبارته الصادمة تلك فى عضد الأحاسيس الجياشة التى تطويها من أجله تحت جناحيها ، ولاحتى منديل فتاته الحريرى الذى تعرف أنه قد دسه فى قلبه إلى الأبد ، بل ظلت تتمتم هامسة لنفسها أكثر من كونها تحدثه هو :

- على الأقل لاتحرم فؤادى من حبك .

كان جميع من فى القارب آنذاك فى حالة من الهلع الدائم، وقد كشفهم قمر السماء الليمونى اللون ، وهاجت أمواج البحر من تحتهم، وظنوا مع مرور الوقت وتأزم الموقف أكثر فأكثر أنهم هلكى لامحالة، كان عدنان الشارد قد أولى ظهره للجهة التى يتجهون إليها ، وأدام النظر

منذ لحظة ركوبه إلى مدينة الاسكندرية المتلألئة بالأضواء الساطعة وهى تبعد شيئاً فشيئاً ، تلك المدينة التى كتب عليه أن يهجرها وهو فى غفلة عن وعيه ، وقنوط من حياته ، ويئس من القادم، ففيها ولد وكبر وترعرع وفتح بيتاً ، وكون عائلة ، وانجب الأبناء فلذات كبده المحترق كمداً، وامتلك وظيفة يحسده الكثيرون عليها ، وأيضاً فيها حبيبته وذكرياته السعيدة والأليمة ، ولكن هاهى ذى الحياة قد أدارت له ظهرها ، وأرته الوجه العبوس الذى من المحال أن يطيقه أحد ، وسحبت البساط من تحت قدميه تماماً وتركته يهوى ويتردى إلى الحضيض ، بل قطعت يد كل من حاول أن يسانده وينتشله من وهدة الضياع ، أللهم إلا تلك السمراء الحسناء بنت البلد التى جعلت من خدها مداساً له ، وسلمته قياد كل شئ فى نفسها ، وهو الذى لم يهن عليه أن يبلل ريقها ولو بكلمة إطراء واحدة ، وحتى الحوار العادى بينهما وصل إلى حد الجمود ، فلقد كان كل حواره الداخلى مع غيرها ، ولكنها لم تبال بنفسها ، وقدمت نفسه عليها ، وكان حرياً به أن يلتمس لها أعذار الوقوع السريع فى هاوية الحب والعشق ، وأن يكون أكثر الناس إحساساً بها ؛ وهو من عاش من قبل ولم يزل مثل هذه القصة بحذافيرها ، وربما أكثر بكثير من خلال تجربته المريرة مع ناردين ، بل لتفوقه حفيظة فى درس الحب وفنون العاطفة مع تخليها من أجله عن حياتها ، فى الوقت الذى يخاطر فيه بكل شئ من أجل حياته هو ، هذه الخاطرة الصادمة جعلته يشمئز من نفسه وهو يتساءل إلى الأفق البعيد : «أأكون قد تخليت عن مبادئى وبيتى وأبنائى وحبيبتى حقاً من أجل نفسى؟ ، وهل أصابت الأربعينى لوثة

الأنـا، وبواكيـر المراهقـة المتأخـرة بالجـرى واللهـاث وراء أوربـا السـاحرة وشـقروات أوربـا الجميـلات، وأفأكون قـد تخليـت عـن بلـدى وتركتهـا فـى أيدٍ قـذرة ملوثـة كيـد شـفيق وجـدى ، والـذى لايعلـم أحـداً غيـر اللّه مـاذا يدبـر ومـاذا يخطـط فـى الخفـاء ؟!» .

وحين أحسـت حفيظـة بدوامـة الهمـوم التـى ركبـت رأس حبيبهـا دعتـه للجلـوس بجانبهـا ، وأن يولـى الاسـكندرية ظهـره بعـد أن تـوارت مختفيـة وراء سُدَف الأفـق البعيـد ، فانصـاع لهـا ، وجلـس قريبـاً منهـا، فدنـت منـه حتـى التصقـت بـه تمامـاً وقالـت هامسـة وهـى تمـد إليـه يدهـا بالطعـام :

- لامؤاخـذة ، البـرد شـديد جـداً ، كُل ياقلبـى ، القلـق والفكـر اللّه يلعنـه لـم يتـركاك تـأكل شـيئاً اليـوم .

كان عدنـان جائعـاً بالفعـل ، كمـا كان راغبـاً فـى النـوم بشـدة ، فجعـل يـأكل وهـو مغمـض العينـين ، فيمـا تناثـرت مـع صـوت الريـح وأمـواج البحـر ومـوتـور المركـب الدائـر إلـى مسـمعيه بعـض العبـارات الصاخبـة التـى أطلقهـا الشـباب المسـافر :

- نحـن الآن فـى المياه الدوليـة، ولكـن لاتضيئـوا هواتفكـم المحمولـة، اخفـوا الأشـياء اللامعـة، احـذروا أضـواء الفنـارات المنصوبـة علـى سـوارى السـفن الخاطفـة حتـى لاننكشـف .

- أشـعر أننـا منقـادون إلـى عصابـات الفـك والتركيـب ، فلسـنا إلا قطـع غيـار ، كُلـى وأكبـاد وقرنيـات ودمـاء و..........

فقاطعه صوت آخر بضحكة مجلجلة وهو يقول :

- فـأل اللّه ولافألـك ، لاتبـدد حلمـى ، فيـرارى وكمـارو ، ثـراء وشـقراء وخيـلاء .

- أخشى أن تكون الشقراء التى فى انتظارك من الانتربول.

- الانتربول ياله من كابوس مزعج ، هيه .

تنهد صاحب الصوت تنهيدة عميقة وهو يكمل حديثه بنبرة أسى قائلاً :

- أمى باعت كل عفش الدار حتى تجمع لى النقود التى تمكننى من المجئ معكم إلى إيطاليا البلد الصناعى الكبير، الحياة أصبحت مستحيلة ، سنوات طويلة قضيتها فى الكفاح حتى أصبحت مهندساً ، وجرى العمر بى ، روتين وبيروقراطية ولاوظائف لازواج ولااحترام لآدمية إنسان .

- ومن سمعك ، قالوا لى : عُد ، سوف تموت فى قلب البحر ، قلت لهم : أموت وأنا أحاول مصارعة الحياة ، أفضل من أن أمت فى فراشى .

- عمر الشريف قالها فى فيلم « فى بيتنا رجل « وهو ينظر إلى ذات البحر : ترى أيهما أكرم للأنسان ، أن يحيا مغترباً أم يموت حراً فى بلده ؟ ، أنا غيره لست وطنياً متزمتاً ، ووطنى الذى فيه مصلحتى و ....

فقاطعه صوت أحد الشباب من بعيد ، كان جالساً على مايبدو فى آخر ركن بالمركب :

- ولكنه ياأخ فضل الموت ثمناً للحرية ، وبقى فى بلده .

فقال صاحب الصوت الأول بحمقة بالغة :

- بقى ، لأنه كانت لديه قضية ، واستعمار غاشم لن يزول إذا فر الجميع بجلده من ميدان الكفاح الوطنى ، أما الاستعمار الذى نعانى منه نحن فلايمكن مواجهته لأننا حينها سنكون فى مواجهة أنفسنا، وقتلنا أنفسنا بأنفسنا ، فقر وتخلف ومحسوبيات ورشاوى ومصالح وجشع وأنانية ، معادلة صعبة لم أجد لها حلاً غير الهروب ، لأن الإنسان خلق كى يحيا دائماً ولكى يمت مرة واحدة فقط ، وليس مئات المرات فى اللحظة الواحدة .

صرخ صارخ لحظتها مع تناوب البعض أطراف الحديث المغرق فى الألم والنقمة وقال بنبرة مرحة :

- مهلاً مهلاً أيها المتشائمون ، أوجعتم بطوننا مرر الله حياتكم .

ثم استرسل فى حديثه هاتفاً بنبرة دعائية وهو يقول :

- أيها السادة الأفاضل لاتبتئسوا ولاتحزنوا ، فرصة عظيمة بالتجمع الخامس ، شقة ستون متراً تحت الأرض ، تطل على منظر رائع باثنين مليون جنيهاً فقط ، مقابر للصفوة بأرقى أحياء القاهرة الجديدة ومصر الجديدة بمليون ونصف جنيهاً فقط ، ماذا تنتظرون فرصة عظيمة وحياة كريمة ، وميتة كريمة أيضاً هاهاها .

حملت الريح أصوات ضحكاتهم المجلجلة كآخر شئ كان عدنان واعياً له ، وقد غلب عليه النوم والطعام محشوراً فى فمه، فمدت حفيظة بسرعة أطراف أصابع يدها وأخرجت الطعام برفق من فمه وهى تقول :

- اسم الله عليك .

وحين أفاق عدنان من نومه وجد كارثة فى انتظاره ، بل فى انتظار جميع من على متن المركب ، كان ضوء الصباح الخافت قد بدأ فى التسلل إلى صفحة البحر ، وتلاشى قمر الليل ، وبدا ربان المركب ومساعدوه وهو يصرخ فى الجموع بضرورة تقليل حمولة المركب التى دخلت فى منطقة مياه كثيفة ، وأنه لامفر من نزول ثلاثة أو اثنين على أقل تقدير من المركب حتى لاتغرق ، فقال أحد الشباب الثائر بنبرة لم تخل من تهريج :

- هل نحن فى اتوبيس سيدى بشر يامعتوه !؟، حتى ينزل من بيننا اثنين أو ثلاث من الركاب هكذا بسهولة ، وفى قلب المياه لا الشارع ! .

- ليس أمامنا غير هذا الحل ، اختاروا أنتم من بينكم من يغادر المركب فوراً .

وفى التو واللحظة ومع التهاب الموقف ، نظر بعض شباب الركاب نحو بعضهم البعض وقد أضمروا شيئاً ما فى سرائرهم ، فأشهر الربان ومن معه أسلحتهم ، وكأنما قد اطلعوا على مايدور فى خفايا أنفس هؤلاء الشبان، الذين أطلقوا شرراً رهيباً من أعينهم الملأى بالغيظ والقنوط، وبدوا وكأنهم قد عقدوا العزم على المبادئة بالغدر قبل أن يغدر بهم ، وإلقاء الربان ومن معه من المركب فى قلب المياه الباردة، كان الموقف قد أصبح جد عصيباً للغاية مع إصرار الربان على قراره المفاجئ للجميع ، واندفاع أحد الشبان الذى قفز كالفهد وخطف مسدساً من يد أحد المساعدين وهو يصوبه ناحية الربان قائلاً :

- مادام الموت قد كتب على بعضنا ، فلن يبقى أحداً حياً .

وبذات السرعة الخاطفة قفزت حفيظة وراء مساعد آخر وغرزت مطواتها الحامية فى كلوته ، وثنت ذراعه بيدها الأخرى وراء ظهره من الخلف ، وهى تقول بحدة مفرطة للربان وقد عزمت على إلقاء مساعده فى الماء :

- بل سنضحى بك وبمن معك أيها البقف الآخر .

كان عدنان مذهولاً للغاية ، ويبدو عاجزاً عن فعل أى شئ ، ولكن حين رأى امرأة شجاعة مثل حفيظة وقد تدثرت بكل معانى التضحية والفداء من أجل الآخرين ، أحس بضرورة التحرك من أجل الخروج من هذا المأزق العصيب ، ولكن بحكمته التى اعتاد عليها منذ صباه ، وتقدم من الربان متحدياً أوامره فى أن يلزم مكانه وهو يقول بنبرة من يخاطب الجميع :

- اخوتاه مهلاً مهلاً ، لسنا فى حاجة لإلقاء بعضنا البعض فى البحر ، وحمولة المركب يمكن تخفيفها بالقاء كل حقائبنا ومتعلقاتنا الشخصية ، وهذا أفضل من أن نقتل الناس .

- ياأستاذ هم متسرعون أغبياء ، ومن قال أننى كنت سألقى أحداً فى الماء ، كنت أريد أن ينزل البعض فى قوارب النجاة الصغيرة ويلحقوا بنا .

قال الربان ذلك ، فرد عدنان بنبرة أكثر احتجاجاً :

- هذا حل جنونى ، هؤلاء الشباب ولاأنا نعرف شيئاً عن الخوض فى غمار البحار الكبرى أو حتى الصغرى ، قلت لنلق بأغراضنا إلى الجحيم ولنبق على أرواح الناس ، أو جِد لنا حلاً آخر؟.

صمت الربان طويلاً وهو يديم النظر إلى ناحية ما وقال وهو يهرش فى شعر رأسه بطرف فوهة مسدسه :

- لدى حل آخر ، ولكن سيكلفكم كل ماتحملونه فى جيوبكم.

فصرخ أحد الشباب بجنون عصبى وهو يكاد يثب كوحش كاسر على ربان المركب قائلاً :

- مبتز حقير ، أنا الآن فهمت لعبتك القذرة .

فنظر عدنان ناحية الشاب الصغير وهو يرجوه أن يتماسك حتى يدلى الربان بدلوه ويكشف كل مايضمره فى نفسه ، والذى قال :

- إن صمدنا فى البحر سوف تقابلنا ساعة العصارى إحدى السفن السياحية الكبرى التابعة للإتحاد الأوربى ، سوف أتفاهم مع من يقدرنى الله على الوصول إليه ، كى يفتح لكم فى السر قلب السفينة التحتانى .

ضحك الربان ضحكة مجلجلة وهو يقول :

- سوف تبقون يوماً أو يومان ، اسبوعاً أو اسبوعان كالجرذان المذعورة حقاً ، ولكنكم ستصلون إلى غايتكم فى النهاية ، اطمئنوا، وهذا الهدف العظيم يقتضى بطبيعة الحال مبلغاً ضخماً إضافياً من المال .

نظـر الجميـع آنـذاك إلـى بعضهـم البعـض بحيـرة بالغـة ، ثـم إلـى الربـان الـذى استرسـل قائـلاً :

- عـلاوة علـى ذلـك ، هـذه السـفينة سـوف تضمـن لكـم دخولاً سـهلاً للأراضـى الإيطاليـة .

وقبـل أن يفـه أحـداً بكلمـة رفـع عدنـان يـده أن صمتـاً للجميـع ، والـذى تقـدم مـن الربـان حتـى وقـف قبالتـه مباشـرة وقـال لـه بنبـرة حـادة ولكـن فيمـا يشـبه الحديـث الـذى لايجـب أن يخـرج بعيـداً عـن نطاقهمـا همـا الاثنـين فقـط :

- أنـت قرصـان منـاور مـن الدرجـة الأولـى ، والأمـر كلـه كان محـض لعبـة لعبتهـا منـذ البدايـة حتـى تصـل إلـى هـذه النقطـة ، التـى تجردنـا فيهـا جميعـاً مـن كل مانملكـه ، ولكـن ثـق أن هـؤلاء البؤسـاء الذيـن لايملكـون شـيئاً غيـر حياتهـم ، لـن يتأخـروا عـن دفـع أرواحهـم ثمنـاً إذا مـا سـاومهم مجـرم حقيـر مثلـك علـى أحلامهـم التـى جـاءوا بهـا مـن مصـر.

- لا أفهم ماذا تقصد بالضبط .

- لـن يدفـع لـك أحـد مزيـداً مـن المـال ، المعادلـة متسـاوية ، اثنـان منـا أحكمـا سـيطرتهما تمامـاً علـى اثنـين منكمـا ، ولـم يبـق غيـرك ورجـل آخـر يقـف عنـد طـرف المركـب ، مهمـا قتـل مـن الـركاب فسـوف يهجـم الباقـون عليـه ويردونـه قتيـلاً.

- هـه وماذا عنـى ؟.

تقدم عدنان أكثر فأكثر منه ، أمسك بفوهة المسدس الذى يمسك به الربان ، ودسها فى بطنه وقال وقد أصبح لصيقاً به تماماً وهو يدفعه بصورة مفاجئة إلى حافة المركب :

- رصاصتك لن تقتل غيرى ، ولسوف نمت معاً فى قلب هذه المياه الباردة .

وبحركة مفاجئة أخرى سريعة خطف عدنان المسدس من يد الرجل الآخر الواقف عن كثب ، وقد كاد أن يلقى به فى اليم ، ثم قال موجهاً حديثة للربان :

- ارض أيها الانتهازى الوقح بما أخذت ، ولنرض نحن أيضاً بما قسمه اللّه لنا .

هنالك استسلم الربان للأمر الواقع ، والذى وجد سلاحاً مشهراً فى وجهه فى مقابل سلاحه المدسوس فى بطن عدنان ، وأطلقت حفيظة زغرودة طويلة تجاوب معها صدى البحر بأهازيج النشوة الغامرة ، وسادت موجة من الصخب والفرحة العارمة بين الراكبين، أللهم إلا عدنان الذى وقف ساكناً وهو ينظر طويلاً إلى المياه ، وحيث ارتسمت صورة ناردين حبيبته الفاتنة على صفحتها الزرقاء ، ثم تزاحمت الصور وامتزجت ببعضها البعض من يحبهم ومن تمنى أن يحبهم ، أسرته وأقاربه وأصدقاؤه وجل من عرفهم فى حياته ، بل لاح له أيضاً شفيق وجدى بصورته الجافة الوقحة الصارمة ، وبلده الحبيب الثغر الباسم ، ولوهلة ما فكر عدنان أن يقفز طواعية فى قلب الماء من غير تهديد أو وعيد ، لا لكى يخفف الحمل عن المركب ، بل عن

نفسه وعن بلده ، وليسبح بكل طاقته وقواه حتى الرمق الأخير كى يبلغ الشاطئ الحبيب الذى فارقه كالمُغيب ، فقد أحس ليس بصورة مفاجئة، بل منذ لحظة قبوله ركوب المركب ومغادرة شط الأسكندرية أنه قد أخطأ خطأً عظيماً فى حق نفسه ، وحق من يحبهم ، وحق بلده .

كان الندم ، ولوم الذات ، قد تحولا إلى مايشبه الضرورة القصوى بجلد الذات فعلياً وليس اسمياً ، ولكونه كان عاجزاً عن الوقوف عرياناً أمام الناس فى المركب ثم البدء فى معاقبة الذات وجلدها بالسوط السودانى المغلى فى الزيت ، فيبرؤ ألم نفسه إلى حد ما من الخطيئة التى ارتكبها ، فإنه قد انطوى على نفسه مكتئباً محطماً ، فلقد كان فى لحظة جلد داخلى بخراطيم النار الغاضبة ، وكان لحظة بعد لحظة يهذل وتخور قواه ، وحفيظة تحثه على الصبر والثبات وعدم الاستسلام، وأن الأمور كلها فى ايطاليا عند خالها ربيع سوف تصير على مايرام ، وراحت تمنيه بالعودة إلى جنة عدن التى خرجا منها ذات يوم وكأنهما آدم وحواء، وأن شيئاً فى مصر لم يكن يستحق البقاء ، وأنه لايوجد أى داع لهاتين الهالتين السوداوين اللتين التفتا حوالين عينيه من فرط الحزن والكمد ، وأنه بكأس وسيجارة واحدة فقط ترح الدنيا كلها فى داهية ، وتبقى راحة البال والسعادة مع من تحب أن تكون معه .

كان الوقت ليلاً حين ثارت الأمواج غاضبة ، واشتطت المركب فى قلب البحر مبتعدة عن الموانئ الإيطالية ، وفجأة أحس عدنان الذى كان يسند بظهره إلى حافة المركب بحركة غير طبيعية فى المياه ، ثم امتدت يدان من قلب الماء وتعلقتا بحافة المركب ، ثم فى لمح البصر قفز رجلاً إلى قلب المركب والذى كان يرتدى ملابس الغوص التى أخفته تماماً ،

وجرى إلى دفة المركب ، وبعد حديث سريع مع ربان المركب وسط ذهول الجميع ، دُست نقوداً كثيرة فى جيبه ، ثم أمسك بالدفة ، وجعل يقود المركب بنفسه وهو فى غاية العصبية ، وفجأة أضاءت فنارات السوارى المتحركة لمراكب قوات حرس الحدود الإيطالية البحر ، وأحالت بشكل فجائى المكان ظهراً ، وانطلقت صفارات الإنذار من كل ناحية ، والأصوات المدوية المنبعثة من الأبواق والتى كانت تطالب جميع من على متن المركب بضرورة الاستسلام الفورى بلا مقاومة أومحاولة للهروب ، ثم أتبعت هذه النداءات المتلاحقة دفقة هائلة من طلقات الرصاص العشوائية ، التى كانت للتخويف والترهيب على أغلب الظن ، وعندئذ صرخ سنيور مولتبيلى الغواص الذى كان يقود الدفة بنفسه فى الجميع أن يقفزوا بسرعة فى المياه ، وليسبحوا إلى الشاطئ ، ثم ليجروا بكل ماوسعتهم الحيلة إلى داخل إيطاليا، وإلا فإن مصيرهم سوف يكون أسوداً فوق تصور العقل !!.

●●●

(١٨)

تلاحقت الأحداث بشكل مذهل ، وعلى أثر الطلقات النارية العشوائية ، قفز الجميع تباعاً كالمجانين من المركب ، والتى اخترقتها مئات الرصاصات وأحدثت فيها ثقوباً عميقة ، فلم تمض دقائق معدودات حتى غرقت فى الماء ، ولقد كانت هذه هى الخطة التى وضعها رجال خفر السواحل الإيطاليين فيما يبدو ، فلم تصب طلقات الرصاص أى من الركاب ، والذين نزلوا جميعاً فى الماء بلاوعى ، وسرعان ماافترشت الأضواء صفحة الماء ، والتى ارتفعت من فوق سوارى اللنشات ومن جهات متفرقة، ثم بدأ الغواصون المختفون فى الماء للمتهم واحداً بعد الآخر ، واقتيادهم إلى السلطات ، ولم ينج أحداً من الركاب ، أللهم إلا عدنان وحفيظة اللذين بقيا فى المركب ثم تركاها تغرق بهما ، وكانت حفيظة الخبيرة بمثل هذه الأمور ، والتى كانت متأهبة على مايبدو لمثل هذا الاحتمال الكبير ، فقد بادرت لحظة الهجوم بدفع عدنان من رأسه إلى أرض المركب ، وكذلك انبطحت هى أيضاً معه ، فصرخ فيها عدنان بحدة :

- لماذا لم نقفز من القارب ؟.

- هس ، لاتثر بلبلة ، الغواصون كانوا سيتلقوننا واحداً بعد الآخر كالجرذان المذعورة .

قالت ذلك بصوت خفيض ، ولكن واضح إلى حد ما من خلال نظراتها ، فقال عدنان :

- ولكننا سنهلك هكذا .

- روحى فداء روحك ، لاتخش شيئاً ياحبيبى .

كانت آنذاك ممسكة بأنبوب بلاستيكى طوله يعدل المتر تقريباً، وباليد الأخرى كانت ممسكة بحقيبته يدها الشخصية البنية اللون وهى فى غاية الحرص عليها ، وقالت بنبرة واثقة :

- سوف تغرق المركب بعد قليل ، ونحن سنتخلى عنها فى الحال، وسنبقى معاً تحت الماء حتى تهدأ هذه الجلبة تماماً ، ويذهب كل حى إلى حال سبيله ، الشئ الهام أن تمسك بى جيداً وألا تتخلى عنى أبداً .

كانت مئات الأسئلة المحيرة تلتمع فى ذهن عدنان آنذاك وقد جعله القدر فى هذه المرة فى مواجهة مباشرة مع الموت ، فمن ناحية مياه البحر التى وصلت إلى حد التثلج ، غير الدوامات الشديدة السحب والقذف إلى الأعماق ، والغواصوان المُنتشرون فى كل مكان ، وقناصة حرس الحدود وبنادقهم الآلية الجاهزة للإطلاق فى أية لحظة وحين يستدعى الأمر إطلاقها ، ولكن حفيظة التى غمرتها الماء كلية احتضنته بشدة ، وضغطت على ذراعه عدة ضغطات وكأنما توصيه أن يظل هادئاً ، وأن يبقى غاطساً فى الماء حتى لاتفضح وجودهم الأضواء الكاشفة المسلطة دائماً على المنطقة بأثرها ، ثم دست بيدها طرف الأنبوب البلاستيكى فى فمه وجعلت طرفه الآخر فوق الماء ، كى يعينه على التنفس وامتلاء رئتيه بالأكسجين ، ثم راحا يتناوبان من وقت لآخر وضع طرف الأنبوب البلاستيكى فى فم كل واحد منهما بعد الآخر ، بل قليلاً جداً كان حظها من هذا الانبوب البلاستيكى ، وقد

فضلت أن يبقى لأطول فترة ممكنة فى فم عدنان ، ثم تأخذه قليلاً من الوقت وتضعه فى فمها وكأنما لترسل قبلة من خلاله إلى فم حبيبها ، لا لكى تتنفس وتعبئ رئتيها جيداً بالهواء النقى الذى يكفل لها البقاء حية لأطول فترة ممكنة ، ولكن لم يمض الوقت سريعاً كما تمنت حفيظة من كل قلبها ، بل مر بطيئاً جداً عليهما وكأنه الدهر وهما حبيسان ظلمة البحر وبرودته القاتلة ، فبدأت ترتجف بشدة ، وسرعان ما انتبه عدنان إليها وهى تكاد تهوى من يده إلى الأعماق، فقرر أن يستسلم للسلطات ، وشرع فى ذلك بالفعل ، ولكنها قبضت على ذراعه بشدة وكأنما ترسل إليه إشارة وهى ترتجف ميتة : أن ابق ساكناً ، فالأجواء فوق السطح لم تزل بعد غير آمنة .

كان هذا مافهمه عدنان ، ولكنه عقد العزم فى نفسه على تولى مقاليد الأمور ، وألا يترك الوقت يسرقه ، فالفتاة تقاوم الموقف حقاً ببسالة نادرة ، وتبذل مجهوداً مضنياً كى تترك مبسم الأنبوب البلاستيكى فى فمه لأطول فترة ممكنة ، وان أخذته هى كى تتنفس فى دورها بادرت بإعادته سريعاً إليه ، والذى انتابته آنذاك هو الآخر رعدة غير طبيعية ، وقد بدأت أطرافه تتجمد، فأفاقت حفيظة من أجله ، وانخلع قلبها خوفاً على حبيبها ، وعلى الفور بدت وكأن قوة خفية أسطورية قد أعادت إليها وعيها الذى كان يتلاشى شيئاً فشيئاً، وبإعياء جم بدأت تدير حركة ساقيها فى الماء من الثبات فى مكانها إلى الحركة مع السحب فى اتجاه الشاطئ ، الذى كانت تأتى أضواؤه اللامعة من بعيد جداً ، وكان عدنان قد خارت قواه تماماً حتى أنه لم يستطع معاونة حفيظة فى المجهود الشاق الذى تبذله من أجل

بلوغ الشاطئ ، وماتحمله تلك الحركة تحت الماء من خطر داهم على حياتيهما وبخاصة أن القناصة كانوا محدقين بالمنطقة من كل ناحية، ويطلقون رصاصات التخدير أو الحية بشكل عشوائى فى الماء من آن لآخر ، تحسباً لأية محاولات هرب يقوم بها مجنون من المجانين الخارقى القدرات .

هبت ناردين فزعة من النوم ، أمسكت بقلبها الذى كان يدق بسرعة بالغة ، حتى أنها أحست أن روحها تسحب من حلقومها ، وحين مررت راحتا يداها على وجهها وجدت نفسها قد تصببت عرقاً شديداً، لم تدر ماذا أصابها وما السر وراء هذه القبضة الغريبة التى تعتصر قلبها، ولم يكن السبب هو استيقاظها من النوم عريانة مضعضعة الجسد ، فبنظرة خاطفة لمحت ملابس شفيق الشخصية ملقاة أرضاً، وعلى الفور فهمت أنه قد فعل بها الأفاعيل أثناء استغراقها العميق فى النوم، لم يكن ذلك بدافع الحب وإنما بدافع التنكيل والإهانة، وكمن يمثل بجثة ويدنسها شر تدنيس بعد موتها ، لاكمن يحتوى زوجته فى حضنه وحنانه ، ولم تجهد نفسها طويلاً فى التفكير فى السر وراء استغراقها غير الطبيعى فى النوم هكذا ، فلقد حفظت جيداً فى روعها من يكون شفيق وجدى الإجرامى النزعة ، وأنه ربما وكعادته يكون قد دس لها منوماً فى الطعام أو فى الشراب ، وبخاصة بعد امتناعها التام عن معاشرته كزوج منذ فترة طويلة ، وإنما جهدت نفسها حقاً فى البحث عن السبب وراء هذا التوتر والقلق المبهم الذى أزعجها على هذا النحو الغريب ، وهذه الحالة العجيبة التى استيقظت بها من النوم ، بل لم تدر لماذا كانت صورة عدنان فخرى هى أول

ماطراً على ذهنها لحظة استيقاظها المضطرب من النوم ، عدنان الذى عرفت من زملائها فى مكتب إدارة الشركة أنه قد انقطع عن العمل منذ أسبوع على الأقل ، ولايعرف أى إنسان كان أين هو الآن على وجه اليقين ، وكانت ناردين التى علمت بالكثير من المصائب التى حلت بعدنان قبل الاختفاء ، تلوم نفسها بشدة فى تلك الآونة ، وبخاصة بعد اللهجة القاسية التى كلمته بها فى آخر اتصال هاتفى بينهما ، ولكنها عادت لتواسى نفسها قائلة : «وهل كانت بيدى حيلة غير الذى فعلته مضطرة ؟ ، نعم ، لقد فعلت مافعلته خشية على حياته من زوجى المجرم ، والذى كان يهدد ويتوعد بقتلى وقتله ، ثم إلقاءنا معاً فى صندوق النفايات العفنة»، ولكن سرعان ماالتمع خاطر رهيب فى ذهنها فراحت تغمغم قائلة بصوت مسموع هذه المرة : « ومن قال أن تصرفى الأحمق معه قد أنجاه من يد شفيق الفتاكة حقاً !؟».

وعلى الفور قامت من الفراش ، وارتدت روباً ثقيلاً أخفت به جسدها تماماً ، وانطلقت خارجة إلى حيث كان شفيق ممداً فى كنبة حجرة المعيشة يشاهد التلفاز ، وقد بدا فيما يشبه حالة الذهول من السكر والعربدة ، فصرخت فيه متسائلة بلامقدمات :

– شفيق ، أين عدنان فخرى ؟.

كان شفيق بارداً جداً فى مثل هذه المواقف ، فقال دون أن يلتفت إليها وهو يسحب نفساً عميقاً من سيجارة فى يده :

– هل أوحشك عشيقك حبيب القلب والفؤاد ؟.

– تأدب معى فى الحديث أيها الحيوان البارد .

ضحك شفيق ملء شدقيه ، ثم استوى جالساً على الأريكة، وبحركة فجائية شدها من شعر رأسها بقسوة بالغة وقال وهو ينكت وجهها بحدة موجعة فى الأرض :

- بل تأدبى أنتِ فى الحديث مع سيدك وتاج رأسك ، عدنان الكلب لن يفلت منى ولو صعد إلى المريخ .

- قل لى بالله عليك ، أى شئ فى الدنيا يصل بك إلى هذا الجنون ، وأى ملف هذا وماقيمته ، الذى تزعم أن عدناناً قد أخذه منك ، فأصابتك هذه اللوثة غير الطبيعية ، حتى أنك تفقد كل معانى الشرف والنخوة والرجولة ، وتأخذ زوجتك لحمك وعرضك كأى نخاس قواد قذر إلى بيت رجل غريب، ومن أجل ماذا ؟! ، المقايضة بى من أجل استرجاع ملفك اللعين .

دفعها شفيق بقسوة طريحة الأرض مرة أخرى ، ثم ركلها بعنف دام فى بطنها بمشط حذائه وهو يقول :

- وأنتِ ألم تكونى فاجرة يوم التقيتما معاً فى أبى قير وجليم وغيرهما .

لم تنبس ببنت شفة ، فالله وحده هو من يعلم مادار فى السر وفى العلن ، ثم مَنْ الذى يقول ذلك ؟ ، ومَنْ الذى يتهم من؟! ، شفيق النتن النفس ، وصاحب السوابق الكثيرة المهينة لها ، وليس أخذها فحسب كفتاة ليل رخيصة إلى عشة غريمه اللدود عدنان فخرى ، لاريب أن شفيقاً هو آخر من يجب أن يتكلم فى أمر هذه العلاقة

الطاهـرة ، التـى تلاشـت فـور أن علـم عدنـان بحقيقـة كـون ناردين امـرأة متزوجـة ، ولايهـم بمـن ، فالمبـادئ واحـدة ولاتتجـزأ أبـداً ، أمـا مـن ناحيتهـا هـى فـإن هـذه العلاقـة لـم تكـن قـد بـدأت بعـد حتـى تكـون لهـا نهايـة ، نعـم لقـد أحسـت وبشـدة بـذات الإحسـاس الـذى كان يعتمـل فـى نفـس عدنـان نحوهـا ، وأنهمـا قـد خلقـا فـى سـراديب الغيـب مـن أجـل بعضهمـا البعض، وكانـت دائمـاً قـوة مـا غيبيـة تدفعهـا للإتيـان بأغـرب الأشـياء التـى لـم تفهمهـا هـى نفسـها حتـى هـذه اللحظـة ، ولاتجـد لهـا أى تفسـير غيـر كونهـا النصـف الآخـر لعدنـان ، ولكنهـا ظلـت تقـاوم وتقـاوم الاستسـلام لمثـل هـذا الإحسـاس المخـدر ، وبخاصـة أن صفحـة الغيـب المطويـة كانـت تخفـى الكثيـر مـن الأسـرار ، التـى تجعـل ناردين تتـروى كثيـراً قبـل أى اندفـاع عاطفـى ، ليـس فقـط لكونهـا زوجـة ، ومحكـوم عليهـا وعلـى مشـاعرها بالإعدام ، وإنمـا لكونهـا لـم يكـن ليهـدأ لهـا بـال قبـل أن تحـل عقـدة وسـر أسـرار حياتهـا الخفيـة مـع الملعـون شـفيق وجـدى ، والتـى لـم تبـح بهـا الأقـدار بعـد لكائـن مـن كان !! .

غـادر شـفيق البيـت بعـد أن جردهـا مـن الـروب الـذى كانـت ترتديـه ، وأطفـأ السـيجارة فـى سـرة بطنهـا كأى حيـوان سـادى ، ومضـى وهـو ينظـر إليهـا نظـرة التحـدى القاتلـة وكأنمـا يقـول لهـا : « أعلـم أنـك أحـرص جميـع مـن فـى هـذا العالـم علـى حياتـى وسـلامتى الشـخصية ، وداعـاً ياقطتـى « .

بصقـت ناردين فـى أثـره ، وتحسسـت بيدهـا صدرهـا الناهـد الـذى كان لـم يـزل بعـد يعلـو يهبـط بسـرعة جنونيـة ، وسـرعان ماعاودتهـا آلامهـا القديمـة ، آلام غامضـة طـرأت عليهـا بعـد معرفتهـا لشـفيق وجـدى ، وليـس

قبله ، ولكنها تناست آلامها المميتة التى لاتحتمل، وزحفت وهى مفترشة الأرض حتى بلغت هاتفها المحمول، ومن غير تردد ، راحت تطلبه وهى تدعو اللّه من كل قلبها أن يجيبها .

كانت ولم تزل حسابتنا نحن معشر البشر شئ ، وحسابات اللّه ومشيئته العليا شئ آخر ، ماتت حفيظة ومات عدنان وقد استويا ممدين على حافة الشاطئ الخضراء التى تلطمها أمواه البحر باستمرار ، بعد مالقياه من صراع رهيب مع السلطات التى ظلت تطاردهما بلاهوادة ، كانا قد ماتا بحساباتنا نحن البشر ، أما للّه فقد أجرى مقاديره فى اتجاه آخر .

توقفت جوليانا وهى فى طريقها للقفز فى البحر صارخة وقد تعثرت فى شئ ما مُمد على الأرض من وراء جذع شجرة عملاقة ، وحين استدارت لترى ذلك الشئ الذى أسقطها أرضاً ، فوجئت برجل ذى بشرة خمرية أميل إلى البياض ، وامرأة سمراء منتفخة الأوداج تعانقه بحرارة بالغة ، وقد أخفت فى صدره المشعر وجه الموت البارد الذى توشحهما معاً وقد تمددا بطولهما قرب مياه البحر الهادرة ، فنظرت جوليانا شاهقة إلى صديقها آندرياس وقالت هلعة وهى تتطلع بعيداً ناحية الشمال الإفريقى :

- مهاجرون جدد ، ملامحهم تقول أنهم من الشمال الإفريقى.

- غير شرعيين بطبيعة الحال ، لنبلغ السلطات فوراً .

اقتربت جوليانا من القتيلين ، وجعلت تتحسسهما بسرعة ، وتسترق السمع إلى دقات قلبيهما لترى هل نفقا أم مازالا كلاهما

أو أحدهما على قيد الحياة ، وكان أندرياس قد انصرف فى الحال من غير صديقته لإبلاغ السلطات ، فجرى مسرعاً عابراً شارع فيا مارينا إلى حيث كانت تتوقف سيارة شرطة على جانب الطريق الآخر الشهير باسم كورسو أومبرتو بالقرب من متنزه فيلا كومونالى ، فأخطرهم بوجود مهاجرين غير شرعيين اثنين، وميتين على أغلب الظن عند أطراف ساحل بلدة بوفا مارينا ، وحين عاد آندرياس ومعه رجال الشرطة ، وجد صديقته جوليانا واقفة بمفردها بالقرب من جثة واحدة فقط كانت لأحد المهاجرين غير الشرعيين ، فيما لم تكن هناك للجثة الأخرى أى أثر ، ففتح فمه عن آخره وقال بدهشة متناهية :

- جوليانا ، أين الرجل ، لقد كانا رجلاً وامرأة !؟.

فنظرت إليه جوليانا بدهشة مصطنعة وقالت :

- أندرياس يبدو أنك قد أفرطت كثيراً فى الشراب ليلة أمس .

- هذا ليس صحيحاً ، لاتشككينى فى قواى العقلية ، المجد للرب ، لقد كان اثنان وليس واحداً هاهنا ، أقسم بالرب على صحة ماأقوله .

نظر أحد رجال الشرطة إلى من معه وكأنه يعطيهم أمراً بتفتيش المنطقة كلها، وعلى الفور انتشر رجال الشرطة بحثاً عن المهاجر غير الشرعى الثانى، ثم مالبثوا أن عادوا بعد فترة من التنقيب بخفى حنين، فتنفست جوليانا الصعداء بطريقة غير واضحة للعيان وقالت بالثرثرة الايطالية المعهودة لرجل الشرطة وقد همت بمغادرة المكان :

- أيها الشرطى ، لتُجرِ حالاً لهذا الخنزير البرى كل أنواع اختبارات السكر والعربدة ، وامنعه من ملاحقتى ولو بتعليقه من ساقيه فى محطة الوقود مثل موسولينى .

فضحك الشرطى وقال وهو يغمز لها :

- حسناً سوف اسحله هو وعشيقته أيتها الشقراء الإيطالية.

- لست عشيقة لأحد، احترس لكلامك أيها الشرطى السمج.

وسرعان ماجاءت سيارة الاسعاف وحملت جثمان حفيظة عبد الخالق الشهيرة بحفيظة رضوان المنتفخ ، ثم انطلقت لاستكمال التحقيقات والتعرف على هويتها .

انصرفت جوليانا ظاهراً مغادرة المكان بأثره ، ولكن مالبثت أن لفت من شارع فيا مونتتيرو عائدة أدراجها إلى حيث أخفت المهاجر الشرقى وهى فى غاية الحذر ، فحين جست نبض حفيظة تأكدت من كونها قد ماتت حتماً ، أما عدنان فلقد كانت فى شك من أمره ، وحين أدامت النظر طويلاً إلى صفحة وجهه التى فعلت بها ثلوجة مياه البحر الأفاعيل ، أحست بشئ ما غريب يشدها بقوة ناحية صاحب هذا الوجه المليح ، ولعلمها بطبيعة آندرياس ذى النزعة العنصرية الفاشستية ، وأنه لن يرحم هذا المهاجر أبداً ، وبخاصة إذا اتضح كونه لم يزل بعد حياً يرزق ، ولكونه أيضاً أعجبها بشكل لحظى ومن غير مقدمات أو حوارات ، ومن غير وعى ولامبالاة بعاقبة ماتقوم به سارعت بسحبه من قدميه إلى ناحية نائية ، لم تكن بعيدة باطلاق عن أعين رجال الشرطة الذين فتشوا فى المنطقة كلها ، ولكن كان الأمر

كله على مابدا يسير فى خارج نطاق حساباتنا البشرية ، وهكذا كتبت الحياة لمن نفق مئات المرات ، فجثت جوليانا على ركبتيها بالقرب من رأس عدنان المسجى ، وأدنت أنفاسها من وجهه ، وبأطراف خصلات شعرها الذهبية ، راحت تمسح وجهه وهى تخاطبه هامسة :

- سوف أوقد شمعة للعذراء من أجلك .

مر النهار بطوله وعدنان فاقداً وعيه ، ولكن أنفاسه بالرغم من ضعفها إلا أنها كانت منتظمة ، وهذا مادعا جوليانا إلى الاطمئنان، فتركته فى مكمنه وسارعت تستقل سيارة أجرة إلى بيتها فى فيا أندريا دورا لكى تحضر سيارتها الخاصة وخيمتها المتنقلة ، فلقد كانت من هواة التخييم ، ولكنها حين ترجلت من السيارة الأجرة فوجئت بآندرياس يتحدث بصوت عال إلى أمها التى كانت تنظر إليه من النافذة ، وحين رأتها أمها وكادت تشى بعودتها ، أشارت لها جوليانا من بعيد مسرعة بضرورة التزام الصمت وألا تفضح أمرها ، ثم تسللت كهرة تسير على أطراف أصابع قدميها من الجانب الخلفى للبيت المغطى الواجهة بالأزاهير الملونة بكل الألوان الزاهية ، وارتقت فى درج السلم الحديدى الخاص بالشغالين وهى تسب وتلعن هذا الأحمق البغيض آندرياس .

دخلت جوليانا بيتها وهى فى عجلة من أمرها ، كانت تريد أن تستحم ، وتستبدل ملابسها بسرعة ، وتحمل خيمتها وبعض الأغراض الأخرى ، ثم تعود فوراً إلى الرجل الشرقى الفاقد الوعى ، فهتفت بها أمها وهى تتفحص فى شئ ما بيدها :

- جوليانا ، ماذا تحملين فى يدك .

كانت جوليانا تحمل فى يدها حقيبة حفيظة الشخصية البنية اللون، والتى ظلت متشبثة بها بإرادة خارقة حتى وهى تفارق الحياة، لم تحر جوليانا جواباً ، كذلك لم ترح خاطر أمها والتى استرسلت فى النطق بعشرات الأسئلة ، وهى تمضى فى أثر ابنتها كظلها أينما غدت أوراحت :

- ماعيبه آندرياس خطيبك ، أنتِ تتجاهلينه وكأنه الشيطان، أنا لم أرد الوشاية بك عنده حين رأيتك وأنتِ تتسللين من المدخل الخلفى ، كنت أريد أن أعرف أولاً من الذى أمال لكِ رأسك ، ثم هل تظنين نفسك فراشة تتنقلين من زهرة إلى زهرة ، وماتلبثي تفرغين من مص رحيقها حتى تغادرينها إلى زهرة أخرى ، والتى تليها فالتى تليها ، وفى حال الإنسان تكونين عاهرة فاجرة هكذا، لافراشة بريئة كما تتصورين نفسك، آندرياس لمح لى أنك ستكونين بأسلوبك هذا فتاة سيئة السمعة .

- أوه ، صوفيا ، كفى كفى ، هه ومن الذى يقول هذا ربيب الإجرام ! ، ثم أن آندرياس ليس خطيبى ولن يكون أبداً .

- فى بارى ألم تقسمى له بروح كل القديسين الأبرار بأنكِ له ولن تكونين لأحد سواه .

- وفى المساء هربت منه بالقطار المتجه إلى ميلانو ، صوفيا لقد كانت حيلة ذكية منى ، كى أخدره بحبى الوهمى حتى أستطيع الفرار منه ، لأنه خلاصة الأمر كلب قذر لايطاق .

قالت جوليانا ماقالته وقد وقفت فى قلب الحمام تستحم أسفل رشاش الماء ، ثم أتجهت إلى المرآة وراحت تجفف شعرها مستطردة فى الكلام :

- اطمئنى ، ابنتك صوفيا تعرف جيداً ماذا تفعل .

ثم قطعت على أمها أية محاولة فى الاسترسال فى الحديث بعد أن طلبت نمرة ما ، ووضعت هاتفها النقال على صوان أذنها وهى تعبث بنظرة انبهار خفية فى حقيبة حفيظة البنية اللون :

- ريستوران مديتريانو .

ثم راحت تطلب من محدثها على الطرف الآخر أن يعد لها بعض الأطعمة الخاصة بدول البحر المتوسط الافريقية ، وأنها سوف تمر على المطعم خلال ساعة لاستلام طلبها ، فدنت منها أمها ، وقبضت على ذراعها بقسوة متناهية وقالت وهى تنظر إليها نظرة ذات مغزى :

- هل ستبيتين الليلة فى أحضان المهاجر غير الشرعى ؟ ، انتبهى قد يكون إرهابياً .

وضعت جوليانا يداها فى خاصرتها وقد تطلعت إلى سقف الحجرة وهى تنفخ ضيقاً من آندرياس الذى نقل شكوكه بحذافيرها لأمها ، ثم صرخت فى وجه أمها قائلة بعصبية مفرطة :

- صوفيا ، هذا ليس شأنك .

أفاق عدنان وقد احتوت السماء صورتها الضاوية كالذهب، كانت عيناها الزرقاوان كموج البحر ، وثغرها الأحمر الدقيق كثمرة الفراولة

الـذى أسـفر عـن ابتسـامة سـاحرة ، وأسـنان بيضـاء لامعـة كاللؤلـؤ ، فيمـا كانـت النـوارس تحلـق فـى أجـواز الفضـاء وكأنمـا قـد هاجـرت معـه مـن الشـط السـكندرى البديـع ، وآلـت علـى نفسـها ألا تكـون حـين وأيـن يكـون صاحبهـا ، اللحـن القـديم ، الخـداع البصـرى والشـمس التـى تهـوى فـى قلـب مـاء البحـر ، الولـدان والبنـت، ونارديـن صبـرى ، وحفيظـة بنـت الريس رضـوان ، وبلـده مصـر ، والاسـكندرية ، والابراهيميـة وكرمـوز وكـوم الدكـة ومحطـة الرمـل ، والمنديـل الحريـرى الـذى لايفارقـه البتـة ، تدفقـت الصـور كلهـا بسـرعة صاروخيـة فـى ذهنـه إلا أنهـا توقفـت فجـأة وتجمـدت حـين تذكـر حفيظـة ، فحـاول أن يقـوم مـن رقدتـه وهـو يتلفـت حواليـه باحثـاً عنهـا ، فقالـت جوليانـا وهـى تبقيـه فـى مكانـه :

- آسفة ، من تبحث عنها ، ماتت .

كانـت قـواه قـد خـارت تمامـاً ، وكانـت هـى أيضـاً كذلـك ، وربمـا كان حالهـا أشـد بؤسـاً وضعفـاً منـه ، وحـين فقـد وعيـه وفقـدت وعيهـا هـى أيضـاً وبـات الرصـاص المنهمـر يلاحقهمـا كالسـيل مـن كل ناحيـة، وألقيـت عليهمـا كل شـباك المـوت ، حتـى تجمـدا تمامـاً فـى قلـب الميـاه وسـكنا لاحـراك ، أللهـم إلا ماابتعثـه الحـب فجـأة فـى نفسـها مـن طاقـة لامثيـل لهـا ، تلـك الطاقـة التـى أمـدت فـى عمرهـا وأرادتهـا مايكفـى لإنقـاذ حبيبهـا فـى لحظـة المـوت المحقـق ، ثـم لتعـود إلـى واقـع الحـال وكونهـا ميتـة بالفعـل ، هانئـة بالخـلاص مـن عذابـات الحيـاة ومرارهـا ، ولكـن مـن حيـث تـدرى ولاتـدرى جاءتهـا المنحـة الإلهيـة المقـدرة بالأمتـار التـى سـبحتها تحـت نيـر الرصـاص ، والدقائـق التـى عاشـتها ميتـة مـن أجـل انقـاذ حيـاة

حبيبها وليس أكثر من ذلك ، بل كان تشبثها بحقيبتها الشخصية البنية اللون منحة حب تهديها لحبيبها قبل أن تلوح للعالم بيد الرحيل ، تلك الحقيبة التى أودعت فيها ماستطاعت أن تدخره طوال معاناة حياتها من مصاغ ذهبية وأموال ، قد لاتوزن بمثاقيل الذهب الكثير، ولكنها جبال الذهب ذاتها لووزنت بمثاقيل الحب الطاهر المخلص الذى يفعم نفسها من الداخل ، فلقد شق عليها أن تترك حبيبها فى هذا البلد الغريب من غير أن يكون معه شيئاً يعينه على مواجهة نوائب الحياة وصعابها ، وحين حطت به إلى الشاطئ كالطير الأصيل، ودعته وطارت بروحها هائمة فى السماوات العلا ، تاركة جسدها قيض الخلاء الرحب حتى يثوب حبيبها إلى رشده ويسترد وعيه ، ثم ليواريها التراب بيديه الحانيتين ، فهذا ماظنته بنفسها عند بلوغها الشاطئ مرتعشة ، ثم خروجها العصيب من قلب المياه المثلجة وهى تجر فى حبيبها بصعوبة بالغة إلى بر الأمان ، انطرحت بعدها على الأرض بجانبه وهى تلفظ أنفاسها الأخيرة ، ثم ذابت فى أعناقه وهى تودع الحياة ، وبالكاد وضعت بنظرة أخيرة من عينيها قبلة وداع رقيقة على شفتيه .

اهتز جسد عدنان كالمرجل الذى يغلى من داخله ، وهو يبكى ويصرخ فى سريرته حزناً وألماً على مفارقة هذه الفتاة الطاهرة، سمراء الاسكندرية النبيلة الحسناء بنت البلد الأصيلة بحق وحقيق .

●●●

(١٩)

عـاودت عدنـان نوبـة فقـدان الوعـى المصحوبـة بالهـذاء ، وكانـت جوليانـا خبيـرة ليس فقـط فـى مجـال التمريض ، بـل أيضـاً فـى التخييـم، فبسـرعة تحسـد عليهـا دقت أوتـاد الخيمـة ذات الألـوان المرحـة الزاهيـة علـى مقربـة مـن البحـر ، وشـدت حبـلاً متينـاً بـين شـجرتي صنوبـر عملاقتـين ، علقت عليـه ملابس عدنـان التى كان يرتديها بعد أن جردته منهـا ، وغسـلتها مـن أقذارهـا التـى علقـت بهـا أثنـاء رحلتـه الطويلـة فـى البحـر، وبرفـق أم رءوم سـحبته إلـى داخـل الخيمـة ، راحـت تحممـه وتهـذب لـه شـعره السـبط، ثـم عطرتـه، وبـدأت تقطـر لـه المـاء العـذب بـين ثنايـا شـفتيه الجافتـين، وتطعمـه شـيئاً فشـيئاً بعـض ثمـار الفاكهـة الطازجـة ، وحـين جن الليـل جلسـت مفترشـة الأرض أمـام الخيمـة تتطلـع شـاردة إلـى البحـر وهـى تدخـن سـيجارة ، وفجـأة انبعـث صـوت رنـين هاتفهـا المحمـول مـن داخـل سـيارتها التـى كانـت تركنهـا بالقـرب مـن الخيمـة ، فقامـت تجيـب سـونيا صديقتهـا التـى كانـت تلـح فـى طلبهـا منـذ عـدة سـاعات انصرمـت أثنـاء انشـغالها بالعربـى الإفريقـى الشـمالى بحسـب ماخمنتـه فـى نفسـها مـن خـلال هيئتـه الباديـة الوضـوح :

- أوه سونيا عليكِ اللعنة ، لماذا تلحين فى طلبى هكذا ؟.

فردت سونيا على الطرف الآخر قائلة :

- مرحى مرحى جوليانا ، لقد تكرمتى بالـرد أخيراً على صديقة عمـرك سـونيا ! ، صـوفيا أمـك أخبرتنـى بكل شئ ، وآندريـاس فـى الحانـة

الآن يهذى أمامى كالمجنون ، ويتوعدكما بالقتل أنتِ والارهابى الذى تسلل خلسة إلى شواطئنا .

- إرهابى ! ، وهل صدقتيه ؟.

- بالطبع لا ، ولكن أخبرينى أين أنتِ الآن ؟.

- مع الطير المهاجر الذى جاء من الشرق البعيد ليحط رحاله فى بوفا مارينا .

ضحكت سونيا ضحكة طويلة على الطرف الآخر وهى تقول بنبرة يستشف منها اللؤم والمداعبة :

- وهل هو وسيم إلى هذه الدرجة حتى تتركين الدنيا كلها من أجله هكذا ؟.

شردت جوليانا طويلاً فى سؤال صديقتها ثم قالت كالحالمة :

- بغض النظر عن كونه يشبه أمراء ألف ليلة وليلة ، وفرسان الشرق الذين خالطت بياضهم سمرة شمس الصحراء اللافحة، فهو جذبنى إليه بقوة مغناطيسية هائلة لاأدرى كنهها حتى الآن .

- يبدو أنه من الصنف الذى يطرب آذان النساء بحلو الكلام .

- هو لم ينطق بكلمة حتى الآن ، ومع ذلك فقد قال لى كل الكلام .

لـم يكـن عدنـان قـد نطـق بعـد ولـو بحـرف واحـد ، بـل لـم يكـن قـد استدار لينـام علـى أى مـن جنبيـه حتـى هـذه اللحظـة ، وبـدا وكأنـه جثـة هامـدة بلاحـراك ، ومـع ذلـك أحسـت جوليانـا مـن لحظـة التقتـه بإحسـاس عجيب ، وبخـدر لذيذ سـرى فـى بدنهـا بمجـرد أن لامسـت يدهـا الناعمـة بشـرة وجهـه الخشـنة ، ورفرفـت روحهـا بـين جنبيهـا كلمـا اقتربـت منـه ، بل لـم تـدر عـلام هـذه العصبيـة التـى طـرأت عليهـا وعلـى عكـس طبيعتهـا، حـين راحـت فـى البدايـة تفـك مـن حـول جسـده اشـتباك ذراعـى الفتـاة السـمراء بـه والتـى وجدتهـا معـه ، وهـل يعقـل أن يكـون تفسـير ذلـك غيـرة المـرأة مـن امـرأة أخـرى ، ولكـن ممـن ياتـرى !؟، وبهـذه السـرعة ! ، وعلـى مجـرد جثـة هامـدة طرحهـا البحـر علـى عشـب الشـاطئ ! ، رجـل كانـت لـم تـزل بعـد لاتعـرف عنـه أى شـئ ، وأكان حيـاً أم ميتـاً ، رجـل تـراه لأول مـرة فـى حياتهـا ، وهـو فـى حـال يرثـى لهـا ، وهيئتـه رثـة ورائحتـه نتنـة كريهـة لاتطـاق ، فهـل يعقـل أن يهفـو إليـه قلبهـا إلـى هـذا الحـد المثيـر للعجب ، كل العجب !؟ ، وآنـذاك تذكـرت قصـة صديقـة لهـا تدعـى ماريانـا مانوتشـى ، وحـين اسـتدار أحـد الفتيـان السـمر مـن أبطـال الألمبيـاد الذهبيـين بظهـره، وألقـى بباقـة ورد علـى الجماهيـر، فتلقفتهـا ماريانـا بيديهـا ، وعـادت بصحبتهـا الرائعـة إلـى البيـت وهـى فـى غايـة الحبـور والسـعادة ، وكان الأمـر سـيمر بسـلام علـى هـذا النحـو ومـن غيـر أن يكـون لـه أى أبعـاد أخـرى أو ذيـول ، غيـر أن ماريانـا سـاورها فجـأة أغـرب إحسـاس فـى الوجـود قـد يطـرأ علـى عقـل أى بشـرى ، وأن ذلـك الفـارس الأوليمبـى الذهبـى لـم يحـدف بباقـة الـورد هـذه اعتباطـاً ، بـل قصدهـا هـى دونـاً عـن آلاف الحسـناوات الأخريـات اللائـى كـن يشـجعنه بجنـون فـى

المدرجات ، فبادرت بمغادرة بيتها إلى القرية الأوليمبية فجراً وقد عمر قلبها بهذا الإحساس الجميل ، وهى على يقين من صدق إحساسها هذا ، وظلت تفتش فى كل مكان عن فتاها الأسطورى ، وتسأل عنه هذا وذاك ، وأصيبت بصدمة بالغة حين علمت أنه قد عاد إلى بلده، فسافرت وراءه بلاتردد وقد نسجت فى نفسها قصة عشق خيالية بينها وبين فارسها الأسمر الجميل ، والذى خذلها كلما حطت فى بلد قيل لها أنه قد ذهب إليه ، وبعد سياحتها فى الكثير من بلدان العالم من أجله وصلت إليه فى النهاية ، والتى كانت النهاية فعلاً لكل شئ، حيث وجدته جالساً فى أحد المطاعم الأوربية الفخيمة مع زوجته وأبنائه الكُثر ، فانفجرت فى نوبة هستيرية من البكاء ، وسقطت من يدها أرضاً باقة الورد التى لم تتخل عنها أبداً أثناء رحلتها الطويلة ، وسمعت صوته وكأنه يقول لها هازئاً :

- هيه ماريانا الخيالية ، كيف يقصدك من كان يوليكِ ظهره، لوكنت أقصدك حقاً لاتجهت إليكِ فوراً ، ولحملتك بذراعى الجرانيتيتين هذين ، ولذهبت بك على بساط الريح الأسطورى إلى جنة الحب الأبدية .

أفاقت جوليانا جزعة على هذه النهاية المزعجة التى آل إليها مصير صاحبتها ، ومن تلك القصة العاطفية التى دارت كل أحداثها فى الخيال ، والتى جعلت ماريانا من يومها تدمن على تعاطى الخمر والمخدرات ، وكانت تقول دوماً : « يبدو أن عصر المادية الجافة سوف يودى بنا إلى خيارين لاثالث لهما ، عصر الرومانسية والبراءة أو إلى الجنون والدمار رأساً !» .

فـى البدايـة لـم تسـتبعد جوليانـا أن تكـون لحكايـة صاحبتهـا تلـك أثـراً فـى القصـة العاطفيـة التـى نمت علـى غيـر أصـل بينهـا وبـين طائرهـا المهاجـر الفاقـد الوعـى ، والـذى لـم تعـرف لـه أسـماً حتـى الآن، ولكـن حـين ملَّت النظـر منـه غيـرت رأيهـا تمامـاً ، ومضـت بالتفسـير فـى اتجـاه آخـر ، وأنـه ربمـا يكـون قريـب الشـبه مـن والدهـا الـذى قضـى نحبـه منـذ عـدة سنوات خلـت ، والـذى كانـت متعلقـة بـه وتحبـه بشـدة ، أو قـد يكـون شـبيهاً بنجـم السـينما المصريـة العالمـى الوسـيم عمـر الشـريف ، ولكنهـا سـرعان مالـوت عنـان كل تفسـيراتها اللاحقـة لترجـع القهقـرى إلـى تفسـيرها الأول ، منـذ لحظـة رأتـه واقتبلتـه بعينيهـا الزرقاويـن كمـوج البحـر ؛ ألا وهـو : الـلا سـبب ، اللاأدريـة ، وأن الأمـر كذلـك فعـلاً ، ولكـن لمـاذا هـو كذلـك لا أدرى، وبـين الحيـرة والغمـوض والتـردد وبـين الثبـات والإصـرار والإقـدام، قـر قرارهـا فـى النهايـة علـى أن تستسـلم الريشـة الشـاردة فـى الفضـاء الرحـب إلـى حيـث طوحتهـا الأقـدار ، ولتكـن النتيجـة فـى النهايـة ماتكـون !؟.

وحـين أضحـى الوقـت عصـر اليـوم التالـى ، بانـت مظاهـر الحيـرة والقلـق فـى وجـه جولياتـا ، فالطائـر الافريقـى الشـمالى لـم يفـق بعـد مـن غيبوبتـه ، وأنـه قـد يكـون فـى حاجـة عاجلـة إلـى تدخـل الأطبـاء المتخصصـين ، وأن الأمـر أكبـر مماتظـن ، وأفيليـق بهـا أن تظـل محتجـزة إيـاه علـى هـذا النحـو مـع مايمثلـه ذلـك مـن خطـورة بالغـة علـى حياتـه ؟، وعلـى موقفهـا هـى أيضـاً أمـام السـلطات ، ولكنهـا تجاهلـت ذلـك ، عـادت بعـد هنيهـة لتقـول فـى نفسـها : وأليـس فـى تسـليمه للسـلطات خطـراً علـى حياتـه أيضـاً ، والتـى قـد تلجـأ إلـى المخادعـة السياسـية ، لتبريـر عنفهـا الجامـح ضـد المهاجريـن غيـر الشـرعيين ، فتزعـم بمـلء الفـم والعـين أنـه

إرهابى داعشى !، ومايمثله ذلك من مزيد من الضغوط فى البرلمان الايطالى لزيادة ميزانية رجال الأمن ، ولكنها هزت رأسها مستنكرة كل مادار فى رأسها وكأنما تقول : مالى وكل هذه الخيالات والخزعبلات التى تدور فى رأسى ، الأمر فى غاية البساطة ، ذلك الفتى الثاوى فى خيمتى يعجبنى ، يعجبنى بشدة .

وبالليل وقفت جوليانا بنصف ساقيها فى قلب مياه البحر الباردة تطعم نوارسه البيض البديعة ، وحين وقع نظرها خلسة على شبح قادم من بعيد صرخت غير مصدقة نفسها ، وجرت مسرعة إليه واحتضنته بحرارة بالغة ، وقف عدنان متسمراً فى لحظة لم يفهم تفاصيلها البتة، فرفع يداه بعيداً عنها إعلاناً للبراءة ، فقد ظن أن هذه الشقراء سكرانة أو تقصد غيره ، ولكنه سرعان ماتذكر بعد هنيهة الاسكندرية والبحر وحفيظة وقوات حرس الحدود وطلقات الرصاص الرهيبة ، وكذلك تذكر ذلك الوجه الأشقر الجميل الذى ظلت صاحبته ملازمة له طوال الفترة التى قضاها فاقداً وعيه ، والذى كان يسترده قليلاً جداً ثم يفقده طويلاً جداً ، وسرعان مااستشفت جوليانا الحيرة التى غرق فيها عدنان فابتدرته قائلة بالانجليزية التى تجيدها وعدنان أيضاً كذلك :

- تركت كل شئ من أجلك ، حتى عملى فى صالون تصفيف الشعر النسائى باروكيرى سالفاتور كليمنسى القريب من ناصية الكنيسة الكاثوليكية لم أذهب إليه منذ أسبوع ، أى من لحظة التقاطك من على الشاطئ .

- أسبوع !؟.

- أشكر الرب أن الأمر قد اقتصر على أسبوع واحد فحسب ، من كان يراك كان يتصور أنك لن تسترد وعيك ثانية .

- الحمد لله ، وشكراً لاهتمامك بى .

دنت منه جوليانا كى تراه أكثر ، وراحت تلف وتدور من حواليه وتمسحه من أعلاه إلى أدناه والعكس بالعكس صحيح ، ومن غير مقدمات شدته من معصمه ، وركضت وهى تسحبه فى أثرها إلى سيارتها التى كانت واقفة قرب الخيمة المنصوبة ذات الألوان المبهجة ، وقالت بروح مرحة وهى فى عجلة من أمرها :

- ريبورتوس اركب .

لم يسألها عدنان من ريبورتوس هذا ، ولاحاول أن يخبرها باسمه الحقيقى ، فلقد كان لم يزل بعد ذاهلاً ، ومأخوذاً من جملة الأشياء التى من حوله ، والتى لم يتبين معالم الكثير منها بعد، أو حتى معالم نفسه فلقد كان مثل المغيب المضروب على رأسه، وكثير من الأسئلة كانت تدور فى ذهنه أثناء انطلاق جوليانا بسرعة جنونية بسيارتها المكشوفة على طريق الكورنيش الخالى الهادئ ، كان شعرها الذهبى يتطاير مثل أجنحة الريح المشرعة ، وكانت مستغرقة فى حالة من الثرثرة بالايطالية التى لايفهمها عدنان ، ثم قاطعت نفسها بعد فترة وقالت معتذرة بالانجليزية وقد أصابتها نوبة شديدة من الضحك :

- آسفة ريبورتوس ، لقد نسيت أنك لاتتحدث الايطالية ، ولعلك تتساءل فى نفسك الآن من ريبورتوس هذا الذى أناديك باسمه مع أنك لست ريبورتوس بطل أحلامى المفضل ، ولكن دعنى أخمن اسمك بنفسى ، أنت عمر أو سليم أليس كذلك؟.

- عدنان فخرى .

- عدنان ، اسم لابأس به ، وأنا جوليانا ريبورتوس .

- جوليا ريبورتوس .

ضحكت جوليانا طويلاً وهى تقول :

- لست النجمة جوليا ريبورتوس ، إنما تشابه فى الأسماء فقط، ولكن من المؤكد أننى أجمل وأكثر أنوثة منها بكثير عزيزى ريبورتوس.

فهز عدنان رأسه علامة فهمه أن لماذا كانت تناديه بهذا الاسم ، والذى يبدو ضمناً من حديثها كم هى معتزة به ، ليس هذا فحسب بل من يتعمق فى مضمون حديثها سيفهم الكثير من المعانى النبيلة والسامية والبطولية التى يحملها صاحب هذا الاسم الحقيقى ، والذى تضعه فى مصاف فرسان الأحلام ، غير أن عدنان لم يكن لديه الطاقة ليفكر على هذا النحو ، أو لينتبه إلى كونه جالساً بجوار ملكة جمال شقراء ذات أنوثة طاغية ، ومرحة بكل ماتحمله الكلمة من معنى ، ولم يتبادر إلى ذهنه حتى مجرد السؤال عن الجهة التى ستأخذه إليها ، كان مستسلماً لها كعصفور برئ لاحول له ولاقوة ، وقد جعل يجتر شريط الذكريات المؤلم فى حنايا ذاكرته ، ولكنه فجأة سألها :

- ماذا حدث بالضبط لحفيظة ؟ ، أقصد الفتاة التى كانت معى على الشط ؟.

وبصورة مفاجئة لايصدقها عقل توقفت جوليانا بسيارتها على جانب الطريق مع فرملة بالغة القوة ، فاصطدم جسد كل منهما بشدة مع الاندفاع فى تابلوه السيارة ، فاطلق عدنان تأوهة ألم طويلة فقد كان جسمه مضعضعاً من أثر مالقاه فى رحلته الشاقة من الاسكندرية إلى الساحل الايطالى ، لم تعتذر جوليانا على ذلك ، بل قالت بعصبية مفرطة للغاية وهى تتحاشى النظر إليه :

- لا أحب أن أتحدث عن أموات رحلوا عن عالمنا ، ولتنس كل شئ من الآن فصاعداً ، أنت مهاجر غير شرعى ، أو ماذا على وجه اليقين لست أدرى ، ولا أريد أن أعرف ، ولكن يمكن أن نقول أن حياتك فى خطر داهم ، والسلطات هنا لاتعرف الضحك ، بنادقهم الآلية فقط هى التى تعرف الضحك .

ثم باغتته بصورة فجائية وأخرجت منديلاً حريرياً من تابلوه السيارة وتركت له العنان ليمضى مع الريح بعيداً إلى الجبال الخضراء الشاهقة الارتفاع ، فصرخ عدنان وهو يحاول القفز من السيارة لاحقاً، ولكن آلامه الشديدة أعادته حيث كان ، كانت جوليانا تتصور أن هذا المنديل أثراً باقياً من حفيظة ، ولم تكن تعرف أنه لفتاة أخرى هى الحب الحقيقى لعدنان ، وبعد فترة كان عدنان يلاحق خلالها دامعاً منديل « ناردين صبرى» الحريرى والذى حمله الهواء عالياً إلى السماء، وبنبرة جافة تنم عن أى شخصية متسلطة تتحدث ، قالت جوليانا :

- آسـفة ، لقـد فعلـت مـا فعلـت حتـى يتسـنى لـك نسـيانها إلـى الأبـد .

- نسيان من !؟.

- السمراء .

ثم سـرعان مـا لانـت نبرتهـا وعـادت إليهـا روحهـا المرحة وقالت مسـتدركة كالمسـتفيقة وهـى تدير وجههـا ناحيتـه متسـاءلة بلطف أنثوى رقيق :

- أنت حتى لم تسـألنى عن اسمى .

- لقد قلتيه للتو !، جوليانا ريبورتوس .

- أقصـد لـم تسـألنى ومَـنْ هـى ذى تلـك التى تكون وراء هذا الاسـم، طيبـة شـريرة ، جميلـة دميمـة، ولمـاذا فعلـت معـك مافعلـت، أو قـل لـى بالأحـرى مـا انطباعـك المبدئـى عنـى، ألا أعجبـك ؟.

ابتلـع عدنـان ريقـه قلقـاً وقـد خامـره احسـاس مـا مخيـف جـداً ، وأن هـذه الايطاليـة الحسـناء الغريبـة الاطـوار التـى فعلـت معـه بحـق مالايتصـوره عقـل أو منطـق ، قـد تكـون فـى المقابـل أيضـاً قـد فعلـت مـع حفيظـة مالايتصـوره عقـل وبلامنطـق مفهـوم ، وبخاصـة بعـد حركـة المنديـل المريبـة والتـى وشـت بلاشـك بهـا وفضحـت نواياهـا مبكـراً ، ولهـذا لـم يسـتبعد أنهـا ربمـا تكـون قـد سـلمتها للسـلطات ، فهـم يكـرر نفـس سـؤاله مـرة ثانيـة وثالثـة عـن حفيظـة وعـن مصيرهـا ، ولكنـه تراجـع عـن ذلـك ولـو مؤقتـاً و آثـر الصمـت ، حتـى تتكشـف لـه معالـم الصـورة الجديـدة عليـه تمامـاً ، والتـى أغشـت بصـره فجـأة حـين لاحـت لـه فجـأة ، وكأنهـا

ومضـة فلاشـية خاطفـة ومبهـرة ، وبـات مـن الصعـب جـداً ، بـل مـن رابـع المسـتحيلات تبـين تفاصيلهـا المعقـدة أشـد التعقيـد هكـذا بسـهولة .

ركنـت جوليانـا سـيارتها جانبـاً فـى ذلـك الوقـت المتأخـر مـن الليـل، كان الهدوء التـام قد غلب طابعه على بلدة بوفا مارينـا ، ونزلـت جوليانا مـن السـيارة وهـى تشـير لعدنـان أن يترجل هـو الآخـر، ثـم تقدمـا متسـللين ناحيـة مجموعـة مـن المحـال التجاريـة المغلقـة ، وفـى الخلفيـة بدت الكنيسـة كقلعـة مـن قـلاع العصـور الوسـطى الحصينـة، وعنـد أول مدخـل قابلهمـا ولجـا داخلـين فيـه ، وتقدمـا فـى ممشـى طويـل ، تسـاقطت عليـه خمائـل الفل والياسـمين ، والتـى دفـع هـواء البحـر الجاثـم مـن بعيـد علـى مشـارف البصـر رائحـة تلـك الأزهـار الزكيـة ، فانتعشـت نفـس عدنـان ، وردت إليـه روحـه شـيئاً فشـيئاً ، وآنـذاك توقفـت جوليانـا أمـام بـاب خلفـى لأحـد هـذه المحـال المغلقـة ، وبأداة لاتشـبه المفاتيـح المألوفـة جعلـت تعالـج كالـون البـاب الحديـدى كلـص محتـرف ، فبـدا الارتبـاك فـى وجـه عدنـان وهـو لايفهـم شـيئاً ممـا يـدور ، فوضعـت جوليانـا يدهـا علـى فمـه كـى تكتـم ضحكـة عاليـة أوشـكت أن تنفجـر مـن داخلهـا وقالـت هامسـة لـه :

- عملى الطويل مع المافيا أفادنى كثيراً .

لـم يأخـذ عدنـان كلام الفتـاة علـى أى محمـل ، فلقـد كان فـى واد آخـر ، ومضـى كالمغيب المخطوف يلج فـى أثرهـا إلـى داخل المحل ، والتـى شـرعت فـى إضاءتـه بعـد أن أحكمـت إغـلاق البـاب فـى أثـر دخولهمـا ، ألقـى عدنـان نظـرة فاحصـة سـريعة فـى المكان مـن حولـه بغيـر حمـاس ، فيمـا قالـت لـه جوليانـا بروحهـا المرحـة التـى اسـتردتها تمامـاً وهـى تسـحبه كالطفـل مـن يـده ناحيـة الحمـام :

- هـل صدقـت حكايـة المافيـا ، إنـه محـل تصفيـف الشـعر الـذى أعمل بـه ، ، ولقـد اعتـدت علـى دخولـه هاربـة بهـذه الطريقـة غير الشـرعية فـى غيـر أوقـات العمـل الرسـمية ، فـى الغالـب هاربـة مـن آندريـاس اللعيـن ومَنْ غيـره ، هيـا سـوف أسـاعدك علـى خلـع ملابسـك وأخـذ حمـام دافئ.

وكفتـاة بكـر خجلـى تراجـع عدنـان إلـى الـوراء وهـو يتملـص مـن قبضتهـا الرقيقـة قائـلاً بحيـاء جـم :

- جراتسى ، سوف أقوم أنا باللازم .

ضحكـت جوليانـا طويـلاً وقـد راح يحكـم إغـلاق بـاب الحمـام عليـه مـن الداخـل وهـى تقـول بنبـرة مداعبـة لطيفـة :

- لقـد حممتـك بنفسـى وانـت فاقـد الوعـى ، ولكـن لابـأس افعـل مايحلـو لـك ياطفلـى العزيـز .

وحيـن اختلـى عدنـان بنفسـه أحـس أنـه كان بالفعـل فـى حاجـة لأخـذ دش دافـئ ، ودعـك جسـمه جيـداً مـن زفـارة ميـاه البحـر ولزوجتهـا ، ولكنـه مالبـث أن انهـار وخـر جاثيـاً بركبتيـه علـى الأرض الرخاميـة وهـو يبكـى بلوعـة ومـرار شـديدين ، وقـد لاحـت لـه صـورة حفيظـة ، والتـى جعلـت حياتهـا فـداءً لحياتـه ، فلقـد كان هـو حياتهـا ، لكـن هـى لـم تمثـل لـه أى شئ ، ولعلـه ابـراءً لذمتـه منهـا قـد أخبرهـا بهـذه الحقيقـة قبـل أن يصعـدا معـاً علـى مـتن مركـب المـوت اللعـين ذاك ، وكان كل الـذى طلبتـه منـه ألا يقـف فـى طريـق حبهـا لـه وليفعـل هـو مايشـاء ، وأنهـا لـن تحاسـبه فـى حياتهـا قـط علـى أمـر لاحيلـة لـه فيـه ، ثـم هاهـى ذى ومـع أول اختبـار جدى لقيـاس درجـة صلابـة حبهـا لـه ، قبلـت ببسـالة أسـطورية أن تكـون

حياتها ذاتها هى الثمن الذى تدفعه عن طيب خاطر من أجل إنسان عرفته للتو ، وبدعوى معرفتها الطويلة له وقبل أن يولدا ويكونا على ظهر الأرض ، وهكذا بلاتردد وبرضاء تام .

كانت جوليانا قد أعدت العدة لقضاء ليلة جميلة فى ذلك المحل الأنيق ، فأشعلت الأضواء الخافتة الملونة الممزوجة بموسيقى شاعرية حالمة ، كما أعدت بعض الأطعمة الخفيفة وزجاجة نبيذ وكأسين ، ووقفت تتمم على هيئتها فى المرآة التى تجلس أمامها النسوة اللائى يجئن إلى المحل للتجميل والتدليك وتصفيف شعورهن ، وحين انتهى عدنان من حمامه ، بادرت إليه جوليانا وهى تتأمله بإعجاب جم لتأخذه إلى المرآة التى كانت تتزين أمامها ثم أجلسته إلى أحد المقاعد الوثيرة ، وبدأت تصفف له شعر رأسه الأسود الضارب إلى اللون الفضى قليلاً وهى ترسله إلى الوراء تارة ، وإلى اليمن والشمال تارة أخرى ، حتى ارتاحت إلى جعل مفرق شعر الرأس فى المنتصف تماما، ثم راحت تهوش شعر ناصية رأسه بالمجفف ورفعته عالياً ، وحين راحت تحلق له ذقنه وشاربه بعد ذلك ، أبدى عدنان اعتراضاً شديداً وهب واقفاً، غير أنها أعادته إلى مقعده وهى تقول لها :

- سوف تكون أكثر وسامة هكذا .

استسلم عدنان للأمر الواقع ، ولكنه لم يقو على الصبر أكثر من ذلك حين أخذته إلى الأريكة وحاولت أن تجعله يتمدد فيها بطوله قائلة :

- التدليك مع إزالة شعر الصدر بالشمع البرازيلى المنعش سوف يزيل عنك كل هموم الفترة الماضية .

فانفجـر عدنـان فـى وجهها قائـلاً وقـد تملـص مـن قبضـة يدهـا الرقيقـة ، وهـو يلقـى فـى الوقـت ذاتـه نظـرة فاحصـة سـريعة علـى المكان مـن حولـه :

- إنقـاذك لحياتـى لايعنـى امتـلاكك لـى ، كمـا أننـى لـن أفعل شـيئاً ممـا يجـول فـى خاطـرك .

ابتسـمت جوليانـا ابتسـامة لطيفـة وعلـى عكس ماتوقـع عدنـان رد فعلهـا ، ومـاذا عسـاه سـيكون ، قالـت وهـى تتقـدم منـه ببطء ، وهـى تتلفـت حولهـا كذلـك :

- موسـيقى سـاحرة ، واضـاءة خافتـة تعطـى جـوا شـاعرياً ، ونبيـذ يسـكر العقـل ، ورجـل وامـرأة بمفردهمـا فـى مـكان معطـر جميـل ، معـك حق فيمـا ذهـب إليـه خيالـك ، ولكنـه ليـس الـذى فـى خيالـى علـى الاطلاق.

لـم يفـه عدنـان بكلمـة ، وانتظـر حتـى يفهـم إلام ترمـى هـذا الفتـاة ، والتـى اسـتطردت قائلـة :

- الكثيـر مـن الشـرقيين مثلـك يعتقـدون أنـه لاتوجـد فتـاة عـذراء واحـدة فـى الغـرب ، ولكـن أنـا أؤكـد لـك أنـه توجـد هـذه الفتـاة، وأنهـا ظلـت محتفظـة بعذريتهـا مـن أجـل شـخص مـا ، شـخص طـال انتظـاره، ورفضـت أن يمسسـها بشـر سـواه ، وتحملـت فـى سـبيل ذلـك الكثيـر مـن السـخافات والاهانـات التـى تصمهـا بأنهـا فتـاة معقـدة مريضـة نفسـية .

لـم يفهـم عدنـان مغـزى كلام جوليانـا مباشـرة ، ولكنـه خمـن فـى نفسـه ، أنـه ربمـا يكـون قـد تسـرع فـى فهـم حقيقـة مـا تضمـره الفتـاة فـى نيتهـا نحـوه ، وأنهـا تدعـوه لقضـاء ليلـة فـى الفـراش ، وأنهـا تصرفـت حقـاً

بجـرأة لـم يعتـد عليهـا الرجـل الشـرقى ، ولكنهـا مـع ذلـك ربمـا لـم تكـن تقصـد شـيئاً علـى الاطـلاق ، أللهـم إلا تمضيـة بعـض السـاعات اللطيفـة مـع صديـق لهـا ، فثقافـة المـرأة الغربيـة لاتجعلهـا تلجـأ إلـى سياسـة اللـف والـدوران والتحايـل علـى شـئ تريـده ، كمـا تفعـل اختهـا الشـرقية ، وإنمـا تقصـد إلـى ماتريـده مباشـرة ، لأن مجتمعهـا لايكتـرث كثيـراً بمـا يسـمى بالشـرف والفضيلـة والعذريـة، ولايحاسـب الفتـاة الغربيـة علـى كل لفتـة وهمسـة كمـا يحـدث فـى الشـرق ، بـل يتـرك النـاس أحـراراً يعبـرون عـن مشـاعرهم بلاقيـود أو تحفظـات ، ولكـن جوليانـا قطعـت عليـه حبـل أفكـاره قائلـة بحـدة بالغـة عكـس كل مـاكان يـدور فـى مخيلتـه آنـذاك :

– أنـت مسـلم بلاشـك وتبـدو متدينـاً ، وأنـا كذلـك مسـيحية كاثوليكيـة متدينـة ، وأظـن أن الـرب لـن يغضـب منـى أبـداً ان وجـدت الشـخص المناسـب لـى ، والـذى خلقـه مـن أجلـى وخلقنـى مـن أجلـه ، والـذى مـن أجلـه أيضـاً احتفظـت لـه ببكوريتـى .

انتفض عدنـان مـع وقـع كلامهـا المفاجـئ الشـديد علـى نفسـه، فهاهـى ذى فلسـفته قـد لفـت ودارت ورحلـت معـه وهاجـرت عبـر الأوطـان ، وكادت تغـرق معـه فـى قلـب ميـاه البحـر ، ولكنـه حـين كتبـت لـه الحيـاة مجـدداً كتـب لـه أيضـاً أن يعيـش إلـى تلـك اللحظـة ليـرى فلسـفته نفسـها ماثلـة أمامـه ، وقـد تلونـت هـذه المـرة ليـس بوجـه البيضـاء أو السـمراء ، وإنمـا بوجـه هـذه الشـقراء الفاتنـة الجمـال ، والتـى قالـت لعدنـان معاتبـة :

– ألـم تسـأل نفسـك قـط : مالـذى يدعـو فتـاة مثلـى للتضحيـة بوقتهـا والمخاطـرة بنفسـها هكـذا مـع السـلطات مـن أجلـك !؟، وبخاصـة أنـك لسـت الفتـى الخـارق المتناهـى الوسـامة والسـحر والثـراء ، أنـت لسـت إلا الصعلـوك

التائـه فـى دروب الحيـاة ، والـذى لـم يـأت عبثـاً فـى قـارب متهالـك مـن بـلاد بعيـدة هاربـاً مـن أوجـاع الحيـاة والفقـر والمعانـاة .

صمتـت برهـة كـى تأخـذ خلالهـا نفسـاً رتيبـاً مـن أنفاسـها التـى تلاحقـت بسـرعة بالغـة ثـم اسـتطردت قائلـة :

- القدر هو الذى ساق كلينا إلى هنا كى نكون معاً إلى الأبد.

نفخت جوليانـا نفخـة قويـة وكأنمـا لتطـرد مـن رئتيهـا حالـة الغضـب القصـوى التـى وصلـت إليهـا ، وقالـت وهـى ترتمـى جالسـة فـى المقعـد وتشـير براحـة يدهـا فـى الوقـت ذاتـه إلـى الطعـام وزجاجـة النبيـذ والكأسـين والأضـواء الخافتـة الشـاعرية :

- هـذه احتفالية بسيطة أقامتها عـذراء بريئة على شـرف فارسـها المفـدى ، وليـس لأى شـئ آخـر كمـا ظننـت .

الغـروب الـذى ليـس غروبـاً ، هـو شـروق فـى مـكان آخـر لانـراه ، الشـمس لاتغـرق فـى المـاء ، الأمـر كلـه محـض خـداع بصـرى ، ونارديـن يـوم التقاهـا لأول مـرة وأخذهـا منـه البحـر ، ثـم ردهـا إليـه بصورتهـا الأخـاذة ولكـن بشـخصية أخـرى وحكايـة أخـرى ، ألـم تكـن أيضـاً خداعـاً بصريـاً ، بـل حفيظـة ذاتهـا التـى ظهـرت واختفـت كومضـة فـى الخـلاء الرحـب ، اشـتعلت فجـأة ثـم سـرعان مااختفـت ، ومـن غيـر أن يمهلـه القـدر أقل فرصـة لفهـم حقيقـة هـذا الظهور المفاجئ اختفـت ، ثـم هاهـو ذا مع تلاشيها المفاجئ ، تومض لـه كالبـرق الصاعق حكايـة أخـرى أكثـر عجبـاً وغرابـة مـن الغرابـة نفسـها ، فمنـذا الـذى يصـدق أن هـذه الايطاليـة الشـقراء كانـت فـى انتظـاره هـو ، وهـو الـذى يعيـش بعيـداً عنهـا بـآلاف

الكيلومترات لايعرفها ولاتعرفه ، ثم هاهى ومن غير سابق علاقة أو معرفة تمنحه ثمرة البراءة الأنثوية عذريتها على طبق من ذهب ، وتوشك أن تطلب منه أن يأخذها إلى أى جامع أو كنيسة ليعيشا معاً وإلى الأبد فى ظل رباط الزوجية المقدس ، وهل يمكنه أن يقول لها لا وهى من أنقذته من الموت المحقق ، وأنجته من أيدى السلطات التى لاترحم مهاجراً غير شرعى ، مهاجر صار كالمجرم الذى لم يعرف بعد لما أتى ، وماذا ينبغى عليه أن يفعل ، أليست الصورة برمتها صرف خداع بصرى ، وأن البيضاء والسمراء والشقراء ثلاثتهم ليسوا إلا دُمى غير حقيقية تتحرك على مسرح خيال الظل العبثى الذى أقامه فى نفسه من لحظة صدمته الأولى فى شريكة حياته بهية ، كانت هذه هى النتيجة المبدئية التى توصل إليها فى النهاية ، وأن الأمر كله فى الحقيقة محض خداع بصرى، وأنه إذا لم يستفق وينتبه إلى نفسه سريعاً فسيدخل هو ذاته فى دائرة الخداع البصرى العمياء ، ويكون القرار النهائى لابيضاء ولاسمراء ولاشقراء فى الموضوع برمته ، بل ربما يكون لاوجود لشخص يدعى عدنان فخرى على وجه الاطلاق ، وأن القصة كلها محض أوهام فى أوهام ، وهلاوس وخزعبلات ربما لرجل عنين سكران يجلس منكفئاً على ظله الباهت يحتسى الخمر فى بار حقير ، أمام نادل بغيض لماخور عفن بكل ماتحمله الكلمة من معنى، تضيئه أنوار شبحية تبعث على الاكتئاب والاختناق ، وربما على مائدة هذا السكير الحقير أمليت قصة عدنان والبيضاء والسمراء والشقراء، ثم من أيضاً لا أحد يدرى .

●●●

(٢٠)

وقف عدنان أمام البحر يتأمل شارداً صورته المنعكسه على صفحته الفيروزية ، وبالرغم من الجفاء الذى قابل به اندفاع جوليانا العاطفى ، إلا أن ذلك لم ينعكس بالسلب على أسلوبها الرقيق فى التعامل معه بعد ذلك ، بل العكس كان هو الصحيح، فبعد مرور عدة ساعات من مغادرتهما محل تصفيف الشعر ، ابتدرته بآيات الرجاء والاعتذار عن هذا الاندفاع والتسرع ، وأن الأمر كله قد يكون وهماً فى خيالها ، وماكان ينبغى أن تفصح عنه هكذا ، وبهذه الطريقة الفجة ، وقبل أن يسترد وعيه كاملاً ويمشيان مسافة فى الزمن ، تتأكد خلالها على الأقل من حقيقة مشاعرها نحوه ، ولكن من قال أن فى الأمر ثمة مشاعر أو عواطف ، هى تحدثت عن لغز قدرى واحساس ماخفى وعميق جداً وأنه نصفها الآخر ، حفيظة أيضاً أحست نحوه بذات الاحساس القدرى ، ولكن من ناحيته هو لم يحس لهذه ولا لتلك بأى شئ من ذلك القبيل ، نعم أحسه ولكن مع امرأة أخرى غيرهما ، امرأة يكاد لايملك دليلاً جازماً واحداً أنها تبادله نفس الاحساس !.

لقد طلب من حفيظة بنت الريس رضوان أن تمنحه فرصة الوقت والتفتيش فى خفايا نفسه عن مثيل لذات الاحساس الذى يعتمل فى سريرتها نحوه ، بل نفس الشئ كاد يطلبه من جوليانا غير أنها لم تكن فى مثل سذاجة وتلقائية حفيظة العطاءة بلاحساب أو منطق ، بل كانت أنثى بكل ماتحمله الكلمة من معنى، وتقدم شيئاً جديداً ومشوقاً

لـم يعتـده أحـداً مـن قبـل حتـى فـى أكثـر القصـص خيـالاً وأسـطورية ، ولـم تكـن أنوثتهـا فقـط هـى بالشـئ الـكاف ليتوقـف عنـده عدنـان منتبهـاً ومشـدوداً إليهـا غايـة الانشـداد ، بـل شـعوره الشـديد أنهـا تملـك إحساسـاً صادقـاً ، وأنهـا تعانـى بحـق مـن ويـلات اللغـز القـدرى ، الـذى جعلهـا تنتظـر وتنتظـر لسـنوات طويلـة قـدوم شـخص مـا ، مـن هنـا أوهنـاك أومـن السـماء حتـى ، وكان هـو ذلـك الشـخص المنتظـر ، ومحـال أن يكـون فـى الأمـر خلـلاً قدريـاً مـادام مـن صنـع إلـه قديـر ، ولكنهـا ألغـاز وطلاسـم علينـا نحـن البشـر فهمهـا وفـك شـفرتها ، وحينـذاك دوت صفـارات نـوارس البحـر ذات الصـدى الحزيـن ، وتذكـر اللحـن القـديم ، وحبيبـة قلبـه وفـؤاده ناردين ، أوَ لوكانـت هـى الوهـم ، فمـا أروع أن يحيـا الانسـان فـى خـدر هـذا الوهـم الجميـل ، بـل هـى الحقيقـة والعالـم كلـه محـض تخاريـف وأشـباح ، وأرواح كريهـة لاتطـاق ، وربمـا كانـت جوليانـا هـى الشـبح الجميـل الـذى ابتعثـه القـدر كـى يبـدد سـطوة ناردين علـى قلبـه ، فحفيظـة لـم تكـن فـى المعادلـة شـيئاً يذكـر إذا مـا قورنـت بناردين مـن أى ناحيـة كانـت ، ولكـن موتهـا تـرك بلاشـك أثـراً عميقـاً فـى نفـس عدنـان وجرحـاً لايندمـل بسـهولة ، ورفعهـا فـى نفسـه إلـى مصـاف القديسـات الطاهـرات ، أمـا الشـقراء فلقـد كانـت القـوة الطاغيـة بعينهـا ، والتـى زلزلـت عدنـان زلـزالاً شـديداً .

انشـقت فجـأة صفحـة ميـاه البحـر المرتعشـة والتـى كانـت تعكـس صـورة عدنـان آنـذاك عـن جوليانـا ريبورتـوس ، لـم يصـدق نفسـه حيـن رآهـا ، وشـك لأول وهلـة فـى نفسـه ، وأن مـن رآهـا تخـرج بملابـس البحـر الفاتنـة هـى جوليانـا ، كانـت قـد صبغـت شـعرها الذهبـى باللـون الأسـود الغطيـس ، بـل راحـت تحـاوره بلغـة انجليزيـة مطعمـة ببعـض الكلمـات

العربية ، وجرت ناحية الخيمة ، واختفت فى داخلها لدقائق معدودات ثم خرجت منها مرتدية ملابسها ذات الطابع الشبابى الغربى البسيط والجذاب فى آن واحد السروال الجينز الممزق من عند الركبتين ، والبادى الأحمر الساخن الذى يكاد يتمزق من على نهديها الفائرين ، ثم شدته من يده ، وجرت به مندفعة ناحية سيارتها التى تقف أسفل شجرة صفصاف عملاقة ، وهى تصرخ بصوت عال للغاية :

– لنخرج إلى العالم فى وضح النهار ، وليس فى دياجير الظلام، لايهم أن أكون حبيبتك ، الأهم أن تكن حبيبى ، قد لاأكون مبهرة لك ، ولكن أنت أبهرتنى ، ولسوف يشعر أكثر الرجال وسامة وفحولة بالغيرة منك ، أجل منك أنت ياحبيبى ، ولسوف تحاول أجمل الجميلات اختطافك منى ، ولكننى سوف أدافع عنك بجنون .

نظر إليها عدنان مستغرباً وهو لم يزل منصتاً لأغنيتها التى كانت تدندن بها بالايطالية ، ولكنه أحس مع ذلك أنه قد فهمها جيداً، وحينذاك فاجأته قائلة بالانجليزية المطعمة بالقليل من الكلمات العربية :

– لاتندهش أيها المصرى لكونك فهمت لغتى الايطالية بلامترجم، أنت سمعتها بقلبك وليس بعقلك .

وتذكر عدنان فى تلك الأثناء أن حفيظة قد قالت له الشئ نفسه تقريباً ، يوم صارحها بحقيقة عدم شعوره نحوها بأية مشاعر أو حتى بما هو أقل من الإعجاب ، ولكن شتان بين الأثر الذى تركته هذه وتلك فى نفسه ، بل سرعان ماشدته أيدى الحيرة من تلابيب أعماقه ، وكأن

هناك من يصرخ فيه فى الخباء ويوبخه أشد التوبيخ قائلاً : الايطالية المنعمة المدللة أم السكندرية البائسة التى ضحت بحياتها وشبابها وبكل ماتملكه من أجلك ؟ ، «الأمر كله مسألة إحساس ، والإحساس التلقائى لايسئل ولكن يؤجر ويقدر» ، كان هذا هو رده الخفى ، ففوجئ بنفسه مندفعة بالقول : لو أن الأمر والحكم حقاً للأحاسيس فلا أثر لهذه ولالتلك فى نفسك بل للظبية البيضاء ، انتبه ناردين هى الحب الحقيقى ، حفيظة هى حنان الأم ، جوليانا هى الدنيا قد جاءتك ببشارات الفتنة كلها ، الضباب الذى يخفى جمال الطبيعة ، الليل الذى يغشى البصر ويجعله عاجزاً عن رؤية كل شئ حتى أصابع يدك المرتعشة أمام عينيك ، والتى بينها وبين أهداب العينين ملامسة والتصاق ، «أنت أعمى لاترى الحقيقة لأنك لاترى نفسك» ، «كذب هراء وافتراء» ، ظل الحديث سجالا بينه وبين نفسه ، حتى جاءه الرد قاطعاً من نفسه قائلة : «لوكنت صادقاً حقاً فلتمض قدماً فى سبيل خططك التى حملتها معك من الاسكندرية ، ولتفارق هذه الفتاة فوراً، إن استطعت فأنت على حق وإن عجزت فقد صدقت أنا ، وأنك قد غرقت لأم رأسك فى بحر الفتنة» .

أفاق على جوليانا ريبورتوس، التى خفضت من صوت مذياع السيارة المنطلقة كالسهم فى شوارع بوفا مارينا ، والتى تساءلت إليه بصورة أذهلته وكأنما قد سمعت كل ماكان يدور فى حشايا نفسه منذ لحظات :

- لماذا لم تحدثنى حتى الآن عن خططك التى جئت بها من مصر إلى ايطاليا ؟.

- لاخطط لدى .

- شئ لايصدقه عقل ! ، هل تركت بلدك ، وتحملت كل هذه المخاطر وركبت قوارب بحر الموت آملاً فى المجئ إلى هنا ، ثم تتحدث عن عدم وجود أية خطط لديك !؟.

- لدى أسباب بلاشك .

- لنقل أنك كنت تهرب من شئ ما ، فهل أفهم من ذلك أن السمراء التى ماتت هى التى كانت تخطط لهذه الرحلة الخطيرة.

أوحت الطريقة المتعالية التى تتكلم بها جوليانا لعدنان عن حفيظة، بما تضمره فى قرارة نفسها من غيرة بالغة منها ، غيرة المرأة من المرأة ، وبخاصة حين يكون الأمر متعلقاً بوجود رجل ما يهم كليهما معاً ، فقرر عدنان أن يلقى ببالونة اختبار ليتأكد من صدق هذا الهاجس الذى لاح له فى نفسه كثيراً ، فتشجع وقال :

- بلى ، ولذلك سألتك عنها فور استرداد وعيى ، ولكنك صددتينى بعنف بالغ .

- ومازلت لاأسمح لك بالحديث عنها هكذا أمامى .

كانت عينا عدنان تطفحان بالدهشة من أمر هذه الايطالية التى استرسلت قائلة :

- كراهيتى لها ليس لكونى رأيتك رجلى الذى خلقه الإله من أجلى ، بل لكونها شيطان تتمثل بالزور والخداع فى صورة نصفك

الآخر ، هى مخادعة بنت خطة وجودها على استغلال براءتك ، ولو قيض لها أن تحيا لرأيت منها مالاتطيق أوتحب ، ولكن حسناً فعلت أن جاءت بك إلى هنا حيث نصفك الحقيقى ، لقد كنت فى انتظارك دوماً وكنت سأظل العذراء التى فى انتظارك لو لم تأتِ إلى الأبد .

كانت كلماتها مسكرة ، خلبت لبه ، وسحرته ، ولكنه عاد إلى رشده بعد سنة من الغفلة اللذيذة ، وراح يلوم نفسه فى داخله ، فكيف يقف مكتوف اليدين كالحجر الأصم وهو يسمع شتيمة حفيظة ووصمها بالشيطانة ، ودون أن يكون له أى رد فعل يدفع به عنها هذا القذى وهذه الفرايا المجحفة ، وهى التى فعلت المستحيل من أجله لحظة كان قاب قوسين أو أدنى من الموت المحقق ، وكان الضيق قد بان فى وجهه بالرغم من التزامه الصمت طويلاً ، إلا أن جوليانا قالت مستدركة وبنبرة أقل حدة وكمن تملكته حالة من الهلوسة :

- آسفة لكونى قد وصفت هذه السمراء بالشيطانة ، هى كانت كذلك بلا أدنى شك عندى ، أتصور أنك ترفض وصفها بالشيطانة ، ولكن على الأقل أنت من المؤكد لم ترها ملكاً من ملائكة السماء ، أنت لم تكن تحبها ، الحب كان من ناحيتها هى، عرفت ذلك من معانقتها الشديدة لك وعزوفك عنها ، ومن الحرارة التى كانت تنبعث من قلبها بالرغم من برودة جسدها الذى كان مثلجاً ، قد يبدو كلامى متناقضاً بعض الشئ ، معذرة فظهورك فى حياتى قد أربك لى كل حساباتى .

دمعت عينا عدنان من أجل سمرائه وبيضائه وأبنائه وأحبائه وبلده ، وانهالت على رأسه الاسئلة انهلال السيل على رُبى الأرض،

أنحـن الغربـاء أم الحيـاة ؟ ، الحيـاة غريبـة حقـاً ونحـن أغـرب مافيهـا ، ولمـاذا تبـدو صـور الحيـاة بالغـة التعقيـد هكـذا ونحـن معشـر البشـر أبسـط مـن البسـاطة نفسـها ؟، مخلوقـات هشـة رقيقـة ضعيفـة لاحـول لهـا ولاقـوة كتـب عليهـا أن تحيـا فـى مواجهـة عالـم صلـب يحـوى بـين ضفافـه الحديـد والصخـور الجلاميـد والنـار ، أى تناقـض هـذا أن يحيـا الرقيـق البسـيط الـذى تـكاد ذرة الهـواء الملوثـة تـودى بحياتـه فـى خضـم هـذا البحـر الـلاه مـن الجوامـد والحـوارق ، الجسـد لابـد أن يفنـى ، والـروح لابـد لهـا مـن السـكنى فـى عالـم آخـر، هنالـك أحسـت جوليانـا بغصـة شـديدة تعتصـر قلبهـا وقـد انخـرط فـى نوبـة مـن البـكاء الهسـتيرى وقالـت بصـورة انفعاليـة فجائيـة وقـد أوشـكت أن تنصـرف إلـى الأبـد مـن حياتـه :

- أكنت أيها التعس تحبها إلى هذه الدرجة ؟.

ولقـد كان مـن العسـير عليـه أن يجيبهـا بالنفـى ، وأن هـذه السـمراء الحسـناء السـكندرية لـم تمثـل لـه ولا لفـؤاده أى شـئ ، لقـد كانـت أشـبه بالومضـة الخاطفـة التـى سـرعان ماتنـدثـر وتتلاشـى ، تلفـت نظرنـا نعـم ولكنهـا لاتأسـرنا إلـى الأبـد ، ولكـن شـق علـى عدنـان الاقـرار بهـذه الحقيقـة ، وأنـه لـم يحبهـا بـأى شـكل مـن الأشـكال ، وحـين طـال صمتـه، وكان صمتـه الإجابـة الصادمـة فـى ناظريهـا ، قـررت أن توليـه ظهرهـا منصرفـة بلارجعـة ، وكان عدنـان فـى وسـعه أن يتركهـا تمضـى إلـى حـال سـبيلها ، ولكـن مـاأدهشـه مـن نفسـه حقـاً بالـغ الدهشـة ، أنـه قـرر بطريقـة لاشـعورية أن يقـدم لهـا الإجابـة لكـى تبقـى وألا تنصـرف ، فقـال لهـا وهـو يدنيهـا منـه ، ويمسـكها برقـة مـن ذراعهـا :

- كفاها أنها قاتلت الموت من أجلى .

هـذا دأب مـن يبـرر لحبيبـة أنـه لايحـب إلاهـا !! ، ونارديـن حبيبتـك أنسيتها ، وفلسـفتك التـى كانـت مثـار فخـارك واعتـزازك أكفـرت بهـا؟، وهـل تهـاوت كل مبادئـك أمـام سـلطان الفتنـة الشـيطانية ؟ ، كانـت هـذه ثرثـرة النفس ، والتـى تقمصت دور السـائل والمجيب فـى آن واحـد ، لا لا ليس ثمـة فـى الأمـر أى شـياطين ، جوليانـا طاهـرة بتـول ، وفلسـفتى كمـا هـى مازلـت مؤمنـاً بهـا ، وسـأظل كذلـك إلـى الأبـد ، ولكـن مابالـك تتأرجـح بـين الشـك واليقـين ، هـل رابـك فـى ناردين قمـر البحـر السـكندرى شـئ مـا مـع سـطوع شـمس الايطاليـة الشـقراء جوليانـا ، أم أنـه اليـأس والحيـرة يدفعـان بالمـرء دفعـاً إلـى خـوض نـزوة مـن نـزوات النفس ، سـكت عدنـان طويـلاً فـى لحظـة لاحت فيهـا كل الاحتمـالات هـى سيدة الموقف ، وتهـاوت أهرامـات الثقـة فـى نفسـه ، وعلت موجـة الرغبـة فـى الخـلاص ، وصـوت مـن بعيـد يأتـى مـع صـداه المدمـدم ، مـن أعمـاق حنايـا الماضـى القريـب ، كان لفتـى المركـب الهجـرة غيـر الشـرعية الغارقـة وهـو يقـول : «ثـراء وشـقراء وخيـلاء» ، هنالـك أفـاق عدنـان علـى صوتهـا الرخيـم وهـى تقـول لـه :

- دع الشقراء لا السمراء هى التى تخطط لك .

لـم ينـس عدنـان ناردين لحظـة واحـدة حتـى يتذكرهـا ، لقـد كانـت دائمـاً أمـام عينيـه ، وفـى أحـلام نومـه ويقظتـه ، حتـى حـين غـاب عـن الوعـى وشـارفت حياتـه علـى المـوت كانـت مـلء سـواد الغفلـة والذهـول عـن الحيـاة ، ومـن المحتـم أنهـا كانـت رد فعلـه الـذى تلبسـه حـين عانقتـه حفيظـة لحظـة لفظهـا أنفاسـها الأخيـرة فكانـت السـر وراء عزوفـه عنهـا حتـى وهـو

فاقد الوعى بين راحتى الموت ، وتصور للحظة أن جوليانا حين صبغت شعرها باللون الأسود الغطيس قد أصبحت صورة طبق الأصل من حبيبته ناردين ولكن بروح امرأة أخرى ، غير أن الحقيقة كانت تقر بوجود بون شاسع فى الشبه بين الفتاتين المصرية والايطالية ، ولكن خيال المحب سحار ، قلب الايطالية جوليانا فى غمضة عين حبيبة القلب المصرية ناردين ، نعم لقد صارت جوليانا فى ناظريه ناردين ذات الروح الايطالية ، والتى ملكت زمام أمور حياته تماماً ، وراحت تضيف وتحذف من حياته ماشاءت متى شاءت .

كان الوقت قبيل الشروق بدقائق معدودات حين أتته جوليانا بسيارتها إلى الخيمة التى يرقد فيها ، ودعته بلامقدمات أن يغادر الخيمة ويعينها على خلع أوتادها ولملمة كل الأغراض التى تخصهما ووضعها فى حقيبة السيارة الخلفية ، كانت أثناء ذلك عازفة عن الحديث والإفصاح بأى كلمة عما كان يدور فى خلدها، ثم انطلقت بالسيارة بسرعة الريح دون أن تنبس بكلمة واحدة، وعدنان جالساً إلى جوارها فى المقعد الأمامى لاتند عنه أى إيماءة اعتراض واحدة على ماتفعله جوليانا ، وأن بدت فى عينيه التماعة الحيرة بخصوص ماكان ومايكون وماسوف يكون ، وقرب الظهيرة، أفاق عدنان من غفوته على صوت فرامل السيارة وهى تتوقف بشدة ، وجوليانا تستعجله أن يترجل سريعاً من السيارة ، وأن يجرى بكل ما أوتى من قوة عبر الحقول الزراعية ثم ليلتقيا بعد اثنين أوثلاث من الكيلومترات من نقطة التفتيش الموجودة على الطريق السريع ، وذلك تلافياً لأية مشاكل محتملة مع السلطات ، وبسرعة طبعت جوليانا قبلة رقيقة على خده وهى تقول :

- معذرة ، سوف تشقى قليلاً ياحبيبى حتى تكون لك أوراق هوية.

هز عدنان رأسه علامة القبول وأنه متفهم الموقف تماماً ، ثم جرى بكل مايملكه فى جعبته من قدرة بين الحقول الكثيفة الأشجار ، والتى كانت توحى هام أشجارها العالية المناطحة للسحاب بأنه يجرى فى غابة من غابات الأساطير لامجرد أرض زراعية عادية ، بدا عدنان خلال ذلك وكأنه قد دخل فى سبق مع الزمن ، فى المسافة المقدر له أن يقطعها من نقطة انطلاقه وحتى النقطة المعينة والتى عليه أن يبلغها ، ويقابل فيها جوليانا من جديد ، ومضى الوقت مرجرجاً بين السريع والبطئ ، وغابت الشمس ، وخسر الرجل السبق ، وجوليانا التى ركنت سيارتها على جانب الطريق تدخن سيجارة بعصبية بالغة ، وقد بدت كالمجنونة تقف فى عرض الطريق تنظر فى ساعتها بترقب شديد ، وتتطلع إلى كل الجهات عسى أن يظهر لها الحبيب المصرى من هذه الناحية أو تلك ، حتى قر قرارها مع دنو ليل السحر البهيم على أن عدنان فخرى قد سقط لامحالة فى أيدى السلطات الايطالية.

●●●

(٢١)

لم تنم جوليانا ريبورتوس الليل بطوله داخل سيارتها ، وربما كانت بين النائمة الحالمة وبين اليقظانة المترقبة ، فلقد كانت تمنى نفسها بعودة حبيبها المصرى ، ثم اصطحابه فى رحلة طويلة من الجنوب إلى ميلانو فى الشمال ، حيث يعيش عمها جرازيانو فى أطراف خلية النشاط والحركة التى لاتهدأ أبداً ميلانو العاصمة الصناعية لشمال ايطاليا ، ذائعة الشهرة فى الصناعات الثقيلة والتجارة وأعمال البنوك، وكانت تأمل فى أن يساعدها العم الطيب هى وعدنان فى الحصول على العمل والاستقرار بعيداً عن صخب بوفا مارينا والفتى اللعين آندرياس دى لوتشى على وجه التخصيص ، ولعل وقوع المدينة فى وادى نهر بو وبعدها عن الجنوب الايطالى كان سيوفر لهما الكثير من الأمن والاستقرار ، والعيش معاً تحت سقف بيت واحد يملؤه الأطفال وتعمه الفرحة والبهجة والحب ، ولهذا ظلت تترقب الموقف الليل بطوله خشية من أن تكون قد فقدت حبيبها المصرى إلى الأبد ، والذى لم تدر حتى الآن سبباً واحداً أعاقه عن اللحاق بها بعد اجتياز نقطة التفتيش باثنين من الكيلو مترات ، وراح ذهنها سريعاً يضع العديد من التصورات المتنوعة ، والتى أزعجتها جميعاً ، فتارة تتصوره وقد وقع فى كمين رجال الشرطة ، وتارة أخرى تعتقد فى كونه قد ضل الطريق أو أن حادثاً ما أليماً قد ألم به وهو فى سبيله للحاق بها ، وتارة أخيرة وكان أبشع تلك التصورات فى ناظريها على الإطلاق ؛ أن يكون قد وقع ضحية لآندرياس العتيد فى الاجرام والمشتبه فى كونه أحد عملاء

المافيا السريين ، فهبت خارجة من السيارة وفى يدها هاتفها المحمول، وطلبت من غير مراعاة لتأخر الوقت صديقتها سونيا ، والتى ردت على الطرف الآخر منزعجة وهى تتثاءب :

- جوليانا هل جننتى ، هل هذا وقت مناسب للاتصال .

- سونيا لاوقت للعتاب الآن ، أنا الآن خارج بوفا مارينا ، هناك كارثة اريد منك مساعدتى فى التحقق منها .

استوت سونيا جالسة فى الفراش وقالت باهتمام :

- كارثة !!؟.

كان آندرياس دى لوتشى آنذاك فى رفقة كلبه الماستيف العملاق، ومجموعة من قرنائه المتهورين مثله يفتشون فى أطراف بوفا مارينا عن جوليانا والمهاجر غير الشرعى ، كانت نية آندرياس كما أفصح لمن معه أنه سيقتل ذلك المهاجر المتطفل بأى ثمن ، ولن يسلمه للسلطات ومهما كان إلحاح جوليانا ريبورتوس شديداً ، وإن توسلت إليه بالدم والدموع ، بعد أن أهانته وفضلت عليه هذا الارهابى القح ، وراح يصرخ بعلو حسه فى عتمة الليل :

- لنطهر شواطئنا من هؤلاء الإرهابيين المجرمين ، حتى أنتِ ياجوليانا لن أرحمك إن وقفتى حائلاً بينى وبين هذا الكلب اللعين .

وعند منطقة ما قريبة من الشاطئ نبح الكلب نباحاً طويلاً جنونياً، وهو يحاول الفكاك من عقاله بأى طريقة ، فقال آندرياس لمن معه :

- لقد كانا هنا ، هيا نقتص أثرهما سريعاً .

كان الظلام شديداً للغاية ، ولايكاد يسمح للمرء برؤية حتى أصابع يده ، وأحس عدنان الذى لم يقف لنفسه على حال يمكن أن يصف بها نفسه أكان حياً أم ميتاً ، واقفاً أم ممدداً ، سليماً معافاً أم مضرجاً فى دمائه ، فوق الأرض أم تحتها ، أو كأنه قد وقع فى جوف حوت يونس عليه السلام ، وهو الذى بالأمس القريب جاء طافياً على صفحة اليم كطفل بنى اسرائيل موسى عليه السلام ، وكتب له الله النجاة من نيران خفر السواحل كما أنجى إبراهيم أبى الأنبياء عليه السلام من النار ، وبات فى مسيس الحاجة لخوارق عيسى المسيح بن مريم ، ولجنى سليمان كى يخلصه مما هو فيه أو بالأحرى لإيمان سيد الأنبياء أجمعين محمداً صلى الله عليه وسلم ليثبته على ماهو عليه ، وليثنى نفسه عن اليأس والانهيار الذى كان على حافته بلا أدنى ريب ، فلا شبح ولاصوت ولاحس ولاخبر ، وكأنه ولج فى فجوة زمنية أخرجته من نطاق عالمه المحسوس ، وأسكنته فى جوف عالم غامض تمام الغموض، وحاول جاهداً أن يتذكر كل مادار خلال الساعات القليلة المنصرمة ، من لحظة ترجله من سيارة الشقراء جوليانا ريبورتوس ، وحتى إطلاقه ساقيه للريح بين التلال والمروج الخضراء ، كانت الشمس لطيفة والهواء منعشاً ، والأطيار فى أكنتها تشدو وتغرد ، ولولا الضرورة ودخوله فى سبق البقاء أو الفناء مع الزمن ؛ لألفى نفسه رغماً عنه يحلق فى أجواز الفضاء ويسبح كالطيور فى السماء ليرى جنة من جنان الله فى الأرض ، ثم كان ماكان والذى راح عدنان يخمنه مع نفسه ، وأنه قد يكون سقط فى قاع حفرة عميقة جداً ، وفجأة أحس ببصيص من

النور يأتى من فوقه المرتفع للغاية ، ثم بدأ شخص ما فى الخارج لم يتبينه عدنان بالمرة يسكب أقذاراً وروثاً ورائحة نتنة لم يشم لها مثيلاً من قبل فى حياته فأطلق صرخة رهيبة ، وهب واقفاً كى يتخلص من تلك الأقذار الكريهة ، وهو يبحث بتلقائية عن أى شئ يستند إليه أثناء تقيؤه ، فاستند إلى العدم فترنح وسقط ، ثم انسكبت سيولاً أخرى من الأقذار والجيف العفنة فى قلب الجُب العميق حتى غمرته تماماً لأم رأسه ، فصرخ صرخة مدوية وكأنه يودع بها العالم .

مات عدنان فخرى ..

أو هكذا تمنى وهو يقاوم بكل مأأوتى من قوة أولئك الذين كانوا يحاولون إعادته للحياة ، كان يكره الموت ولكنه لم يفر منه، بل خيل إليه أن الموت هو الذى يفر منه كلما أوشك أن يدركه، وكأن الموت قد أصبح فى حوزة قبضة يد ذراعه الممدودة إلى الأمام ، يحاول أن يمسكه ، يفرد أصابعه عن آخرها ، وحين أمسكه أفاق فزعاً على أجمل وجه فى الوجود يمكن أن يقع عليه بصر إنسان ، وجه رد إليه الأمان والطمأنينة فى الحال ، ابتسمت تيرهينيا ابتسامة رقيقة وهى تتحاشى أن تنغرز أصابعه فى عينيها الزرقاوين ، وقالت بالايطالية :

- استرح من فضلك .

شرع عدنان يجيل النظر من حواليه فى بيت ريفى بسيط ذى طابع أوربى قليل الحداثة ، وحتى يتأكد من كونه لم يزل بعد حياً يرزق ، ثم توقف بصره عند وجه الفتاة المريح ، والتى أحس وهو يديم النظر إليها وكأنه قد نظر فى وجه كل نساء الدنيا ، فتاة هى الشرق

والغرب معاً، هى ناردين وحفيظة وجوليانا وغيرهن فى وقت واحد، هى البحر فى زرقة عينيها اللامعتين ، أحس بذلك وهو الذى لم يدرك بعد أن أباها ديل بوبولو قد أسماها تيرهينيا تيمناً باسم البحر الذى يحمل ذات الاسم والذى يحبه ويعشقه أيما عشق ، كان وجهها غريباً بالفعل، يتشكل فى التو واللحظة حسبما يشاء المرء لاكيفما أريد له أن يكون ، ولأمر ما خيل لعدنان أن هذه منة إلهية اختص بها وحده دوناً عن سائر البشر، وبتلقائية بريئة راح يتقصى حركاتها وسكناتها وحتى خلجات وجهها، والذى تهلل تماماً وهى تقف قائلة :

– مرحى مرحى لقد أفاق جوزيف .

ومن ناحية ما اندفعت تولا الأم والأب العجوز ديل بوبولو ومجموعة من الفتيان والفتيات ، فاستطردت تيرهينيا قائلة :

– جوزيف هؤلاء أفراد عائلتى، أمى وأبى وأشقائى وشقيقاتى.

هز عدنان رأسه نصف هزة ترحيب وقد فهم أنه المقصود، وساورته الدهشة فى البداية من هذا الاسم الذى تناديه به تلك الهيفاء الريفية الفارعة الطول ، ولكن سرعان مابرر هذه التسمية فى نفسه بأنه ربما بدا فى ناظريها مثل ابن يعقوب يوسف عليهما السلام ، الذى ألقاه أخوته فى قاع جب سحيق ، ولقد صدق حدسه دون أن يدرى ، حيث طابق إحساسه كلمات ديل بوبولو الذى شرع يقول بالايطالية التى لايفهمها عدنان :

– أنا من اخترت لك مؤقتاً هذا الاسم الذى تناديك به تيرهينيا ابنتى ، لأننا أخرجناك من البئر كما أخرجوا جوزيف من البئر منذ آلاف السنين .

اضطجع عدنان فى رقدته ، وهو يتفرس فى الوجوه المشرقة من حوله ، فيما قالت الفتاة وهى تكتم ضحكة بيدها :

- الفارق بين الجوزيفين أن الأول لم يلق عليه أحد قاذورات حظيرة الخنازير ، مثل التى ألقيناها نحن عليك فى تلك الحفرة العميقة التى سقطت فيها .

- يوسف عليه السلام .

قالها عدنان دون أن يفهم شيئاً مما قالته تيرهينيا ، لعلمه أن جوزيف هو الذى ينطق معشر العرب اسمه يوسف ، ثم خمن فى نفسه أنهم قد وضعوا الحدثين فى مقارنة واحدة ، غير أن مالقيه هو فى الجب كان الأسوأ والأبشع فى التاريخ الانسانى بحسب ماتصور ، وهذا مادعا الأم تولا تدنو منه وتمسح على رأسه برفق قائلة :

- هلا سامحتنا ياجو على هذه الاساءة التى لم نقصدها بحقك، فأحشاء وروث الخنازير أشياء بشعة لاتطاق .

فجلجل ديل بوبولو بضحكة مدوية وهو يدس سيجارة بين أسنانه الصفراء المهشمة وقال :

- الشكر للرب الذى أعاقنا عن سكب البنزين والنار فى الحفرة لحرق هذه المخلفات القذرة ، وإلا كان مصيره النار الآن مع جيف الخنازير .

ضحك الجميع أللهم إلا عدنان الذى استوى جالساً فى الفراش البسيط وقد تعقد وجهه تماماً ، ولكن حين لاح وجه تيرهينيا ديل

بوبولـو فـى سـبيله وهـى تضـع صحيفـة طعـام فـى حجـره، انفرجت أسـاريره للغايـة وهـو لايصـدق أنـه ينظـر إلـى الثـلاث نسـاء فـى وقـت واحـد ، هـى ناردين ، هـى حفيظـة ، هـى جوليانـا ، وهـى تيرهينيـا أيضـاً ، بـل هـى أى جميلـة مـن جميـلات الوجـود اللائـى قـد يخطـرن علـى عقـل بشـر ، وحـين أحسـت الفتـاة بعدنـان الـذى أطـال إليهـا النظـر بصـورة ملحوظـة ارتبكـت، ونشـفت فـى جلدهـا ، وقـد أحسـت هـى الأخـرى برغبـة عارمـة فـى أن تـديم كذلـك إليـه النظـر بعينيهـا الزرقاويـن اللتـين ترتعـش فيهمـا شـعيرات فضيـة براقـة ، ولـم يكـن ذلـك بـداع الاعجـاب وإنمـا لإحسـاس مـا غـريـب أصابهـا ، وأنهـا لـم تعـد امـرأة واحـدة كمـا كانـت ، بـل صـارت المـرأة التـى تجسـدت فيهـا كل نسـاء الأرض ، وعدنـان يكـاد يصـرخ صرخـة مدمدمـة : أن هـذه وكفـى ، فـى هـذا الوجـه الكفايـة ، وداخـل ذلـك القلـب الثـاوى بـين جناحيهـا ، ومـع خصـلات شـعرها الذهبيـة الحمـراء السـوداء المتطايـرة سـوف أجـد ضالتـى المنشـودة ، هـى جوليانـا الشـقراء ، هـى حفيظـة ذات الحنـاء الحمـراء ، هـى ناردين ذات الشـعر الأسـود الفاحـم ، أمـر عجيـب حقـاً ، وأى عجـب ، فلِمَ لا أبقـى هاهنـا حيـث راحتـى الأبديـة التـى سـاقتنى إليهـا الأقـدار ، ثـم نظـر إلـى حيـث ديل بوبولـو كان واقفـاً فـى زاويـة المكان يمعـن فيـه النظـر ، فهتـف بـه فـى أعمـاق نفسـه وكأنمـا يقـول لـه راجيـاً إيـاه : ليتـك تكـن لـى كشـعيب عليـه السـلام وسـتجدنى كموسـى ان شـاء اللّه القـوى الأمـين .

دبـت روح عجيبـة فـى عدنـان فخـرى بأسـرع ممـا كان يظـن، والـذى غـادر الفـراش كالفـرس الجامـح إلـى النافـذة وتطلـع إلـى الخـارج ، حيـث كانـت الشـمس المشـرقة قـد افترشـت الأرض الخضـراء الممتـدة إلـى

خـط الأفـق البعيـد ، وكانـت تيرهينيـا مـع آخريـن يفلحـون الأرض، كانـت ترتـدى ملابـس ذكرتـه بماكانـت ترتديـه نسـاء الكاوبـوى فـى أفـلام الغـرب الامريكـى، غيـر أنهـا لـم تبـد مكشـوفة النهديـن مثـل صوفيـا لوريـن ومارلـين مونـرو، ولاعاريـة السـاقين مثـل ليـزا مانيللـى وبريجيـت بـاردو ، بـل كانـت تبـدو كشـخصية متحفظـة ورقيقـة للغايـة وهـى تضـرب بالفـأس وجـه الأرض ، فدنـا منهـا وقـال وعلـى شـفتيه ابتسـامة عريضـة :

- أنـتِ تربتـين بفأسـك علـى الأرض بحنـان جـارف ، أتصـور أنهـا لونطقت لـن تصـرخ ألمـاً بل طربـاً ، ولـن تقـول لـكِ أوجعتينـى بـل خدرتينـى برقـة ضرباتـك .

لـم تفهـم تيرهينيـا شـيئاً ممـا قالـه عدنـان بالإنجليزيـة ، ولكنهـا مـع ذلـك تبسـمت لـه وهـى ترمقـه بنظـرة سـريعة أثنـاء انهماكهـا فـى العمـل :

- لقد طبت سريعاً !.
- ماذا تزرعين فى الأرض ؟.
- هل أعددت لك تولا وجبة الإفطار أم أعدها أنا لك ؟.
- دعينـى أحمـل عنـك هـذه الفـأس ، لأن يديـكِ أرق مـن أن تتحمـل كل هـذا الجهـد الشـاق .

تنـاول مـن يدهـا الفـأس ، وراح يعـزق الأرض ويكشـف سـطح التربـة ويعرضهـا للهـواء ، ويزيـل مايجـده مضـراً ، وبعـد فتـرة رفـع رأسـه نحوهـا وقـال وهـو يصلـب عـوده ويشـد ظهـره لأعلـى :

- الأرض جاهزة الآن لتلقى البذور .

فضحكت وهـى تأخـذ الفـأس مـن يـده قائلـة وقـد انخرطـت فـى إعمـال المعزقـة فـى الأرض :

- ماقمـت بـه ليـس كافيـاً بالمـرة ، أنـت تذكرنـى بأخـى الصغيـر امبيرتـو ، يلهـو أكثـر ممـا يعمـل .

لـم يفهـم ماقالتـه ، ولكـن واقـع الحـال كان أبلـغ مـن أن يفسـر ، فتبسـم قائـلاً وهـو يراقبهـا عـن كثـب :

- معذرة ، أنا لم أزرع شيئاً فى حياتى من قبل .

صمـت قليـلاً ثـم دنـا منهـا حتـى أصبـح يظلـل رأسـها تمامـاً ، وقـال غيـر مخـف نظـرات عينيـه المعجبـة بهـا :

- أتصـور أنـك أجمـل وأرق فلاحـة رأيتهـا فـى حياتـى ، بـل لا أتصـور أنـه توجـد امـرأة فـى الوجـود تضاهيـك فـى الجمـال والروعـة.

للمـرأة أجهزتهـا المرهفـة للغايـة والتـى مـن خلالهـا يمكـن رصـد أيـة إشـارة إعجـاب واردة مـن هنـا أوهنـاك ، ومهمـا كانـت درجـة خفوتهـا ، فمـا بـال عدنـان والـذى كان يرسـل فيضـاً مـن تلـك الإشـارات دون أن يـدرى ، فابتدرتـه قائلـة وكأنمـا لتثنيـه عـن تلـك النظـرة المسـتمرة إليهـا :

- جـو ، أنـا لاأفهمـك وأنـت أيضـاً لاتفهمنـى ، فلِـمَ لانتحـدث معـاً بلغـة الاشـارات .

شـرعت تيرهينيـا تتحـدث إلـى عدنـان قـدر اسـتطاعتها بلغـة الاشـارات ، وبقـدر اسـتطاعته هـو أيضـاً حـاول أن يفهمهـا ، وأن يجاريهـا فـى الحديـث فـى الوقـت ذاتـه ، وحيـن تماديـا فـى حديـث الاشـارات وجـد

نفسه عاجزاً عن البوح لها بما كان يسره فى جعبته من إعجاب شديد بها ، فعاد ليكلمها هذه المرة ولكن بلغة الملامسة والحديث الذى يخرج من بين الشفتين همساً ، فاضطربت وتراجعت إلى الوراء وهى تقول :

– مهلاً مهلاً أيها الغريب .

كان رد فعل وجهها المنزعج هو اللغة التى فهمها ، فقال لها وهو يسحب يديه كالمصعوق إلى الوراء بعيداً عنها ، ويهز وجهه المندهش بعلامة كونه لا يقصد شيئاً مسيئاً لها بالمرة :

– لامستك كى أتأكد من كونك امرأة حقيقية لا أسطورية ليس أكثر ، وحين همست لكِ كنت أعلن دهشتى العظيمة ، كيف يبدو حديثى معك وكأننى أكلم كل نساء العالم ، ناردين ، حفيظة، جوليانا ، حتى أمى وجدتها فى وجهك البديع فهل أصبحت مخرفاً مجنوناً .

عند ذاك فهمت تيرهينيا كل شئ ، بعد أن اعترتها رعشة خفية ولكنها أحست أن العالم قد تزلزل كله على أثر ارتعاشتها، تراجعت إلى الوراء وهى مسلطة عيناها عليه ، لم تفه بكلمة واحدة، ولاهو كذلك، ولكنهما حين انصرف كل واحد منهما فى اتجاه ادرك أنه قد فهم الآخر تماماً ، وأنهما مهما سارا مبتعدين عن بعضهما البعض فأنهما سيلتقيان فى النهاية ، وربما هذا ماقالته لهما اللغة اللحظية التى تخلقت بينهما بداع الحاجة والضرورة ، لقد كانت حقاً لغة عجيبة لم يتحدثها بشر من قبل، ولكنهما أجاداها بسرعة مذهلة ، فقالت له غاضبة وهى تجر حصاناً من لجامه كان يحمل برسيماً على ظهره ، وقد شرع عدنان يلاحقها فى الظلمة الخفيفة التى خلفتها تشابكات

أغصان الأشجار العالية، والتى مع ذلك لم تمنع تماماً تساقط أشعة الشمس من خلال فروعها الكثيفة ، إلى أرض الغابة العظيمة التى كان يمضيان خلال آجامها الكثيرة :

- كان سيسرنى أكثر أن تكون تيرهينيا وحدها هى من هفا إليها قلبك أيها الغريب فى كل شئ .

- ولكن ماحيلة الغريب الذى اجتمعت له كل نساء الأرض فى امرأة واحدة .

- فى النهاية سوف تستخلص منى امرأة واحدة ، المرأة التى تهمك فحسب ، وتدع البقية فرائس للوحوش الضارية .

ثم استدارت نحوه وهى تضرب بيدها الحصان على مؤخرته بعصبية ، والذى انطلق كالريح وقد استطردت قائلة :

- هذا الحصان يعرف وجهته جيداً ، أما أنت أيها الآدمى المعتوه فتختزل حيرتك فى شخصى ، وتقر باسطورة تؤكد لى أنك غير طبيعى بالمرة ، أنا تيرهينيا ديل بوبولو فقط ، ولست أية واحدة من المغفلات اللائى ذكرتهن لى ، هيه أيها العاشق الساذج، كيف تجثو على ركبتيك أمام حبيبتك وبين يديك أكاليل الزهور ، ثم تقول لها حبيباتى فلانه وفلانه وعلانه ، ثم تريدها أن تقبل منك ورودك اللعينة .

تمهل عدنان قبل أن ينطق بشئ ، سحب نفساً عميقاً إلى صدره ثم قال متسائلاً بنبرة هامسة :

- أتغارين ؟.

- نعـم أغـار ليـس منهـن أومـن غيرهـن ، ولكـن علـى فكـرة الحـب القدسـية نفسـها ، تلـك التـى يدنسـها أمثالـك .

عـاد عدنـان وهـو يجـر أذيـال الخيبـة والحيـرة إلـى اسـطبل الخيـل الـذى اختـاره منـزلاً لـه ، أثنـاء تلـك الفتـرة القصيـرة التـى قـدر لـه أن يبقاهـا فـى كنـف عائلـة ديل بوبولـو ، كان إحساسـه بالتسـرع والاندفـاع هـو مايسـيطر عليـه ، والـذى جلـب معـه مـن أعمـاق نفسـه كل مشـاعر النـدم والملامـة ، والشـك فـى كونـه عاقـلاً يخاطـب امـرأة أمامـه لا المـرأة التـى يتمنـى ويتخيـل أنهـا أمامـه لحمـاً ودمـاً ، ولقـد صدقـت تيرهينيـا حـين قالـت لـه : « فـى النهايـة سـوف تسـتخلص منـى امـرأة واحـدة ، المرأة التـى تهمـك فحسـب « ، أمـا مالـم تقلـه فقـد سـمعه منهـا بلسـان حالهـا : « والتـى لـن تكـون أنـا بحـال مـن الأحـوال فـلا تضيـع الوقـت عبثـاً « ، وعلـى مرمـى الأفـق سـاعة الغـروب لمحهـا واقفـة عنـد حافـة جـدول المـاء تدعـك للفـرس أرجلـه بيديهـا فـى المـاء ، وحـين اقتـرب منهـا التفتـت إليـه قائلـة :

- المياه شئ رائع جداً لمعالجة عظام الخيول والإنسان كذلك.

أحـس عدنـان لأول وهلـة أن الفتـاة قـد اسـتبقته إلـى توجيـه عنـان الحديـث بعيـداً عمـا كان يصبـو إليـه ، كانـت نيتـه بالفعـل الاعتـذار وأن يحدثهـا بشـأن تسـرعه ، غيـر أنـه أحـس بأنهـا ربمـا تسـتمهله حتـى لايتسـرع بـوأد طوفـان تلـك الومضـة الحالمـة التـى تشـع مـن عينيـه كلمـا رنـا إليهـا، وأنهـا لاتمانـع فـى أن تكـون فرسـاً فـى رهـان مضمـار القلـب بـين أولئـك الرامحـات فيـه ، ضـرب عدنـان جبينـه وكأنمـا ليفيـق نفسـه بنفسـه، أى هذيـان هـذا ، أم أن وجـود المـرأة - أى امـرأة - فـى سـبيل الرجـل

يفرض عليه بالضرورة عملاً جبرياً وقصصاً أسطورية من نسج الخيال يعيشها مع نفسه أكثر مما يعيشها مع هذه أوتلك ، وحتى يصل فى النهاية إلى هوية الفتاة التى يبغاها حقاً ، أو بالأحرى نصفه الآخر ، وربما كان هذا يليق بغيره من الرجال فأفيليق به وهو من حسم هذا الأمر مبكراً ، ومنذ لحظة ظهور ناردين صبرى فى حياته ، فماذا عساه يريد من هذه المرأة الايطالية الجميلة ، سؤال ظل بلا جواب ، بل تهرب من أن يجد له جواباً ، كان يعتقد أن مجرد التفكير فى مثل هذا السؤال ومحاولة إيجاد إجابة له هو خيانة لنصفه الآخر الذى اهتدى إليه يقيناًعلى شط الاسكندرية ، والحقيقة المطلقة التى لايصلح معها شبهة شك ، فلاشك أن ناردين هى الحب والحب هى ، فماذا عساكِ تكونين أيتها التيرهينيا الحسناء .

كان فى وسعه أن يمضى منصرفاً من المكان بأسره ، ثم ليشرع فى العودة إلى بوفا مارينا ، وليسلم قياده من جديد للتى تحبه كما أحبته حفيظة من قبل ، لجوليانا التى قررت أن تخطط له ولها ، ولهما معاً، فخاب ظنهما بعد أن وضعت الأقدار خططها لكليهما معاً، ثم أجرتها بمشيئتها هى ، لابمشيئة أى كائن من كان .

ولكن جوليانا كانت فتاة عنيدة وأبت أن ترفع راية الاستسلام لطرقات القدر المتلاحقة فوق رأسها ، والتى أمست كالمجنونة وأصبحت طوفاناً من الغضب ، فقررت أن تعود أدراجها ليس إلى بوفا مارينا وإنما لنقطة التفتيش ، واقتربت من ضابط النقطة ، وسددت صورة المصرى عدنان فخرى التى خزنتها فى ذاكرة هاتفها المحمول فى وجهه وهى تقول :

- هل وقع هذا الشخص فى قبضتكم ؟.

نظر الضابط ملياً إلى الصورة وقال وهو يهز رأسه بالنفى :

- نحن نبحث عنه بالفعل ، من أين لكِ بهذه الصورة ، وهل تربطك علاقة ما به ؟!.

- هو مهاجر غير شرعى قادم من مصر ، جدوه لى بأى ثمن، وان رحلتموه فلسوف ارحل معه إلى مصر أو حتى إلى آخر الكون .

قالت جوليانا ذلك بلسان حالها فقط ، والتى شردت بعيداً ، وتنهدت أسفاً ، وارتمت فى أقرب مقعد قابلها ، وهى تكاد تتوسل إلى الجميع أن يجدوا لها فتاها الذى شغفها حباً بلاسبب معلوم، وأجهدها وأنهكها وكأن الحب الذى تطويه فى نفسها داء عضال لم يبح بسره بعد ، وجعلها تتخبط فى دياجير الظلام وكأنما ليتحداها هى وجميع العشاق أن جدوا بعضكم بعضاً ليس بنورى ولكن بنور الاحاسيس المرهفة التى تغمركم من الداخل إن كنتم صادقين .

●●●

(٢٢)

بـات عدنـان ليلتـه أرقـاً حتـى مطلـع الصبـح ، وحـين غفـت عينـاه قليـلاً، أفـاق علـى صـوت صـاخب خـارج اسـطبل الخيـل ، لـم يعـره انتبـاهـاً فـى البدايـة أللهـم إلا مـع ازديـاد حـدة جلبتـه ، فقـام يستكشـف الأمـر مـن خـلال النافـذة التـى تطـل علـى الناحيـة الكائـن فيهـا بيـت عائلـة ديـل بوبولـو، وكانـت المفاجـأة التـى لـم يتوقعهـا أبـداً ، راح عدنـان يفـرك كلتـا عينيـه بظهـر يديـه وهـو لايصـدق نفسـه وهـو يكـاد يصـرخ قائـلاً : «ياإلهـى، هـل هـو خـداع بصـرى جديـد ؟ ، هـل مـاأراه بـأم عينـي واقعـاً حقـاً أم هـو الحلـم والخيـال والجنـون بعينـه !؟ » .

خـرج مندفعـاً بـكل عزيمتـه مـن الاسـطبل وهـو يدفـع الخيـول مـن سـبيله بحـدة ، بعـد أن لاحـت لـه مـن بعيـد ، وقـد وقفـت حائـلاً بـين فالنتينـو مـن ناحيـة وبـين تيرهينيـا مـن الناحيـة الأخـرى واللذيـن كانـا يتشـاجران بالألسـنة ، بعد أن كاد خلافهمـا يتطـور إلـى التدافـع بالأيدى ، بينمـا تحلـق مـن جميـع الجوانـب الأب والأم والأشـقاء والشـقيقات وآخريـن مـن أهـل البلـدة ، لـم يبـال عدنـان بأحـد غيرهـا وهـو مندفـع فـى طريقـه إليهـا كالمخدر ، ثـم شـدهـا برفـق مـن يدهـا دون اهتمـام بالواقفين ، وقـال وهـو يهـز رأسـه غيـر مصـدق نفسـه :

– أى مفاجأة تلك ! ، ناردين !!.

نظرت الفتاة نحوه وهى فى غاية الاندهاش ، فيما استطرد عدنان قائلاً وهو يحاول الابتعاد بها بعيداً عن دائرة الصخب المنصوبة، والتى هدأت شيئاً فشيئاً بعد تصرفه الغريب هذا :

- تعالى ياحبيبتى ، قلبك هو الذى دلك على هنا ، حيث أكون، أليس كذلك !؟.

- ....

اندفع فالنتينو فجأة ناحية عدنان وقال وهو يشدها من يده عنوة :

- دعها وشأنها هل أنت معتوه .

وحين حاول عدنان المقاومة دفعه بعنف ، فالنتينو ذلك الضخم الجثة كثور هائج ، فجرت تيرهينيا ناحية عدنان الملقى أرضاً وهى تقول :

- النساء كلهن أصبحن فى ناظريك ناردين ، والتى كنتها أنا بالأمس القريب ، وتكونها هذه الآن ، ولاندرى مَنْ ستكونها غداً !؟.

- هذه هى ناردين ، لايخدعنى أحد ، ناردين تكلمى ، قولى لهم من أنتِ ومن أنا .

هزت الفتاة كتفيها مبتسمة وهى تزيح خصلات شعرها الطويلة جانباً ، فيما قالت تيرهينيا بعصبية بالغة :

- هذه فيولا ابنة عمى رومانو ، وهذا شقيقها فالنتينو وخطيبى، أقصد الذى كان خطيباً لى .

- تيرهينيا، هل أنتِ مجنونة ، أتفسدين علاقة سنوات من الحب من أجل سقطة صغيرة .

- هى فى ناظرى السقطة من فوق جبال الألب الشاهقة ، أى لاحياة بعدها ولافواق .

لوح فالنتينو بجانب قبضة يده فى وجه تيرهينيا فى إشارة منه لشدة الحميمية التى يضمرها لها فى نفسه ، ودخل بعدها فى الموضوع مباشرة .

- تيرهينيا ، أنا أفرطت فى الشراب ، ولا أنكر أننى قد عاشرت إليندا وأنا فى غير وعى منى ، ولكن بجسدى فقط لأن قلبى كان ولسوف يظل معكِ أنتِ وإلى الأبد ، تيرهينيا أنتِ حبى الأوحد والأخير.

وفى الحال وضعت تيرهينيا يدها اليسرى بحسب العوائد الايطالية الشعبية على جانب ثديها الأيمن ، كرد عكسى منها على إشارة فالنتينو الحميمية ، وكأنما سمعت خبراً حزيناً وقالت وهى تبصق فى وجهه :

- أنت خنزير قذر .

ثم اندفعت تيرهينيا ناحية حقول القمح لتستكمل عملها وقد استطردت فى ثرثرتها قائلة :

- إليندا الحقيرة السافلة ، أفعى أغوت فاسداً مثلك بجسدها الألعوبان ، مثل كثيرين من مغفلى بلدتنا ، وأنت قذر نجس لم تدخل الكنيسة مرة واحدة فى حياتك ، ووقعت كالثور الأبله

فـى براثنهـا بلامقاومـة ، وأنـا لـم تعـد لـى حاجـة فيـك ، هيـا عـد إلـى عاهرتـك وانظـر مـاذا حملـت لـك فـى أحشـائها ، هـه ابـن شعب القياصـرة البـار .

- اقسـم لـك أنهـا قـد غافلتنـى ووضعـت لـى مخـدراً فـى فنجـان القهـوة ثـم سـقتنى كأسـاً مترعـة بالنبيـذ المعتـق فـكان مـاكان، تيرهينيـا ، اغفـرى لـى كمـا غفـرت لـك زلتـك القديمـة مـع جيوفانـى اللعـين .

أخذ فالنتينو يقول ذلك أثناء اندفاعه فـى أثرهـا كالمجنـون ، والـذى لـم ينـس أمـر عدنـان قـط ، واكتفـى برفـع ذراعـه اليمنـى لـه كمـن يحمـل مظلـة ، فيمـا بسـط يـده الأخـرى أمامهـا بمعنـى أن يذهـب إلـى الجحيـم بحسـب الإشـارة الشـهيرة التـى اعتـاد عليهـا الطليـان .

كان عدنـان سـاهماً تمامـاً آنـذاك ، والـذى ظـل مفترشـاً الأرض وهـو يتفـرس فـى وجـه فيـولا كالمسـحور ، وكان مااسـترعى انتبـاه كلاً مـن ديـل بوبولـو وزوجتـه تـولا بشـدة فيـولا التـى لاذت بالصمـت تمامـاً، وانشـغلت للغايـة عـن أخيهـا وخطيبتـه تيرهينيـا بهـذا الشـرقى السـاحر الوسـيم ! ، وهـى التـى كانـت قبـل قليـل مـن أكثـر المتحمسـين لحـل مشـكلة فالنتينـو مـع تيرهينيـا ، بـل لـم تكـف لحظـة واحـدة عـن الصـراخ فـى وجهيهمـا كـى يكفـا عـن الشـجار ، وتبـادل الاتهامـات الجزافيـة والشـتائم البذيئـة ، كذلـك نسـى عدنـان نفسـه والبحـث عـن السـر الغامـض الـذى جذبـه إلـى تيرهينيـا التـى تشـبه كل نسـاء العالـم، كانـت فيـولا بالنسـبة لـه لحظتهـا كشـعاع الشـمس البالـغ الشـدة الـذى طغـى علـى مـدى رؤيتـه ، فلـم يعـد يـرى إلاهـا ، لكونهـا

ناردين وليس لكونها أى شئ آخر ، فقام بترابه ووحلة الأرض المبللة التى علقت بسرواله من الخلف ، وكالمغيب جعل يتقدم منها وقد بسط راحتى يديه إلى الأمام نحوها هامساً :

- ناردين .

فهتف به ديل بوبولو بالايطالية قائلاً بحدة :

- هيا إلى عملك إيها الأجير .

نظرت فيولا بدهشة إلى هذا المجترئ الذى يناديها باسم غير اسمها ، ثم إلى يديه الممدودتين عن آخرهما نحوها ، ولكن الأم تولا سحبتها جانباً قبل أن تقدم على أى رد فعل فضولى حيال هذه المفاجأة، وصاحت فى عدنان قائلة :

- وبعداً لك ياهذا ، لونجهينا ابنى ، لايرحم من يتجرأ على مشاغلة فتاته فيولا رومانو دى مارتينى فى غيبته ، لونجهينا غيور جداً ولايتورع عن قتل من لايعجبه اسمه أو هيئته حتى ، فمابالك بمن يحملق فى قطته هكذا !.

لم يفهم عدنان كل الذى قالته تولا بالضبط ، ولكن مجرد ذكر اسم لونجهينا أمامه أيقظ فيه إحساس الخطر المحدق به ، فلقد كان على بعض العلم بلونجهينا هذا من أخته تيرهينيا ، وأنه يحيا حياته كمجرمى المافيا الخطيرين ، وأن السلاح الذى يدسه دائماً فى ثنايا سترته ، هو اللغة الوحيدة التى تعود أن يتكلم بها فى حياته ، ولكن ذلك لم يثنه عن القول بالانجليزية كالمأخوذ :

- هـذه هـى ناردين سيدة تـولا ، ليسـت فيـولا ، هى جاءت خصيصاً من أجلـى ، ناردين تكلمـى .

هـزت فيـولا كتفيهـا علامـة عـدم الفهـم وإن لاحـت ابتسـامة إعجـاب خافيـة فـى وجههـا ، ثـم اسـتدارت منصرفـة ، ليـس إلـى المكان الـذى توقعه الجميع ؛ وحيث وقـف مـن بعيد كل مـن تيرهينيا وأخيها فالنتينـو يسـتكملان مشـاجرتهما الهزلية ، بـل ذهبـت بعيـداً جـداً ناحيـة التـلال الخضـراء ، وحيـث ألقـت الشـمس أسـهم أشـعتها الذهبيـة علـى رءوس الأشجار العالية ، وخلفت غمامة من الظلال بين غابات أشجار الصنوبر المتشـابكة الأغصـان بكثافـة شـديدة ، والممتـدة إلـى مرمـى البصـر، كان عدنـان بالأمس القريب قد جـرى فـى الاتجاه ذاتـه فـى أثـر تيرهينيـا التـى كان يـرى فـى وجههـا وجـه حبيبتـه وأوجـه كل نسـاء الدنيـا ، أمـا اليـوم فهـو يجد أن لزامـاً عليـه أن يبـذل أقصـى مالديـه مـن طاقـة لكونـه يسـعى فـى أثـر حبيبتـه ذاتهـا ، فهـو لايريـد أن يرسـل إليـه قـدره كل نسـاء الأرض، بل حبيبتـه فقـط وكفـى ، وحـين سـارع يمضـى فـى نفـس الاتجـاه الـذى سـارت فيـه فيـولا اعتـرض ديـل بوبولـو سـبيله قائـلاً وهـو ينهـره بحـدة :

- تيرهينيـا توسـلت إلـى مـن أجـل بقائـك هنـا لبعـض الوقـت ، فلاتضطرنـى بسـوء أفعالـك لطـردك مـن بلدتنـا كلهـا ، وتسـليمك أيهـا المهاجـر غيـر الشـرعى إلـى السـلطات .

كانـت عينـا ديـل بوبولـو الحادتـين تترجمـان حرفيـاً لعدنـان عبـارات الغبن التـى فـاه بهـا الرجـل للتـو ، فثنـى عطفـه عائـداً وهـو مكـره ناحيـة الاسـطبل وهـو فـى غايـة الضيـق والحسـرة علـى افتقـاد فتاتـه ، بـل دارت

الخواطـر الكئيبـة فـى نفسـه دورتهـا السـوداء ، وراح يجتـر كل ماحـدث لـه ولحياتـه التـى يهددهـا دائمـاً شـيطان الفنـاء ، فتذكـر بهيـة زوجتـه التـى رفعـت ضـده قضيـة خلـع فـى المحكمـة ، وحرمتـه مـن رؤيـة أبنائـه، بـل ألبتهـم عليـه بتشـويه صورتـه دائمـاً فـى ناظرهـم ، فدفعتـه دفعـاً لكـى يتـرك مضطـراً بيتـه الـذى ولـد وترعـرع فيـه ، ثـم هاهـى ذى الحيـاة آخـذة بتلابيبـه مـن مجهـول إلـى مجهـول آخـر أشـد منـه ، حتـى اضطـر كالمغيـب لتـرك بيتـه الكبيـر أيضـاً ، ذلـك البيـت الـذى لـم يعـرف حتـى الآن أى خطـر كان ولـم يـزل بعـد يتهـدده علـى يـد شـيطان أثيـم مثـل شـفيق وجـدى ، بـل لـم يـدر وهـو فـى خلـوة الـذات التـى نصبهـا لنفسـه ، أسـفل شـجرة أيكاليبتـوس عملاقـة قريبـة مـن إحـدى البحيـرات ، لِـمَ أرسـلت إليـه الأقـدار تباعـاً شـحنة مـن النسـاء !، وقـد كانـت تكفيـه ناردين صبـرى وحدهـا فحسـب ، بـل حيـن أرسـلتها إليـه زينتهـا لـه بكـل ألـوان الغمـوض والإثـارة العجيبـة ، ثـم منحتهـا إيـاه علـى طبـق مـن ذهـب ، فـى الليلـة المطيـرة حيـن كانـت نـوارس البحـر تشـدو بلحـن حياتـه القـديم ، ثـم مـن غرابـة وعجائـب الأقـدار أن يكـون الشـيطان شـفيق وجـدى هـو نفسـه ذلـك الطبـق الذهبـى الـذى حمـل إلـى مخدعـه حلـم عمـره وحـب حياتـه الوحيـد ناردين صبـرى ، ولـم يَلُـم عدنـان فخـرى نفسـه مـرة لكونـه زهـد فـى فتـاة قلبـه السـاحرة ، كان يتمناهـا مـن كل قلبـه حقـاً ويهفـو بشـدة إلـى معانقتهـا والذوبـان فيهـا بكـل جوارحـه ومشـاعره ؛ ولكـن بقبـول إلهـى روحانـى ، وليـس بإغـواء شـيطانى مـادى لئيـم ، فمنـذا عسـاه يكـون قـد أرسـلها إليـه مـن جديـد بعيـداً عـن أرض الوطـن وفـى قالـب إيطالـى ، أهـى الفتنـة المتجـددة أم الحـب الـذى لاينتهـى أبـداً ، ولِـمَ يشـك فـى أمرهـا وأمـر نفسـه؟، وأنـه ربمـا يكـون قـد

جن وأصابته لوثة فى عقله ، وقد رآها ذات مرة بل لأول مرة وهى مخضبة بالدماء يوم التقمها منه البحر ثم أعادها إليه ، ثم أُخذت منه عنوة لتعود فتظهر له ، وتختفى فتظهر له وهكذا سار الحال بين ظهور واختفاء ، ولكن هذه المرة بدا له ظهورها غير كل المرات ، إنها ناردين بكل ماتحمله الكلمة من معنى .

حين عاد إلى اسطبل الخيل الاوربى ضيقة الصدر الطويلة القوائم ، وشعورها الذهبية الناعمة مرسلة مع أجنحة الريح الهوجاء، لمحها بصورة فجائية ، واقفة وراء إحدى هذه الخيول وهى متدفقة بالحيوية والغواية ، وعلى وجهها ابتسامة ما وقالت له :

- لا أنكر أنك قد أعجبتنى منذ اللحظة الأولى التى رأيتك فيها .
- وأنا أيضاً جننت بكِ حتى قبل أن تقع عليكِ عيناى .
- أنت ساحر تجيد فن مغازلة النساء حقاً ، بعكس فالنتينو الأبله ولونجينها المعتوه .
- معذرة ، ليست مغازلة لأنه ليس لدى غير الصدق ، الذى لاأملك سواه قرباناً لمن أحب .
- قربانك مقبول ، فماذا عساك تطلب أيها السَّادِن من فتاة المعبد المطيعة .

صمت عدنان طويلاً وهو يتأملها فى خشوع العابدين الطاهرين السابحين فى ملكوت اللّه العظيم ، حيث لامكان لشيطان أثيم يجترئ

علـى اقتحـام محفـل الملائكـة الأنقيـاء ، وخلـوة الحـب القدسـى ، فدنـت منـه فيولا للغاية بعد أن تجـردت مـن المهـر العمـلاق الـذى كانت تستر بـه جسـدها شـبه العريـان ، وقالـت بنبـرة أنثويـة فاتنـة :

- لقـد ذقـت الكثيـر جداً مـن الأصنـاف فـى حياتـى ، لكـن ليس مـن بينهـا صنفـك المثيـر هـذا .

- ماذا تعنين ؟.

- أنـت ترانـى ناردين ، وأنـا أراك رمسـيس الثانـى ملـك مصـر العظيـم ، فـى حـين أن الحقيقـة غيـر ذلـك بالمـرة ، أنـا فيـولا، وأنـت رجل لا أعرفـه بالمرة ، ولونجهينا يطـارد حظـه السـئ فـى فلورنسـا الآن ، والوقـت والمـكان يشـجعان علـى فعـل كل شـئ يفتـح شـهية المـرء للجنـون اللذيـذ .

- ماذاتعنين بالضبط ؟ ، أنا لا أفهم شيئاً .

ضحكت فيولا ضحكة رنانة وقالت :

- لنقـل أننـى فتـاة الأوتوسـتوب التـى وقفـت تشـير لـك علـى جانـب الطريق المقطـوع ليـلاً ، وأنـت قـادم وحـدك مـن بعيـد بسـيارتك الفارهـة، فتوقفـت مـن أجلـى ، وأخذتنـى إلـى بغيتـى ، وبعـد هـذا اللقـاء العابـر انصـرف كل منـا إلـى حـال سـبيله .

لـم يفسـر عدنـان المغزى من وراء حديث الفتـاة ، بل لـم يحـاول علـى الإطـلاق ، واكتفـى بالتطلـع إليهـا فقـط وهـو يهـز رأسـه أن مـن المحـال أن تكـون هـذه الفتـاة واحـدة أخـرى غيـر ناردين التـى يعرفهـا جيـداً وان

نطقت بلغة أخرى ، بل لم ينتبه إلى تصرفاتها وقد جذبته من يده وهى تقول :

– ما أروع أن نسبح مع الأوزات البيض المهاجرة مثلك فى تلك البحيرة الزرقاء الصافية .

كان عدنان مازال مغيباً وغير منتبه إلى الفخ الذى تقوده إليه فيولا فى قلب المياه الباردة ، كان مايدور فى ذهنه فقط أن هذه هى ناردين ومن المحال أن يفرط فيها ، بل لم يسمع همسها قط وهى تلقم حلمة أذنه القبلة بعد القبلة ، كان صوت ناردين وهى تطلب منه أن يختفى من حياتها إلى الأبد هو مايسمعه فقط ممتزجاً بصوت خرير مياه البحيرة ، وكاد يحتويها فى صدره ، ويلومها على صده إياه هكذا ، وعلى هذا النحو الصادم الذى حطمه وكاد يدمر له حياته ، وهو يسألها بحرقة بالغة أن لماذا لم تعنه على الوقوف معها فى وجه إبليس اللعين شفيق وجدى والتخلص منه إلى أبد الآبدين ، ولكن جاءه صوتها من بعيد كالصدى يرف على صوانى أذنيه : أنت لاتعرف شيئاً عن حياتى ، أنا حياتى العذاب والألم بعينه ، كما أن لدى السبب الذى يمنعنى منك وإلى الأبد ، لوعرفته لعذرتنى ياحبيبى ، ولما لمتنى أبداً على هذا النحو ، ولولا صدودى هذا لربما اندفعت بكل جوارحك وأحاسيسك لتعيننى على بلائى ، وسعيت بحياتك لاتبالى بما قد يحل من مصائب ونكبات فوق رأسك ، لإنقاذى من الجنون ومن الشيطان الدنئ شفيق وجدى .

كان صوتها العذب قد تحول شيئاً فشيئاً إلى صراخ وعويل جنونى، صراخ ملأ صداه أفق الوجود بأسره ، وكانت فيولا آنذاك تعيش حالتها الشبقية مع دميتها المغيبة ، والذى اندفع من الماء بصورة فجائية وفيولا فى أثره تقطر ماءً وهى تقول ضاحكة ضحكة ماجنة :

- لم ننته بعد من اللعب مع الأوز .

فالتفت إليها عدنان وقال بعصبية وهو يهزها من كتفيها :

- ناردين لاتفعلى هذا .

- أنا لست ناردين هذه ، أنا فتاة الأوتوستوب ، التى أعجبها كهلاً مثلك ، أنت صائد فرائس ممتاز .

- كيف لاتكونين ناردين ، وأنتِ صورة طبق الأصل منها .

- وأنت تبدو لى كذلك ، نسخة مكررة من فرعون مصر الشهير رمسيس الثانى ، أو لنقل أننا قد قلبنا الآية ، آية التاريخ ، ولأكن أنا هذه المرة كليوباتره العاشقة الايطالية وأنت مارك أنطونيو المصرى .

كان عدنان يتطلع إليها كالمذهول وهو يطلب قلبها بالحاح ، وهى جثة هائجة على جثة ، و لونجهينا الفتى العملاق الضخم الجثة الذى انشقت عنه الأرض فجأة ، وبلاوعى راح يضرب عدنان بلكمات الموت الغاضبة ، لكمات أفقدته وعيه طويلاً وحين أفاق وجدها تقول له وقد اختلج صوتها بصوت موتور السيارة الدائر :

- انزل من السيارة وقابلنى بعد نقطة التفتيش القادمة !!؟.

(٢٣)

ظل عدنان يجرى بلاوعى بين المروج الخضراء المستترة فى جنح الظلام ، وهو لايدرى شيئاً عما سيكون عليه حاله فى المستقبل ، لِمَ لا ، وقد فقدت يداه كل خيوط لعبة الحياة ، وأصبح مجرد ريشة هائمة فى الفضاء الرحب ، تعبث بها أيدى الريح كيفما شاءت وكما يحلو لها ، وتنقلها بلاهوادة من مكان إلى مكان ، كان فكه ينزف دماً بعد علقة الموت الساخنة التى أخذها من الفحل الرهيب لونجهينا ، ولولا هذه الآلام المبرحة، وهذه الدماء التى تسيل على جانبى فكه لأحس أنه كان يرى مزيجاً من الأحلام التى تجلب السعادة والسرور مع الهم والغم، وفجأة لمحها واقفة قبالته ، فوق ربوة مرتفعة ، بعد أن ترجلت من سيارتها التى قطعت عليه الطريق بغتة ، وقالت وقد عقدت ذراعيها عند صدرها الكاعب واشرأبت بعنقها لتزيد من نفسها طولاً إلى قامتها العالية المشوقة :

- مرحى مرحى أيها الدونجوان المتيم .

وضع عدنان ذراعه فى خاصرته وقد أطرق لاهثاً بشدة ، وتحاشى النظر مباشرة إلى الشقراء الايطالية الصاخبة وقد شرعت تقول مستطردة بحدة بالغة :

- كدت تلقى حتفك اليوم على يد هذا البغل الايطالى ، كان على وشك أن ينسف رأسك بمسدسه ، غير أننى كنت أسرع منه

وأطلقت النار عليه من مسدسى ، ولاأحد يدرى ماذا ستكون عاقبتى لو أن هذا الحيوان الأرعن قد مات بسببى .

نظر عدنان ناحيتها لأعلى كمن مسته صاعقة من السماء وهو لايصدق أن جريمة قتل قد تكون ارتكبت من أجله ، وأن سجل حياته يزداد تلوثاً بالدماء منذ أن فقدت حفيظة حياتها ، ولم يستطع قول أى شئ مع النبرة الاندفاعية التى واصلت بها جوليانا ريبورتوس حديثها :

- آندرياس المجرم اللعين هو فقط من حملت المسدس من أجله لكيلا يتعرض لنا .

صمت هنيهة ثم أكملت قائلة بذات الانفعال الذى تصاعدت وتيرته تماماً :

- من المؤكد أنك أحمق معتوه ، وأنا أكثر منك عتهاً وغباءً لكونى أبذل حياتى ومستقبلى من أجل مهاجر غير شرعى مختل العقل مثلك، تتركنى هائمة كالمجنونة فى الطرقات الموحشة أفتش عنك ، وأنت غارق فى الملذات مع الشقراء ذهبية الشعر التى كنت تسبح معها فى بركة الماء ، حتى جاء صاحبها البغل وكاد يرديك قتيلاً ، لولا وصولى أنا فى الوقت المناسب .

لم ينتبه عدنان إلى كل ماقالته الفتاة ، الشئ الوحيد فقط الذى استرعى انتباهه بشدة ، وجعله يقفز من مكانه ويرتقى الربوة العالية ليستوى واقفاً قبالتها مباشرة فى خطوة واحدة، وهو يمسكها من جانب ذراعيها وهو يقول بنبرة غير المصدق نفسه :

- عن أى شقراء ذهبية الشعر تتحدثين ؟! ، فيولا أقصد ناردين، جميلة بيضاء ، بضة هيفاء ، شعرها لامع حريرى أسود غطيس ، سارح طويل كالليل البهيم .

- ناردين ؟!!.

- أجل الفتاة التى تقولين أننى كنت أسبح معها فى الماء، مع أننى لم أنزل معها ومع أوزاتها البيض فى مياه البحيرة من الأصل ، هى فقط فاجأتنى وكانت تدعونى إلى السباحة معها حتى جاء لونجهينا ، أجل تذكرت اسمه لونجهينا الرهيب .

نظرت جوليانا إليه بدهشة ، وقالت لعدنان وكأنها تراه لأول مرة فى حياتها :

- هيه يابحر الألغاز ، أيها الواهم من كانت تسبح فى مياه البحيرة شقراء شعرها ذهبى كأشعة الشمس نحيفة ودميمة الوجه بشكل يدعو إلى السخرية .

- ....؟!!.

- أيها الحالم ، أنت تتحدث عن فتاة أخرى غير التى رأيتها بعيني، أنت تتحدث عن فتاة فى خيالك ، فتاة أحلامك فيما يبدو، هه أو ربما صديقتك المصرية ، ولكن الواقع غير ذلك بالمرة.

كان عدنان آنذاك يهز رأسه علامة عدم التصديق ، فيما انخرطت الايطالية مسترسلة فى الحديث عبر هاتفها المحمول مع صديقتها

سونيا ، وبعدها ألقت بالهاتف فى تابلوه السيارة وقالت بعصبية وهى تدفع بظهرها غاضبة إلى مسند المقعد عدة مرات :

- الكلب آندرياس سبقنا إلى ميلانو ، ولعله الآن يلاحق جرازيانو عمى بصورة سخيفة ، سوف نضطر إلى البقاء فى روما لفترة حتى يرحل إلى داهية تأخذه .

ثم بذات العصبية سحبت سيجارة من علبة سجائرها ، وشرعت تشعلها بقداحة السيارة ، وبعد فترة من الصمت المشوب بالحذر كان عدنان خلالها فى غاية الشرود فيما كان ويكون وماسوف يكون ، أو ماينبغى أن يكون ، فنظرت جوليانا إليه وقد زالت من محياها وعينيها نظرة الاقتضاب ، ومدت طرف يدها الرقيقة إلى أسفل ذقنه وأدارت وجهه ناحيتها بلطف ، وقالت له كالحالمة وقد علت وجهها ابتسامة المرأة المنتشية بالنصر :

- لابأس من البقاء فى روما عدة أيام ، ولنذهب مباشرة إلى ميدان الجمهورية العظيم ، القريب من جراند أوتيل ذى الطوابق الخمس ، أعظم فنادق أوربا على الإطلاق ، والذى يشبه قصور عصر النهضة ، وتغطى واجهته البديعة زخارف لامثيل لها، وأشكال منحوتة وحليات وتماثيل رائعة التكوين دقيقة الصنع سوف تعجبك كثيراً ، هيه وعن أرضياته الرخامية حدث ولاحرج، وكفى أنها مغطاة بالسجاجيد الشرقية السميكة والتى تليق بحبيبى المشرقى.

تنهدت بعدها جوليانا تنهيدة عميقة وهى تواصل كلامها قائلة بنبرة ناعمة :

- ماأجملنا ونحن نختال معاً فى مطعم لو ماسكيري بين الشمعدانات العملاقة ، والنوافير الاسطورية التى تنساب منها المياه الفضية المتلألئة التى تتخللها أشعة الشمس الذهبية ، هيه ماأروعك ياحبيبى وأنت تعتصرنى بذراعيك المشعرين أسفلها ، وقطرات الماء تسيح على جسدينا وصوت خرير المياه يسكرنا ، يسحرنا .

تمادت الفتاة طويلاً فى أحلامها ، ثم استرسلت متسائلة بهمس فى نفسها أكثر من كونها تتحدث إلى فتاها الشارد :

- ترى أى شئ فيك جذبنى إليك هكذا أيها المصرى ، وهل ترانى قد جننت حتى أتحمل كل هذه التبعات ، تبعات هذه المغامرة العصيبة من أجل مهاجر غير شرعى لن ترحمه السلطات أن وقع فى قبضتها ، بل لست أدرى أى مصير أسود ينتظرك إن وقعت أيها البائس المسكين بين يدي المجنون آندرياس وعصابته .

وفى تلك الأثناء تذكرت التحذيرات المتكررة من سونيا صديقتها لها عبر الهاتف ، وأنها مندهشة غاية الاندهاش من هذا الاندفاع الأهوج نحو هذا الفتى العربى الذى قد يكون هارباً من جريمة أو كارثة ما ارتكبها فى بلده ، وأنها قد تدفع هى الأخرى حياتها ثمناً لتهورها هذا ، فآندرياس مجرم عنصرى لايرحم غيور متكبر لايطيق أن يجرع من كأسه أحد جرعة واحدة، فمابالـه وكأسه هذه المرة فتاته الحسناء التى يهيم بها عشقاً وشبقاً ، وبخاصة وبعد أن سلبه أحدهم إياها بالكلية ، وليس كأى أحد، إنه مصرى عربى مسلم ، وكذلك تراءت لها صورة السلطات التى لم ولن ترحم أحداً، وقد تعتبرها

هـى أيضـاً متورطـة فـى الجريمـة مـع إرهـابـى تسـلل خلسـة كالشـبح الـذى يضمـر شـرور الدنيـا كلهـا فـى قلبـه الأسـود إلـى إيطاليـا صاحبـة المجـد العريـق ، وسـليلة الاباطـرة والقياصـرة والملـوك ، وكان مـن بـين تلميحـات سـونيا الخبيثـة ماقالتـه لهـا قبـل دقائـق معدودات عبـر الهاتـف وهـى تكتـم ضحكـة لئيمـة بيدهـا : «إن كان كل ماتفعلينـه مـن أجـل رغبـة أى فتـاة فـى فتـى أعجبهـا ، فخـذى منـه ماتشـائين فـى خلـوة سـاخنة علـى شـاطئ مهجـور أو فـى كهـف مـن كهـوف الجبـال الخامـدة البراكـين، أو حتـى علـى قارعـة الطريـق بـين الغاديـن والرائحـين ، ولتغنيـك النشـوة المشـتعلة فـى جسـدك عـن مـرارة نظـرات الفضـول الوقحـة التـى لـن تدعكمـا وشـأنكما ، ثـم اتركيـه يمضـى ككلـب ذليـل إلـى حـال سـبيله، أو حتـى القيـه فـى أقـرب سـلة قمامـة ، هـه أو الأحـرى بـك تسـلميه إلـى السـلطات لكـى تقتلـع عنقـه مـن فـوق جسـده، فقـد يكـون شـيطاناً مريـداً وأنـتِ لاتدريـن ، خـذى نشـوتك منـه وأفلتـى بعمـرك، هـذا ماعنـدى لـكِ، وحـذار مـن الحديـث عـن الحـب والمشـاعر والرومانسـية الزائفـة لأننـى لـن أصدقـك بحـال مـن الأحـوال !!» .

وهنالـك راحـت تـديم إليـه النظـر طويـلاً ، وهـى تهـز رأسـها مصداقـاً لكلمـات مـا جالـت فـى خاطرهـا وفـاه بهـا القلـب المرتبـك :

– هـو الغمـوض الضبابـى ، هـو الانقيـاد الأعمـى ، هـو الشـئ الـذى ليـس لـه سـبب أو تفسـير ولكنـه سـبب فـى كل أفعالنـا المبهمـة ، وسـعادتنا البالغـة ، هـو ، هـو ، هـو ، هـو مـاذا ؟! ، هـو مـن كنـت أراه فـى أحلامـى منـذ نعومـة أظفـارى كاللهـب المشـع ، كالمَلَـك المجنـح ، هـو القـوة الغامضـة التـى أسـرتنى عنـوة وبمحـض أرادتـى ، هـو الـذى لا أتصـور الدنيـا مـن غيـره ، وكيـف احتملـت كل السـنوات التـى خلـت مـن حياتـى بدونـه ، هـو الحـب .

ومن غير أن تدرى أوقفت السيارة بغتة على جانب الطريق السريع مع فرملة شديدة ، واندفعت نحوه بصورة مفاجئة ، وأطبقت بشفتيها الورديتن على شفتيه طويلاً ، وقد غطتهما خصلات شعرها المصبوغة بالسواد ، ثم تراجعت وقالت كالحائرة فى أمرها :

- منذ أن ظهرت فى حياتى ، وحياتى كلها تبدلت ، وأصبحت غير الفتاة التى كنت أعرفها فى نفسى .

أطرق عدنان لفترة بدت كالدهر ثم رفع رأسه نحوها وهو يصغى إليها بدهشة غير عادية ، وقد استرسلت قائلة بلسان ومشاعر رومانسية مقتبسة حرفياً من ثقافة فتاة عربية شرقية لا إيطالية غربية :

- لاتتصور أن ظهورك فى حياتى كان منذ الأيام القليلة التى خلت ، ظهورك لى كان قبل ذلك بكثير ، كما أن ذلك لم يكن شيئاً مفاجئاً لى ، لأنه كان شيئاً أنتظره منذ زمن بعيد ، يفوق عمرى القصير بأكثر مما تتخيل ، والمفاجأة الحقيقية فى واقع الأمر كانت ستكون بالنسبة لى هى عدم ظهورك من الأصل ، لا ظهورك الحالى ، وياله من شئ صادم للغاية أن تنتظر شيئاً مؤكداً أن يحدث ثم تجده لايحدث ، والمجد للرب كل المجد أنه قد حدث.

كان مايقوله عدنان فى نفسه آنذاك وقد أحس نفسه مجرد دمية خامدة بين قبضة شفتيها النهمتين للغاية : «ترى أى غموض هذا الذى يدور الآن فى عالم الأرواح ، وأى سراب خادع نمضى إليه ، وجوليانا تحدثنى بذات اللسان الذى كنت أتحدث به فى الأمس القريب لناردين، وتبوح لى بصور مشاعرها السرية نحوى، ولهى وأيم الله صورة طبق

الأصل من ذات الصور التى كنت أكنها فى نفسى لناردين ، وقبل حتى أن أعرف بحقيقة وجودها فى الحياة ، ياللعبث ، فماذا تراه يكون حالى الآن لو أن ناردين صبرى هى من كانت المتشبثة بشعيرات صدرى هكذا، والغارقة معى فى مثل هذه القبلة الشبقية الطويلة ، أكنت سأكون هذا التمثال الخشبى الساكن !؟» .

انتفض عدنان مترجلاً من السيارة ، ثم مضى تاركاً جوليانا بمفردها فى السيارة مخدرة الأحاسيس تلهث بشدة ، وقد بدت كمن كان يتسلق قمة جبل عال يطاول سحب السماء ، فأفاق على نفسه وهو يتردى إلى هاوية سحيقة لاقرار لها .

وقف عدنان قبالة البحر المتلاطم الأمواج ، يتطلع إلى البر الآخر البعيد ، الذى كان يراه بعيني أمانيه وأحاسيسه وأشواقه الجارفة ، وليس بعيني رأسه ، هنا الساحل الايطالى ، وهناك الساحل المصرى السكندرى ، هنا الغربة والمشاعر المقبضة ، والعالم الموحش الذى يزيد حياة المرء وحدة واغتراباً ، وهناك الرحم الذى ولد فيه ، ومنه خرج، وتربى وترعرع فى دروبه، وتمنى أن يذوب فى ترابه حياً وميتاً ، هنا جوليانا وتيرهينيا وفيولا ، وهناك ناردين ، وبقدر الضيق والغم الذى ملأ صدره ونفسه من هذا البر ، أحس بالوحشة والحنين يشدانه بقوة إلى البر الآخر ، وينتزعان منه بلاهوادة إرادته وذراعيه ، ويجرفانه مع الموج المتلاطم إلى هناك ، إلى حيث يقطن حبه الأبدى ، ومن غير وعى تخلت عنه كل أدواته التى يملكها المرء للسيطرة على نفسه ، وحوريات البحر الساحرات يتهامسن ضحكاً مع أصداء الليل المتجاوبة:

أيكون المجنون الذى سبح من بلد لآخر ؟!! ، ولاقى مالاقى من الأهوال والصعاب التى تفوق طاقة احتمال الإنس والجن من أجل الحبيبة ، هاهوذا يفعل !! .

●●●

(٢٤)

لـم يكـن الطفـل حـين وضعتـه طبيعيـاً ، كان جميـلاً نعـم مثـل بـدر السـماء ، ولكـن تكويـن مخـه كان غيـر مكتمـل ، والـذى كان أشـبه بالغـرف المظلمـة المحطمـة الجـدران ؛ والتـى تجعـل مـن اسـتمرار حياتـه كإنسـان سـوى مسـتحيلاً مـن رابـع المسـتحيلات ، يومهـا هـاج أبـوه ومـاج ، وراح يعاتب أمـه علـى عطيـة السـوء التـى منحتهـا إيـاه أشـد العتـاب ، وكأن الأمـر بيدهـا هـى لابيـد الخالـق سـبحانه ، وبمنتهـى القسـوة والغضـب غـادر الأب المستشـفى ثـم عـاد بعـد أشـهر طويلـة ، وهـو يرسـم ابتسـامة مصطنعـة هـذه المـرة علـى وجهـه المخـدد، وقـد جعـل يقـول لزوجتـه :

- معـك حـق ، الذنـب لـم يكـن بالفعـل ذنبـك ، وجهـة نظـرى التـى لـم تفهميهـا ، أن إسـرافك فـى الحـزن والنكـد وتعاطـى المسـكنات هـو الـذى جلـب لنـا هـذا الشـبح القمـئ الـذى تحملينـه بـين ثنايـا صـدرك .
- شبح !!.
- أجـل ، هـو مجـرد شـبح ، حتـى حديقـة الحيوانـات لا تقبـل بوجـود مخلـوق مثلـه بـين حيواناتهـا ......
- كفى كفى .
- لاتخدعى نفسك ، كونى واقعية ، ولنفكر جدياً فيما هو آت .

- سوف آخذه وأرحل من حياتك إلى الأبد .

- لاداعى لذلك .

قالها وهو يخص الطفل بنظرة ما ، نظرة زلزلت الأم من داخلها زلزلة رهيبة ، فأطبقت بكل أعضائها وجوارحها على ابنها الذى كانت تحتضنه بين ذراعيها بحنان وحرص بالغين ، ومن شدة خشيتها عليه تقرحت عيناها وذبل وجهها من طول السهر والانتباه لحمايته ، وقد راحت تلاحق زوجها كلما غدا أو راح ، أو اقترب منها أو من الطفل الرضيع الذى أصبح كل شئ فى حياتها، والذى يوم أتم عامه الأول ، وبعد سهرة لطيفة احتفل خلالها الزوجان بعيد ميلاد ابنهما خالد ، استيقظت من نومها فلم تجده إلى جوارها فى الفراش كما اعتادت، فهبت مذعورة مهرولة كالمجنونة فى كل أنحاء بيت العامرية ، ودوار سخيف يتلاعب برأسها ، جعلها تترنح يميناً ويساراً وهى تصرخ بفزع رهيب :

- ابنى ابنى .

وحين جرت ناحية باب البيت لتفتحه للبحث عن وليدها وجدته موصداً من الخارج بإحكام ، وكان من المحال أن تخرج من خلال أى نافذة فى بيت يقع فى الطابق الخامس عشر أللهم إلا لوكانت تنوى الانتحار ، فعرفت أنها قد باتت حبيسة فى جدران المنزل ، ولأمر ما يضمره زوجها فى نفسه ، وضد ولدهما بطبيعة الحال ، وبخاصة أنها قد نامت أطول بكثير مما اعتادته فى الآونة الأخيرة ، وغفلت عن حراسة الطفل لساعات طوال ، وهو مايعنى أن شيطاناً رجيماً قد

تعمد ذلك ، وربما يكون كعادته قد دس لها خلسة قرصاً منوماً أو شيئاً من هذا القبيل فى الطعام أو فى الشراب ، لكى يتمكن أولاً من حل الرباط الذى كانت توثق به نفسها مع ابنها فى عقدة واحدة إذا نوت النوم ، ثم انتزاع الطفل من عناقها أثناء سباتها العميق المدبر بفعل فاعل ، وهى المتشبثة به أيما تشبث ، ثم يأخذه فيفعل به ماسولت له نفسه أن يفعله بطفل غرير لاحول له ولاقوة ، فارتمت مفترشة أرض الساحة الخارجية للمنزل ، وهى تصرخ وتلوم نفسها ، وتولول وتتمرغ فى الأرض ، وتفرفر بذراعيها ورجليها كدجاجة مذبوحة ، ربما كانت هذه اللحظة هى أتعس وأسود لحظة مرت بها فى حياتها، وهى التى اعتادت منذ لحظة ميلادها على حياة كئيبة ليست إلا سلسلة متلاحقة من العذابات والأوجاع والآلام ، ولكنها لم تكن لتعدل كلها مجتمعة شيئاً يذكر بالنسبة لتلك اللحظة النكد، والتى تفقد فيها الأم أغلى شئ فى حياتها وليدها وقرة عينها، فما أهون على من انطوت جوانحها بحق وحقيق على الأمومة الصادقة أن تطعن بالسيف مئة الف ألف مرة ، وأن تزهق منها الروح مئات الآلاف من المرات ، من أن يشاك وليدها بشكة واحده قد تؤذيه أو تؤلمه مجرد الألم الخفيف المحتمل ، فمابال حالها يكون وهى تحسب أن رضيعها قد قضى نحبه على يد شيطان أثيم ، انسان حقير لايتورع عن ارتكاب أبشع الجرائم من أجل تحقيق أتفه الأهداف ، مادامت هذه الأهداف والغايات تعنى له شيئاً هاماً له ولمستقبله ولأحلامه الأسطورية التى لاسقف لها ولا حد ، فارتمت أرضاً تبكى كالمجنونة وهى تدعو الله أن يمن عليها بالموت والراحة الأبدية ، لا أن يتركها هكذا تعيش أبشع وأفظع لحظات

العذاب والضنا، ولكنها أفاقت فجأة على شفيق وجدى وهو يمد لها يده كى تنهض ، وقد أسفر وجهه المخدد كقطعة الطين الناشفة فى الأرض الشراقى عن ابتسامة عريضة ثقيلة الظل وهو يقول :

- مارأى هريرتى الصغيرة فى نزهة جميلة ممتعة ، وفى المكان الذى تحددينه بنفسك .

هبت ناردين كنمرة متوحشة وهى تمسك به من خناقه قائلة وقد بدت من فرط الإعياء كمن ستفقد وعيها بين لحظة وأخرى:

- أى حيوان مختل العقل أنت ، تتحدث عن النزه والمتع الجميلة، ويداك تقطر بدماء ولدى المسفوحة أيها المجرم الدنئ .

- ولدنا تقصدين .

- أشك أنه ولدك .

- فى هذه سلى نفسك ، ولكن من قال أن خالداً قد أصابه أى مكروه لا قدر الله ، هل جننتى ؟ ، أنا والده قبل أن تكونى والدته ، وأيعقل أن أوذى فلذة كبدى وحبة قلبى ياحبة القلب والعين !؟ .

لاحت أمارات الحياة مجدداً فى وجه ناردين التى قالت وهى غير مصدقة نفسها :

- أحقاً ؟!!.

- هـذا قدرنـا أن نـرزق بطفـل لايشـبه البشـر فـى شـئ اللهـم إلا فـى هيئتـه الخارجيـة ، والتـى سـتتحول مـع الأيـام إلـى هيئـة المتخلـف العقلـى الـذى يسـيل اللعـاب علـى جانـب شـدقيه، ولسـوف يصبـح فـى طبيعتـه وعوائـده أشـبه بالحيـوان الشـرس العدوانـى ، فمـن يحتمـل ذلـك .

فصرخت ناردين مقاطعة إياه :

- لاتصف ابنى بالحيوان .

- الأطباء والحقيقة هم من يصفونه بذلك وليس أنا .

- وأنـا أخبرتـك مـن قبـل ، أننـى سـوف آخـذه وأرحـل بـه بعيـداً عنـك إلـى الأبـد ، وسـأحيا خادمـة تحـت رجليـه حتـى الممـات.

- ومن قال أننى سأحتمل البعد عنك .

- وجودى مرهون بوجود خالد ، وهذا ماعندى لك .

- حبيبتـى ، حكمـى عقلـك لا عاطفتـك ، أنـتِ ضعيفـة ولاتقويـن علـى رعايتـه وتمريضـه ، انظـرى جيـداً إلـى نفسـك وكـم أنـت هزيلـة وواهنـة ، ولقـد وجـدت أنـه مـن الأفضـل لنـا ، ولـه هـو أيضـاً قبلنـا ، أن أودعـه فـى دار ومستشـفى فـى آن واحـد ، معنيـة بمثـل هـذه الحـالات المسـتعصية .

- كان فـى وسـعك أن تستشـيرنى ، وأن تأخذنـى معـك إلـى حيـث نويـت أن تودعـه .

نظـر شـفيق إليهـا برقـة مصطنعـة ، وقـد جعـل يأخـذ بيديهـا برفـق إلـى النافـذة التـى تـرى البحـر الغـارق فـى دياجيـر الظـلام ، كانـت تمشـى مطاوعـة لـه حتـى النافـذة وكمـن شـارفت علـى المـوت ، ولكـن كيـف يطاوعهـا قلبهـا بلقـاء المـوت قبـل أن تلقـى وجـه رضيعهـا الحبيـب ، وكان الخبـر السـار الـذى زفـه إليهـا شـفيق منـذ قليـل قـد بـث فـى روحهـا الميتـة الأمـل مـن جديـد ، وان ابنهـا لـم يـزل حيـاً يـرزق، وينعـم بالـراحـة والأمـان، فتطلعـت إلـى البحـر البعيـد وهـى تنصـت إليـه وقـد استرسـل فـى حديثـه قائـلاً :

– خالـد حبيبـى ، لايمكننـى التخلـى عنـه البتـة ، وسـوف أبـذل كل طاقتـى وأموالـى مـن أجـل أن يبقـى حيـاً ولـو ظـل مجـرد جثـة هامـدة ، وجـوده هنـا ليـس مجديـاً لـه كمـا تخالـين ، المتخصصـون وحدهـم هـم مـن يقـدرون معنـى تصرفـى هـذا، وأن الخبيريـن بحالتـه سـوف يقدمونـه لنـا فـى الصـورة المُثلـى التـى لـم نكـن لنحلـم بهـا أبـداً ، ولسـوف نـزوره بطبيعـة الحـال مـن حـين لآخـر .

– إذن خذنى إليه فوراً .

ابتسم شفيق ابتسامة ذات مغزى معين وقال :

– حسناً ، سوف آخذك إليه ، ووقتما تحددين أنتِ .

– الآن ، فلا أظن أن روحى سوف تظل فى جسدى حتى الصباح إن لـم أره بـأم عينـي ، وتقـر نفسـى برؤيتـه .

- لِمَ العجلة ياهريرتى ، لنتركه لشهر أو لشهرين حيث هو، وأعدك أنك سوف ترينه مخلوقاً آخر ، المخلوق الذى تسرك رؤيته وينشرح له صدرك .

لم يتوقف حديث شفيق وجدى عند هذا الحد ، بل راح يتحدث إليها عن مشاريعه وطموحاته ، وأمله فى أن يكونا فريقاً واحداً ، ولذا ينبغى عليها أن تستفق من الغيبوبة التى كانت تعيشها ولم تزل ، وأن تقف ظهيراً له حتى يبلغ غايته ويبنى قصور المجد والأحلام ، والتى لن تعود عليه هو وحده بالخير والنفع ، بل عليها وعلى ابنهما خالد ومن هو ربما آت أيضاً فى علم الغيب ، وأنه من العقل والحكمة أن تطاوعه ، وأن تكون أكثر ليونة ولطفاً معه وألا ترد له طلباً ، حيث أن طبيعة عمله تحتاج إلى كثير من المرونة واللباقة ، وبخاصة أنه يقابل بعض الأصناف الخسيسة من البشر ، والتى ليس من السهولة بمكان تمرير المصالح معها من غير أن تأخذ المقابل الذى يرضيها ويطفئ لظى نفوسها المستعرة بنيران الرغبة و...............

هنالك صرخت ناردين غير مصدقة ماسمعته ممن يفترض أنه زوجها وصائن عرضها وشرف نفسه ، فدعك أرنبة أنفه بإبهامه ، وهو يقول كالمتطوح :

- حبيبتى لاتسيئى فهمى ، الحياة صعبة ، بل بالغة الصعوبة ، ولن يفك عبوس وجهها المقزز إلا درجة قدرتنا نحن على امتصاص غضبها ، ولن يكون ذلك من غير أن نكن واقعيين ومرنين وليس متجهمين هكذا .

قال جملته الأخيرة وهو يمد أطراف أصابعه ناحية وجهها المشمئز منه ، وكأنما ليفك جهامه والتقاطيب المتشابكة التى فوق حاجبيها ، ثم بصوت ناعم قال وهو فى ذروة المساومة الوقحة :

- يجب أن تعيدى النضارة والطراوة لوجهك الجميل ، وجسدك الساحر الفتان فى أسرع وقت ممكن ، أم تراكِ لاتشتاقين لرؤية خالد ابنك الحبيب مرة أخرى .

وعلى الفور فهمت ناردين فحوى رسالته ، وأنها قد دخلت فى فخ نخاس حقير ، مالبث أن بنى خطة مقايضة مذهلة بين مايريده هو وبين مالاتريده هى ، ثم لابأس أن يكون جسدها وشرفها هو الثمن ، أما الضحية فلن يكون أحداً غير ابنها خالد ، والذى ظل دائماً وأبداً سيفاً مصلتاً على رقبتها ، والسلاح الماضى الذى ينغرز طرف سنه الحاد فى قلبها كلما أنفت من أفعال زوجها المخزية ، وأعلنت ضده وضد مايفعله بها حالة من حالات العصيان الشديدة ، وبالرغم من تنازلاتها الكثيرة التى قدمتها صاغرة ؛ إلا أن ذلك لم يشفع لها البتة كى يرق قلب زوجها ، ويبر بقسمه لها والايمانات الغليظة التى قطعها على نفسه ، وأنه سوف يمكنها من رؤية ابنها البائس فى أقرب وقت ممكن ، ولكنه كان يماطل ويسوف لأيام وأشهر بلغت حد سنوات ، وكانت كلما عاتبته وهددته ، ضحك كالأبله ، وأقسم لها بثقته التامة من كونه فى أمان تام ، وبخاصة حين يتوسد مخدعها الوثير وينام ، فهو على علم تام بأن فتاة الملاجئ اللقيطة البائسة الحقيرة أحرص الناس على حياته ، وأنه لم ولن يصيبه من ناحيتها نوبة غدر أو أذى ؛ أللهم إلا لوشاءت فقدان ابنها إلى الأبد !.

كانت ناردين قد كرهت نفسها أكثر من أى شئ آخر فى الوجود، وكم كانت تشعر بكونها قد أصبحت بالفعل مجرد خرقة قذرة ملوثة بحسب ما اعتادت أن تسمعه من شفيق كلما تملكه الحنق والغضب منها ، وربما زاد إحساسها هذا أكثر فأكثر حين تكون فى رفقة عتمان بك الديب ، أو من كانوا يلقبونه تارة بالملك وتارة بالزعيم ، وتارة ثالثة الامبراطور الضارب فى جذور السياسة واقتصاد البلد ، والسالك فى دهاليز الكبار ، وفى أغلب التارات السوبر مان ، لقد كان فحلاً بحق وحقيق ، ويملك جسداً ووجهاً فى غاية البهاء والأناقة، أما ماكان يستره تحت ملابسه فهو الدناءة والقذارة بعينها ، ولقد التقته ناردين عدة مرات كرهت خلالها حياتها وكل شئ فى الوجود ، وحين أقسمت أنها لن تذهب للقائه مرة أخرى ، وأعلنت حالة لامثيل لها من التمرد والعصيان ، وعجز شفيق عن لى عنان عنادها تمام العجز، فجن جنون عتمان الديب ، وأقسم بالغالى والنفيس أن يقطع كل مابينه وبين شفيق ومن وراءه ، فثارت ثائرة شفيق ، واستخدم كل مافى جعبته من وسائل العنف والتهديد والوعيد لإثناء ناردين عما عزمت عليه، ولكن بلاجدوى، ولم يقو عتمان على الصبر والاحتمال أكثر من ذلك، فطرق باب شقة العامرية البسيطة فجراً والتى بقى فيها شفيق وأسرته للتمويه والتعمية، ولقد كان عتمان فى غاية الثمالة، والذى دخل مندفعاً كالمجنون إلى حجرة النوم المستلقية فى فراشها ناردين ، وهى شبه عاريه لم تتم ليلتها الشبقية المرغمة عليها من شفيق بعد، وصرخ قائلاً لها وهو يتطوح ويزيح فى الوقت ذاته شفيق العريان الجسد من سبيله :

- ناردى حبيبتى ، تعرفين أننى مهووس بك ، أحبك بجنون، كما تكرهين أنت هذا الحيوان بجنون ، إن شئتِ طلقتك منه فى الحال وتزوجتك سراً ، ولتكن كل أموالى وقصورى وكنوزى ونفوذى العريض تحت قدميكِ أينما تحلين .

كانت ناردين التى هبت مفزوعة من غيبوبة اللاوعى قد تدثرت بسرعة بما طالته يدها من غطاء السرير ، ثم انزوت منكمشة عند الحافة الأخرى البعيدة من الفراش الذى دنا منه تماماً عتمان الديب ، وهو يحاول أن يفرد ذراعه الطويل حتى آخره كى يتمكن من الإمساك بغزالته الشاردة :

- ناردى ، تعالى ياحبيبتى .

وهنالك جن جنون ناردين التى ألجمها الموقف للغاية وهى ترى التيس المستعار يقف عند مدخل الحجرة دون أن يبدى أية علامة اعتراض أو دهشة على أقل تقدير ، فصرخت فيه بانفعال لامثيل له أن أى ديوث أنت ، وأى حيوان خنزير أنت الذى يقبل بوجود غريب فى فراش زوجته على هذا النحو الشيطانى ، وفجأة وبصورة غير متوقعة صرخ شفيق وجدى بهستيرية بالغة وهو ينظر فى شاشة هاتفه المحمول ، فجرى ناحية عتمان وجعل يشده إلى الخارج بدعوى أن هذا ليس الوقت المناسب ، وهو يرجع القهقرى بناظريه إلى ناردين ، ويقول لها بطريقة تمثيلية متقنة غاية الإتقان :

- أتتنى إشارة للتو على هاتفى المحمول ، أنهم ينتظرون إرسال موافقتى على قتل ابننا القتل الرحيم .

- سحقاً لك أيها الكاذب السافل الحقير .

خرج عتمان من باب البيت وهو يمسح غاضباً ومتوعداً بصقتها بظهر يده من تحت عينه اليسرى ، وفى لحظة التفات شفيق عائداً إلى حجرة النوم فوجئ بمن تثب عليه وتنتزع الهاتف المحمول من يده انتزاعاً جنونياً وهى تقلب فيه وتقول :

- أيها الكاذب النجس لاوجود لمثل هذا القانون المجرم فى بلدنا، أنت تخدعنى ، أنت قواد قذر مخادع تكذب على.

- معك حق ، لايوجد فى مصر قانون القتل الرحيم .

- فلماذا تكذب على إذن أيها الشيطان ، أمن أجل أن أذهب وأستلقى فى أحضان رجل غريب يابن الـ........ ياعديم النخوة والرجولة .

لم تهتز شعرة فى مفرق رأس شفيق ، ولكنه استدار على عقبيه ناحيتها ، ومد قبضة يده إلى قمة رأسها ، وببرود وقسوة لامثيل لهما جعل يشدها من مجامع شعر رأسها بكل قوة حتى كاد يخلع رأسها عن عنقها تماماً :

- لقيطة ابنة حرام مجهولة الأبوين والنسب مثلك ، وإن كان اسمها ناردين صبرى ، فناردين ليس اسمك ولاصبرى أباً لكِ، فماذا كنتِ تظنين حين تبتسم لك الأقدار وتتزوجين من رجل مثلى ، العيشة الهانئة وراحة البال ، هه هذا هو الكذب على النفس والهراء بعينه ، أنا شفيق وجدى تزوجتك لقضاء حوائجى ليس أكثر ولاأقل ، وحذار أن

تتطلعين إلى ماهو فوق شراك النعل، أمادون ذلك فهو لك بكل تأكيد، لأنك لست أكثر من نعل يحملنى إلى حيث أشاء متى أشاء .

كانت الدماء الغزيرة قد بدأت تنثال من خلال بصيلات شعر رأس نادرين والتى قالت بنبرة راجية باكية يائسة هذه المرة :

- لاتحدثنى عن الخرقة القذرة ابنة الحرام ، ولكن حدثنى عن ملاكى الطاهر النبيل .

شد من يدها الهاتف المحمول عنوة وهو يقول بنبرة قاطعة :

- خالد ليس فى مصر، لقد أودعته إحدى المصحات الأوربية، الأطباء يرون الموت له أفضل من الحياة ولوكانت الجنة نفسها مع عقله التالف هذا .

- بالله عليك أرجوك ألا تمنحهم أية موافقة ، وسوف تفعل الخرقة القذرة كل ماتمليه عليها بلا أى بادرة اعتراض أو ضيق.

فى منطقة نائية جداً مطلة على البحر ، أنزلها من السيارة أمام أحد الشاليهات الفاخرة الخاصة بأولاد الذوات ، ثم انطلق مغادراً المكان بسرعة الريح وهو يقول لها باستخفاف ممض :

- سوف أعود إليك لاحقاً أيتها الخرقة البالية .

كانت ظلمة الليل قد أطفأت معالم صورة الحياة من حولها تقريباً، وبخطى مرتعشة تقدمت نحو الشاليه وطرقت بابه ، لم تنتظر طويلاً ، فلقد كان من ينتظرها فى الداخل يتحرق عطشاً وشبقاً من أجل لحظة خلوة تجمعه بها ، وسرعان مافتح الباب وجذبها بشدة إلى

الداخل ، فوقعت أرضاً ، ولمحت على أثر الضوء الشاحب المنبعث من ناحية ما عملاقاً كالسيمافور قد تجرد من كل شئ يغشاها ، وهكذا من غير أية مقدمات ، كان ثملاً للغاية، ويترنح كعمود الإنارة المتهاوى من فرط طوله ، وقد حمل كأساً فى يد يتجرع منها الخمر ، فيما راح يسكب عليها رشاشاً من النبيذ المعتق من خلال فوهة الزجاجة التى كان يحملها بيده الأخرى ، وقد عقد عزمه على شئ ما غير إطفاء نيران رغبته المستعرة ، فما كان قضاء وطره منها ليرضى قدر غرور كبرياءه وصلف نفسه ، فلم تخلق بعد المرأة التى تهينه وتبصق فى وجهه، وهو الملياردير الثرى ، صاحب السلطة والنفوذ الجبار ليس فى مصر فقط ، بل فى العالم بأسره، ولعل أجمل جميلات العالم يتلهفن على مجرد نظرة منه، لا لقاء وليلة بطولها ، فمن تكون ذى إذن؟! ، هذه البصقة الوضيعة القمامة القذرة التى لاتعدل هباءة طيارة فى عالمه الشاسع الرهيب ، فهب من فوقها صارخاً كالمارد الغضبان، ثم راح يقلب ويركل ويحطم الأشياء فى طريقه بيديه وقدميه بقسوة وعنف لامثيل لهما، وهو يسبها ويلعنها بأقذع الشتائم والألفاظ، ثم غادر المكان كالمجنون ، وكانت ناردين التى غابت عن الوعى تماماً من بين الأشياء التى ركلها وضربها عتمان الديب بجنون حتى الموت .

مع إشراقة الصباح الفاتر، داعبت إحدى شعاعات الشمس المتسللة خلسة من نافذة جانبية فى الشاليه جفنى عينيها المطبقين على الموت المحتم ، وصورة خالد حبيبها لاتغيب عن ناظريها سنة ولو كانت رهينة الغيب نفسه ، والغفلة التامة عن الذات ، ولعل يداه الرقيقتان راحتا تحاولان فتح طاقة نور فى عينيها لكى تتأكد من كونها لم تزل بعد

على قيد الحياة ، ولكن الدم الذى طفح فى هدأة الليل لحظة استعار الغضب من نواح عديدة فى وجهها ، قد تجمع كله فى فجوة العينين وتجمد ، فلم تتمكن من تمرير شبه نظرة إلى العالم الأرضى ، وصوت خالد حبيبها الجميل المحيا يستحلفها بالله فى سويداء نفسها ألا تيأس وألا تهن، وأن تظل حية من أجلها وأجله ، ولعله هو أيضاً من سحب يدها الميتة المفترشة الأرض فى مكان ما من الشاليه ، إلى حيث الهاتف المحمول ، وقد لاحت لها فجأة بشكل أسطورى صورة أخرى ، صورة أكثر وضاءة وجمالاً من الشمس بجلال قدرها وروعتها، صورة كثيراً ماكانت تلوح لها منذ نعومة أظفارها، فما أوسم وأروع ذلك المحيا الذى كان يتبدى لها فى ظهر الغيب ، وكانت كلما أرادت أن تخفف عن نفسها قدراً من هموم الحياة وأوجاعها، ذهبت لتستتر فى خفايا نفسها ثم تستحضر صورة صاحب ذلك الوجه الخفى الوضاء، فتهدأ سريرتها وتقر نفسها حين تراه وتحس بروعة لامثيل لها، فماباله يلوح لها فى تلك اللحظة الحرجة من غير استدعاء، ومابالها وهى المغيبة شبه الميتة تضغط أرقاماً عشوائية فى هاتفها الخلوى ، فيكون هو المجيب!، وكلما انقطع خط الاتصال بينهما ، عاودت تطلب أرقاماً أخرى غير الأرقام التى طلبتها من قبل وبذات العشوائية العجيبة، فيكون الأعجب من العجب نفسه حين يكون الشخص المجيب هو ذاته الذى كان يجيبها فى كل مرة، حتى ظنت أنه سوف يجيبها ولو لم تطلبها ثانية بأية وسيلة من وسائل الاتصال ، أللهم إلا الاتصال الروحى، والذى قاده كالأعمى فى لحظة ما إلى حيث هى راقدة بين يدى الموت المحقق !.

وحين عادت محطمة مدمرة إلى بيتها وعملها ، اندهش الجميع ليس من عودتها بهذا الشكل المريع ، بل بسبب إصرارها الشديد على زيارة زميلهم المتهم بجريمة قتل فى المستشفى التى يرقد فيها، وهى على مثل هذه الحال من الاعياء والمرض ، وقد غطت وجهها الجراح والندوب والتشوهات الكثيرة ، فقالت مبتسمة بعينيها اللتين كانت تخفيهما بالنظارات الشمسية السوداء الكبيرة :

- هو الوحيد فى العالم الذى سيرانى على صورتى الحقيقية.

●●●

(٢٥)

- أَمن أجل تلك الحقيقة المؤلمة كنتِ حبيبتى الغموض بعينه، كاد عقلى يطير من رأسى فرقاً حين أتيتينى ليلاً فى عشتى برفقة هذا المخبول المعتوه شفيق وجدى ، فلقد أحببت ملاكاً طاهراً لا ....

- من أجل هذا أردتك أن تخرج من حياتى إلى الأبد ، وحتى لاترانى فى صورة الشيطانة الـ.........

- حبيبتى لاأعرف حياة أخرى لى غيرك .

- هه ، وبدليل أنك رحلت بعيداً ، بعيداً جداً وتركتنى .

- وهاأنذا قد عدت إليكِ حبيبتى ، تحملت أهوال البحر وتلاطمات أمواجه القاتلة من أجلك أنتِ وليس من أجل أى شئ آخر ، وكى نكون معاً إلى الأبد .

- أنت مجنون مجنون ، غبى ، معتوه .

أفاق عدنان على صوتها الصارخ الذى أتاه هذه المرة من خارجه لامن داخل نفسه ، لم يلتفت ناحيتها لحظة كانت تضرب كالمجنونة على مقود السيارة وقد بللتها تماماً مياه البحر ، وراحت قطراتها تتكور وتتدحرج من خلال خصلات شعرها التى خفت صبغة السواد عن لونه الأصلى الذهبى ، وتلألأت على صفحة وجهها الأشقر وهى تقول باكية كالمتشنجة التى تخرف ، وقد تدفقت كذلك العبرات من موج عينيها الأزرق المموه بالشعيرات الفضية المتلألئة :

- أنت فعلاً أجن مجنون على ظهر الأرض ، أعرف أنك تريد العودة إلى بلدك بأى شكل ، هذا جنون ومستحيل ، البحر رهيب وقاتل ، ولايقدر عليه كائن من كان ، أنا سوف أعيدك إلى بلدك .

حين قفز عدنان فى قلب البحر المغرق ، وهم يسبح فى اتجاه ما بكل همة وعزيمة ، صرخت جوليانا فيه كى يعد ، وليتخلى عن فكرته المستحيلة ، وحين فقدت الأمل فى عودته قفزت فى أثره، وهى تعلم أن قواه سوف تخور بعد قليل ، ولكنه بدا على عكس ماتوقعت ، فلقد كان صلباً وعنيداً ، وعازم على قهر المستحيل ولو كانت حياته هى الثمن الذى سيدفعه فى نهاية المطاف ، وهنالك لجأت إلى الحيلة والخداع ، فصرخت صرخة مدوية ممزوجة بصوت تدفقات موج البحر الأهوج ، وكأنها صرخة الموت ، وراحت تتصنع الغرق ، وترفع ذراعيها وجسدها لأعلى ثم غطست بمجامع نفسها فى الماء قليلاً ، ثم عاودت الكرة التمثيلية مرة تلو مرة وكأنما ستموت غرقاً ، فالتفت عدنان ناحيتها ، والذى لم يجد بداً فى النهاية غير التوقف عن السباحة إلى الأمام ، والدوران إلى الخلف ناحيتها لإنقاذها من الموت .

- هيه المجد لك أيها الرب الرحيم فى الأعالى ، أى قدر هذا قدتنى إليه ، أن أكون محبة بلاحبيب ، أجل أنا سوف أعيدك إلى بلدك فى يوم ما بطريقتى ، ولكن ليس إليها هى .

- هى مَنْ ؟!.

- التى فهمت للتو أنها صاحبة المنديل الحريرى ، والتى دفعتك هكذا لتفعل هذه الفعلة الجنونية ، أم كنت تتصور أنك ستصل حياً إلى الشاطئ الآخر .

- ومَنْ أدراكِ أن امرأة فى الموضوع .

- هه أنت لاتعرف النساء جيداً ياسيد عدنان .

قالتها وهى تلقى إليه بمنشفة السيارة كى يجفف بها هو الآخر جسده المبلل بمياه البحر .

تجاوزت الشقراء الايطالية جوليانا ريبورتوس مدينة بارى الساحلية بسرعة جنونية ، وظلت تطير طيراناً بسيارتها الحديثة بحذاء الساحل الايطالى الأدرياتيكى ، ولم تلو عنان مقود السيارة يساراً إلى مدينة روما كما كانت تخطط لذلك ، بل ظلت منطلقة فى الطريق الساحلى الجبلى الذى يغطيه العشب الأخضر الجميل لفترة طويلة جداً من الوقت ، هكذا ومن غير أية مبررات أو حجج غيرت خطتها ، وسارت فى سبيل غير السبيل المبتغاة ، ليس لعلمها أن عدنان فخرى قد أسلم قياده للقدر تماماً ، وأنه لن يبدى أى نوع من أنواع الاعتراض والضجر بعد ذلك ولو قادته إلى الجحيم ، ولكن لكى ترى نفسها أولاً، ثم لتريه هو وجهاً آخر غير وجهها الوديع الذى عرفها به ، وجه الأنثى المتسلطة التى تملك نوعاً عجيباً من أغرب أنواع حب التملك ، ولعلها ظلت تردد أثناء رحلتهما الطويلة فى سرها بغضب جم ، جملة من العبارات الغريبة التى كان من المحال أن يقبل بها عدنان فخرى أو غيره من الرجال :

- أنت من الآن دميتى ، أنت المسخ الوحيد الذى أعجبنى دوناً عن كل المسوخ التى فى العالم ، أنت لعبتى التى أعجبتنى، فلألهو بك كما يحلو لى حتى أمل منك أيها الجرو الوضيع ومن وجهك البغيض، ورائحتك

الكريهة ، ثم لابأس فى النهاية أن أعيدك إلى بلدك متى أشاء ، وبالصورة التى أرغبها وترضى غرورى وكبريائى ، هه أو ألقى بك فى سلة القاذورات والفناء الأبدى ، لأنك لن تكون ومهما حاولت لغيرى .

وحين جن الليل بعتمته المقبضة ، استدار عدنان برأسه قليلاً إلى ناحية اليسار وقال لها قاطعاً حبل السكون :

- ألن تأتى روما هذه أبداً ؟!.

أفتحت جوليانا عينيها المسبلتين ورنت إليه رنوة طويلة وهى تقول بسخرية :

- نحن على أعتاب سان مارينو ياهذا ، أما روما المرتجفة فلها الفحل الجرمانى آتيلا ، الذى جاءها بالموت والدمار فى القرن الخامس ليتخذ بالقوة والغصب والحب من هونوريا الجميلة أخت الامبراطور غير الشقيقة زوجة له ، روما للعاشقين فقط ، ليست لنا .

وعلى الفور فهم عدنان مغزى حديث الايطالية التى طعنت فى كبريائها الأنثوى ، وتملكتها فيما يبدو الغيرة الشديدة من ناردين ، التى ربما ردد اسمها كثيراً على لسانه بغير وعى فى الآونة الأخيرة ، وقد شرعت تتجرع الخمر من فوهة زجاجة ذهبية كانت تدسها فى تابلوه السيارة الأمامى ، فأكمل استدارة وجهه وجسده إلى اليسار حتى ينظر إليها مباشرة ، وقال ومسحة من الابتسام تعلو وجهه :

- آتيلا هذا كان سفاحاً مدمراً ، تزلزلت مع قدومه شواطئ الأدرياتيكى زلزلة عظيمة ، وليس عاشقاً كما تخالين !.

- فى نظر هونوريا على الأقل .

- ومَنْ قال ؟.

- على الأقل فى نظرى أنا ، هل استرحت ؟.

قالتها بنبرة صراخية تنم عن حالة المعاناة التى تعيشها صاحبتها، ثم عادت تقول ولكن بنبرة وادعة هذه المرة :

- معك حق فربما كانت هونوريا تمقت آتيلا هذا ، أو انها كانت تحبه ، كل هذا لايهم ، الأهم أنها وجدت من يحبها ويقاتل من أجلها، وربما كان من يقتل ويعيث فى الأرض خراباً، وتخضبت يداه بالدماء هو المُعَذَّب الحقيقى ، فأى عذاب هذا يمكن احتماله لمن يعشق فتاة لاتريده ، أو العكس بالعكس صحيح .

قالت جملتها الأخيرة بحسرة لانظير لها ، ولسانها يقطر ألماً ومراراً يكاد يكون دماً ، ثم قالت مستطردة ولكن بصيغة السؤال الخبرى :

- ناردين ؟!!.

ثم لاذت بجدار الصمت طويلاً ، فقال عدنان وهو يفك نفسه من إسار الدهشة فكاً :

- هذا سؤال تسألييننى إياه أم خبر تريدين مفاجأتى به ؟.

- الاثنان معاً، ولاتنس أنك حين تغفو، يسهر ملاكك العاشق إلى جوارك طويلاً ، وهو يقاتل الراحة والرغبة فى النعاس من أجل رعايتك وحمايتك من آندرياس والبوليس وشياطين الجن والإنس، وحتى بعوض الغابات الجبلية، والنمل الأبيض، وصقور السماء، ووحوش الخيال وغيرهم وغيرهم.

هنالـك ارتمـى عدنـان بظهـره إلـى مسـند المقعـد الأمامـى ، ورفـع رأسـه لأعلـى حيـث سـقف السـيارة وقـال متنهـداً :

- هيه ، يبدو أننى قد تكلمت كثيراً فى منامى .

- بالعكس أنت فى غاية الحذر حتى وأنت مخدر بالنوم .

اعتـدل عدنـان مـن فـوره علـى أثـر كلامهـا المفاجـئ جـداً بالنسـبة لـه ، وكانـت عينـاه تلتمعـان حينهـا بسـؤال واحـد لاغيـر : فمنـذا عسـاه يكـون قـد وشـى لهـا بسـر عمـره المكنـون وقلبـه المخبـوء فـى سـراديب نفسـه العميقـة ، ومـن أيـن علمـت باسـم حبيبتـه وكل شـئ فـى حياتـه ناردين !.

بعـد هنيهـة أشـعلت الإيطاليـة الشـقراء سـيجارة ودسـتها بعصبيـة فـى زاويـة شـفتيها المرتعشـتين ، وقـد جعلـت تـأخذ نفسـاً عميقـاً مـن السـيجارة بيـد ، ورشـفة مـن زجاجـة الخمـر باليـد الأخـرى ، وقالـت مـن غيـر أن تنبس بكلمـة واحـدة ، وإنمـا تداعـت الصـور والذكريـات مـن أعماقهـا إلـى أعماقـه المخـدرة مباشـرة : « هـل تصدقنـى ان قلـت لـك أنـك لـم تنادنـى باسـمى منـذ لحظـة معرفتـك بـى وحتـى لحظتنـا هـذه ، هيـه ، أنـت دائمـاً تناديـنى بناردين وأنـت مغيـب فـى غيـر وعيـك بطبيعـة الحـال ، فـى البدايـة تصـورت وأنـا أداويـك أن الفتـاة السـمراء هـى ناردين التـى تناديـنى باسـمها ليـل نهـار ، حتـى اسـترديت وعيـك وأخبرتنـى باسـم السـمراء الحقيقـى ، حفيظـة رضـوان ، فعرفـت أنـك تتحـدث عـن فتـاة أخـرى ، قلـت لابـأس ولسـوف يأتـى اليـوم الـذى تكـون فيـه عاشـقى أنـا ، ولسـوف تسـلاها إلـى الأبـد ، حتـى الشـقراء الدميمـة فيـولا التـى كـدت تفقـد حياتـك بسـببها علـى يـد عاشـقها لونجهينـا ، إنمـا كـدت تقضـى نحبـك ليـس مـن أجـل فيـولا فـى حـد ذاتهـا ولكـن مـن أجـل ناردين ، الفتـاة التـى سـحرتك ،

وجعلتك ترى كل شئ فى الحياة هى ، ولا أحد سواها ، وحين رحت تصف لى فيولا الشقراء القبيحة كنت تصف مهيرتك البيضاء الجميلة، الذى يسترسل الشعر الأسود الحريرى على معرفتها ، كنت لحظتها تنادينى باسمها هى وكما كنت دائماً ، ومن ناحيتى صبرت وعشت على أمل أن تنساها ، أو تتصور أننى هى ، ومن أجل هذا صبغت شعر رأسى باللون الأسود ، وتخليت عن ذهبية خصلات شعر رأسى البارقة، ولكن حين قفزت فى الماء من أجلها ، أدركت أن ناردين هذه هى كل شئ فى حياة فتاى الذى هو كل شئ فى حياتى ، فركبنى الجنون ، وعرفت أن الأصفار وأياً ما كانت كثرتها فهى لاتعنى شيئاً إذا وضعت إلى يسار الرقم لا إلى يمينه ، وأنا هذه الأصفار اللانهائية ، أنا العدم، أنا لاشئ على الإطلاق ! « .

هنالك رق لها قلب عدنان الإنسانى ، ومد أطراف أصابعه ليسكت شفتيها المطبقتين عن البوح بمزيد من الغصص والمرارات التى تفعم نفسها من الداخل وقال :

- اعتذر لكونى آلمتك كثيراً هكذا ، ولكن بغير قصد بطبيعة الحال.

دفعت جوليانا يده بحدة جانباً وقالت بلهجة افتراسية مخمورة:

- المعركة ليس بينى وبينك الآن ياسيد عدنان ، بل بينى وبين قدرى الذى نصب لى هذا الفخ البغيض ، ووضعك فى سبيلى على هذا النحو المؤلم القاتل ، ولكن ثق مع ذلك أنه ليس بينى وبينك ياحبيبى أى شئ أللهم إلا رغبتى فى الثأر لنفسى .

- ممن ؟ ، منى ، أم من القدر ؟!!.

لـم تجـب سـؤاله بـأى شـكل مـن الأشـكال التـى تريـح بالـه وتهـدئ مـن لظـى خواطـره المشـتعلة فـى كل أرجـاء عقلـه ونفسـه ، بـل اندفعـت تترنـح بسـيارتها المارقـة بجنـون فـى أعالـى الطريـق الجبلـى المنحـدر بضيـق مرعـب، كانـت تضحـك كالمجنونـة ، وهـى ترمقـه بنظـرة تشـف وكأنمـا تقـول لـه وقـد تشـبث بكلتـا يديـه هلعـاً فـى حافتـى السـيارة الجانبيـة والأماميـة مـن الداخـل ، واتسـعت عينـاه عـن آخرهمـا ذعـراً :

- لِمَ تخـش السـقوط فـى البحـر وقـد أحضرتـك منـه عنـوة ، ألـم تكـن تريـد الذهـاب إليهـا ، إلـى ناردى حبيبـة القلـب والنفـس ، هـل كرهتهـا هكـذا فجـأة أيهـا المدعـى حيـن كشـر لـك المـوت فجـأة عـن أنيابـه الحقيقيـة، والآن لايفـرق معـى أن تذهـب إليهـا أو إلـى غيرهـا مادمـت سـتذهب إلـى الجحيـم الأبـدى أولاً .

صرخ عدنان فيها قائلاً بانفعال بالغ :

- ماذا ستفعلين بنا أيتها السكرانة المعتوهة ؟.

- ليـس بنـا نحـن ، ولكـن بالجنيـة القـذرة الملعونـة التـى تلبسـتك، وتسـلطت علـى لبـك وقلبـك تمامـاً ، أنـا سـوف أخلصـك وأخلـص نفسـى منهـا إلـى الأبـد .

وفـى الصبـاح راحـت تكيـل لـه آيـات الاعتـذار والنـدم ، وأنهـا غيـر مدمنـة علـى الخمـر كمـا يتصـور ، وأنهـا قلمـا احتسـتها ، ولكـن ضيقهـا البالـغ هـو الـذى دفعهـا إلـى الشـراب بهـذه الطريقـة الهسـتيرية ، فغابـت عـن وعيهـا وتصرفـت علـى هـذا النحـو البـذئ غيـر اللائـق ، فأومـأ لهـا عدنـان برأسـه إيمـاءة مـن قبـل الاعتـذار ، وقـال متمتمـاً :

- هذا يعنى أننا سوف نعود إلى روما .

فابتسمت ملء شدقيها وقالت وهى جادة غاية الجدية :

- سوف أمضى قدماً فى تنفيذ الشئ الوحيد الذى نطقت به صدقاً وأنا فى كامل قواى العقلية وفى غيبوبتى أيضاً ، وعن هذا الشئ لاتسل ، فهذا قدرنا منذ الأزل .

انطلقت جوليانا بالسيارة فى رابعة النهار ناحية الشمال الشرقى، وكان الطريق ينزلق دائرياً كسوار طوق معصم أعالى الجبل المغطى بتلافيف العشب الأخضر والأحمر والأزرق والأصفر، ولم تكن مدينة روما هى التى لاحت من بعيد على مرمى البصر كما توقع عدنان ، بل مدينة الجزر والجنادل الوادعة ، وحيث تترابط القنوات بمئات الجسور وتصطف على جوانبها القصور الفاخرة والأزهار اليانعة الزاهية .

- يالها من مدينة سيئة الحظ ، قد أطاح بها السفاح آتيلا و جعل عاليها سافلها ، مما دعا سكانها الفزعين يفرون إلى الأرض الرخوة والمستنقعات على الساحل الأدرياتيكى، ومع زيادة الاضطراب السياسى وجد السكان أنه من الحكمة البقاء فى أراضى المستنقعات وبناء بيوتهم فوق الأجزاء اليابسة المنتشرة داخل المياه ، ومن هنا كانت بداية ظهور فينيسيا إلى الوجود .

- فينيسيا !!.

- أجل لقد غيرت كل خططى فى الحياة من أجلك ، ومن أجلك أيضاً سأغير خططى الجديدة .

- وماذا عن ميلانو وعمك جرازيانو ومعاونته لنا فى أيجاد المأوى والمأكل والمشرب والعمل ، جوليانا أنا لست لعبة فى يديك تعبثين بها كما تشا........

كان عدنان يلقى كلماته بسرعة انحدار جمرة النار من فوهة جبل عال ناحية السفح ، فقاطعته جوليانا بحدة وهى تقول متهكمة :

- كفاك لغطاً أيها الممثل المتحاذق ، لقد بانت نيتك ، أنت تخطط من أجل الرجوع إليها ، وليس من أجل البقاء معى .

كانت جوليانا فى أعمق أعماق نفسها قد عرفت وبما لاينفع معه شك أو اختلاق أية مبررات أو أعذار أن هذا المصرى لم يكن لها منذ البداية ولن يكون أبداً ، وأنها أبعد ماتكون عن مشاعره وحساباته ، بل لاوجود لها على الإطلاق بأى شكل من الأشكال فى حياته ، وهذا ليس ذنبه ولا ذنبها هى كذلك ، ولكنه القدر بكل مايملكه من سطوة وهيمنة على مقاليد الأمور، والذى جمع المتناقضات كلها فى بوتقة واحدة ، وفرض على كل واحد من أطراف هذا الصراع الهزلى أن يفكر بالطريقة التى تناسب مصلحته ورغبته ، وأن عدنان سرعان ماسيتحين أول فرصة للهروب من إيطاليا عائداً إلى بلده وحيث يوجد حبه الأول والأخير هناك ، وذلك بعدما يكون قد استرد وعيه ووفق أوضاعه جيداً، ورتب بدهاء للفرار سراً ، وربما أعانه على ذلك تلك النقود التى سيكون قد كسبها خلال رحلة عمله الشاقة فى ميلانو

مـع العـم جرازيانـو ، فلمـاذا تمنحـه هـى بدورهـا هـذه الفرصـة الذهبيـة، والتـى قـد تعيـده بـين ليلـة وضحاهـا علـى طبـق مـن ذهـب إلـى ناردين حبيبتـه كل أملـه وغايـة مـراده مـن الحيـاة ، فهيهـات ثـم هيهـات أن تتركـه يمضـى هكذا بسـهولة ، ومـن غيـر أن تكـون قـد أخرجـت جنيـة الحب هـذه مـن قلبـه إلـى الأبـد ، والتـى لـن يكـون بعدهـا لناردين أى أثـر يذكـر فـى حياتـه، ولكن كيف السـبيل إلـى ذلـك ؟ ، فلقـد كان مثـل هـذا السـؤال الملح الـذى يـدور فـى ذهنهـا هـو الـذى مـن أجلـه غيـرت كل شئ فـى خططهـا ، وأصبحـت فينيسـيا سـيدة الأدرياتيكـى وكهـف سـنيور باجانيللـى الرهيـب همـا وجهتهـا المبتغـاة ، وليـس ميلانـو والعـم جرازيانـو وكمـا خططـت لذلـك مـن قبـل ، ولكـن مـادار فـى خلدهـا آنـذاك ، وكان شـغلها الشـاغل لحظـة اقتـراب السـيارة مـن محطـة الفابوريتـو ، وحيـث تقبـع علـى حـواف شـواطئ القنـوات العشـرات مـن القـوارب البخاريـة ، المتأهبـة للطـواف بشـواطئ وجـزر فينيسـيا المدينـة السـاحرة العائمـة فـى قلـب ميـاه البحـر الأدرياتيكـى العظيـم بمنطقـة فينيتـو : « هـل مـن أمـل بعـد ذلـك فـى الذهـاب معـاً إلـى ميلانـو عاصمـة اللومبـاردى والعـم جرازيانـو ، وإجـراء مراسـم الـزواج فـى كاتدرائيـة ميلانـو العملاقـة والتـى يعلوهـا مـن الخـارج تمثـال العـذراء مـريم الـذى يلامـس عنـان السـماء ، بـل لِـمَ لايتـم كل شـئ بهـدوء فـى أى مسـجد مـن مسـاجد المسـلمين الرائعـة « ، وهنالـك نـدت عنهـا سلسـلة مـن الحـركات العصبيـة الغامضـة ، والمرتبكـة بـين الأمـل وبـين الألـم الشـديد!، وقـد شـرعت تجـرى العديـد مـن الإتصـالات السـريعة الغامضـة بهاتفهـا النقـال .

●●●

(٢٦)

أخذ عدنان يجيل نظرات عينية المسحورة خلال متاهة القنوات المترابطة بواسطة أكثر من أربعمائة جسر عبر طرقات مدينة فينيسيا العائمة أو التى عُرفت تاريخياً بالبندقية ، كانت الطرقات المائية التى تشق المدينة من كل ناحية تضيق تارة وتتسع تارة أخرى ، وقد حفت بها من كل الجنبات الأرصفة والبنايات الصغيرة والكبيرة الزاهية الألوان والمحال التجارية الرائعة التصميم ، وتراصت فى شكل بديع مراكب الصيادين عند مداخل المجارى المائية التى تقود إلى المخارج حيث ينتصب ساجياً كالوحش الكاسر من بعيد البحر الأدرياتيكى الهادر الكبير ، ومن حين لآخر كانت تشق القنوات ذاتها بعض الجزر والجنادل الكبيرة فتفرقها إلى سلسلة متشعبة من القنوات الأخرى الصغيرة ، كان عدنان قابعاً آنذاك فى قلب المركب الخشبى الذى يقف سائقه المرح عند المقدمة وهو يقوده بمهارة فائقة بالمجداف ، ويدفعه ان استدعى الأمر بعيداً عن الجنادل أو الفابوريتى - القوارب - ذات المحركات الآلية والبخارية والتى كانت تعترض طريقه بين الفينة والأخرى ، وأحس عدنان أن هذا المراكبى الماهر قد جاء كابراً عن كابر من أصلاب البندقيين المهرة الذين اخترعوا رياضة التجديف بالأسلوب الفينيسى الشهير alla veneta voga ، كما أحس فى بعض الطرقات التى كانت تضيق من حوله أنه لو مد ساعده للأمام لأمكنه مصافحة المارة وراكبى الدراجات والنسوة اللائى وقفن فى الشرفات يثرثرن أو

يتشـاجرن مـع بعضهـن البعـض ، وفجـأة أفـاق علـى هتـاف جوليانـا بـه ، والتـى كانت بـين الواقفة والجالسـة عند مؤخـرة القـارب وهـى تشـير إلـى أحـد الجسـور القريبـة قائـلة :

- هذا هو جسر التنهدات ، أتعرفه ؟.

صمت هنهيهة ثم قالت وهى تتنهد تنهيدة عميقة :

- هيـه كازانوفـا أيهـا البائـس ، لقد كان معتقـلاً هنـا قبـل أن يهـرب مـن الزنزانـات السـفلية الموجـودة تحـت الأرض ، والتـى كان يربطهـا هـذا الكوبـرى بقصـر كبـار القـادة الـوردى ، الذيـن تلوثـت أياديهـم بدمـاء الكثيـرين مـن الأبرياء والضحايـا ، هـه وبحجـة إقامـة العدالـة !.

إلا أنهـا صمتـت قليـلاً ثـم أردفـت قائلـة باسترسـال عجيـب وكأنمـا تخاطـب نفسـها بنبـرة هذائيـة ، وقـد فضحتهـا رغمـاً عنهـا نيتهـا التـى تطويهـا بـين أضلعهـا :

- وإن كنـت لاأرى بأسـاً مـن إقـرار العدالـة بـأى طريقـة كانـت ، فمـن حـق أى إنسـان أن يأخـذ مايعتقـد أنـه يخصـه ممـن يعتقـد أنـه لايسـتحق أى شـئ علـى الإطـلاق ، وحتـى لـوكان هـذا الآخـر يسـتحق فعـلاً فليكـن الصـراع إذن مـع أقدارنـا نفسـها ، والتـى تكتـب علينـا أحيانـاً أن الجميـع يسـتحقون شـيئاً واحـداً ، فـى حـين أن واحـداً فقـط هـو الـذى يجـب أن يفـوز فـى النهايـة ، يكـون وحـده فـى داخـل إطـار الصـورة وليـس أحـداً غيـره، هـذه هـى العدالـة ولـو أخـذت بسـيف الميكافليـة البتـار ، لأن الـذى يهـم فـى النهايـة ، أن يكـون المسـتحق واحـداً ليـس أكثـر و.........

ولكنها سرعان ماقاطعت نفسها بنفسها ، وقالت مستدركة وهى تشير إلى جسر التنهدات الممتلئ بالزوار :

- آه ه ه ، نسيت أن أقول لك ، البعض يعتقد أنك لوجئت إلى هنا ليلاً ، وصعدت الجسر بمفردك ، لأمكنك سماع صوت التنهدات وأنات السجناء الحزينة ، والذين كانوا يعذبون وينكل بهم حتى الموت منذ مئات السنين .

- جوليانا ، هه أتصور أننى قد ناديتك باسمك أنتِ وليس بأى اسم آخر ؟.

- حسناً فعلت أيها القديس الطيب .

- ماذا تكون العدالة فى رأيك على وجه التحديد ، والتى لاترين بأساً فى إنفاذها بأى شكل كان ، ولو بإراقة دماء الأبرياء ، وبأسلوب الغاية التى تبرر الوسيلة ولو كانت قذرة ؟!.

لم تحر جوليانا جواباً فى الحال ، ولكن اكتفت بالإشارة إلى مكان بعيد حيث بدا المنزل الذهبى الأثرى الشهير ، والذى تم طلاؤه ذات يوم بالذهب الخالص ، بعد أن بنى على الطراز القوطى الفخيم ، فصرخت قائلة وكأنما لتهرب من سؤال عدنان ومن نظرة عينيه المتسائلة كذلك:

- أليس هذا البيت الذهبى رائعاً ويشبه علبة الحلوى الجميلة، لقد طلبت من ريس المركب أن يأتى بنا إلى الجراند كانال أهم شوارع المدينة، لترى مالم تحلم برؤيته فى حياتك ، أنظر .

وأخيـراً وبعـد إلحـاح منهـا أدار عدنـان رأسـه وعينيـه بعيـداً عنهـا، وقـد راح يلقـى بنظـره إلـى المجـرى المائـى الملئ بالجنـادل والفابوريتـى، والمقـام عبـره عـدد لايحصـى مـن الكبـارى البديعـة ، والـذى تصطـف القصـور الباهـرة على جانبيـه ، وصـوت جوليانـا مايـزال يـرن فـى طبلتـى أذنيـه بصخـب وقـد تقمصـت دور المرشـد السـياحى وهـى تقـول :

- الكثيـر مـن هـذه القصـور الفينيسـية توجـد بداخلهـا متاحـف رائعـة تحـوى مجموعـات هائلـة مـن الكنـوز الفنيـة والمعماريـة ولوحـات وتماثيـل المشـاهير منذ عصـر النهضـة وحتـى وقتنـا الحالـى ، أوه تيتيـان ، مانتيجنـا ، جيورجيونـى ، دى شيـريكو ، أرتورومارتينـى ، بيترولونجـى ، فـان دايك ، كاراباشيو ، وغيرهـم مـن الفنانـين والمعماريـين والنحاتـين العباقـرة، مـن المؤكـد أننـى سـوف آخـذك فـى جولـة لزيـارة كل هـذه المتاحـف فـى وقـت مـا .

- فـى ايطاليـا نحـن لسـنا فـى حاجـة للذهـاب إلـى المتحـف ، لأننـا بالفعـل فـى قلـب متحـف كبيـر .

ضحكـت جوليانـا متهللـة مـن إطرائـه السـخى علـى بلدهـا ، ولكنهـا اسـتدارت فجـأة لكـى تتحـدث فـى هاتفهـا المحمـول هامسـة مـع شـخص مـا وقـد أولتـه ظهرهـا تمامـاً ، وكانـت الحيـاة قـد بـدأت تـدب مـن جديـد فـى رغبـة الفضـول التـى لديـه ، ومحاولـة معرفـة مـاذا يـدور مـن حولـه ، ويدبـر لـه خفيـة فـى كنـه الغيـب ، وهـى الصفـة التـى افتقـر إليهـا طويـلاً ومنـذ لحظـة ميـلاد إحساسـه بـأن الكثيـر مـن الأحـداث التـى تمـر بحيـاة الإنسـان ليست إلا عمليـة خـداع بصـرى ، ولكـن الآن ولأمـر مـا اسـتيقظت

فيه جملة من الغرائز الحيوية الطبيعية ، وبخاصة أن هذه الشقراء باتت تحمله من مجهول إلى مجهول ، ومن الغامض الغريب إلى ماهو أغرب من الغرابة نفسها ، فماذا عساها تفكر وتخطط الآن ، ولعل جملتها العصبية التى فاهت بها قبل ساعات ، وأنها لن يهدأ لها بال حتى تخرج جنية الحب من بدنه إلى الأبد وبأية وسيلة ، هى التى زلزلته من داخله ، وجعلته يستفق من غفلته المقيتة ، وينتبه إلى نفسه التى غاب عنها طويلاً ، بل كل هذا يهون أمره وبما فى ذلك نفسه ، ولايساوى شيأً يذكر أللهم إلا إذا ماقورن بالخطورة الحقيقية التى قد تحل بناردين حبيبته على يد هذه الحسناء الايطالية الغريبة الأطوار، والتى تتصور أنها فى صراع دائم مع الأقدار نفسها لا مع مجرد أشخاص طبيعيين ، وأنها لن تتردد عن فعل أى شئ جنونى مادام سيصل بها فى النهاية إلى هدفها المنشود ، ومن أجل هذا حاول أن يدق من حولها كلما غدت أو راحت ما استطاع دقه من أجهزة التنصت المنبعثة من أذنيه ، وقرون استشعاره الخفية ، وذلك لكى يفهم إلام ترمى هذه المرأة اللغز بالضبط ، وتخطط لماذا ، وهل فى مقدورها حقاً الوصول إلى ناردين وتدميرها معنوياً وبدنياً كى تخرجها من سويداء نفسه إلى الأبد ، ولكن كيف يكون ذلك وهو نفسه لايستطيع الوصول إلى حبيبته إلا بمحض الصدفة ، ومشيئة الأقدار ان شاءت، فهل تستطيع جوليانا الوصول إليها حقاً ، أم أنها كانت تعنى شيئاً آخر، لاعلاقة له البتة بكل ماجال فى خاطره !.

توقف المركب فجأة أمام بناية عالية لاتبعد كثيراً عن ميدان سان ماركو الشهير ، وكان لايفصلها أى شئ عن الماء ، وفى الحال قفزت

جوليانا من جانب المركب إلى مدخل البناية رأساً، وأشارت لعدنان أن يتبعها ، فقفز فى أثرها بلاتردد ، ثم صعد وراءها فى درج البناية حتى قمتها المرتفعة ، ثم توقفا أمام بوابة حديدية كانت تفصلهما عن الولوج إلى سطح البناية مباشرة ، فدفعتها جوليانا بساقها على مصراعيها عنوة ، فأحدث ذلك صريراً مزعجاً للغاية ، لم تبال جوليانا بذلك الصوت المزعج والذى يشى بحقيقة أن هذه البوابة الصدئة الحواف لم تستعمل منذ سنوات بعيدة ، بل واصلت اندفاعها ناحية السور المنخفض الذى كان يحيط بالسطوح من كل جنباته ، وتطلعت إلى المشهد البديع الخارجى الذى تطل عليه البناية ذات الألوان التى تجعلها تشبه إلى حد بعيد قوس قزح ، والذى ارتسم قرينه كذلك على صفحة الأفق ، فوق مياه الأدرياتيك الزرقاء والتى كانت تلوح من بعيد كالحلم ، كان عدنان آنذاك مغمض العينين وقد جعل يأخذ نفساً عميقاً من تلك النسمات المنعشات اللائى رحن يداعبن أرنبة أنفه ، ويرنحن أعطاف نفسه المشتاقة إلى الدعة والرومانسية الحالمة ، ويتطايرن بخصلات شعر رأسه الناعمة الذى مال لونه إلى الفضية أكثر من ذى قبل .

- وجودنا هنا لليلة واحدة فقط ، وغداً سوف آخذك إلى الجنة إن لم أفلح فى هذه الليلة .

قالتها بدلال أنثوى وهى تغمز له بعينها الزرقاء كأمواج الأدرياتيكى المتلاطمة ، ثم تقدمت من حجرة كانت تقبع فى زاوية السطوح ، واكتفت بدفع الباب فقط الذى كان مواربأ ، والذى أحدثت عملية فتحه أيضاً صريراً لايقل إزعاجاً عن بوابة السطوح الحديدية ، ثم

ضغطت مقبس النور ، فلاح على أثر المصباح المشع المكان كله فى هيئة حجرة واحدة زاهية الألوان بسرير واحد عريض ، ونافذة تطل على برج كنيسة «باسيليكا سانت مارك» الذى يشبه نصف الكوب المقلوب المطاول لطبقات السحاب ، كما كانت توجد ثلاجة وموقد كيروسين ومجموعة من أطباق الطعام، وفى العمق بدت طرقة صغيرة تؤدى فيما يبدو إلى دورة المياه، أجال عدنان عيناه فى المكان الضيق وقد ملأته الرغبة فى الاسترخاء فى الفراش ثم النوم العميق فلقد كان منهك القوى تماماً ، ولكن جوليانا التى قرأت مايجول فى خاطره بسرعة، ابتدرته قائلة وهى تدفعه برفق من ظهره ناحية الحمام الداخلى :

- لن تنم قبل أن تأخذ حماماً دافئاً ، وأنا من بعدك .

مضى عدنان مستسلماً للأمر الواقع ، فيما اندفعت جوليانا ناحية الثلاجة ، وحين فتحت بابها على مصراعه شهقت صارخة من فرط السعادة وهى تنظر إلى أرففها المكدسة بأصناف مختلفة من الطعام والعصائر الطازجة ، وزجاجات الويسكى والكونياك :

- أوه سنيور باجانيللى ، يالك من رجل مدهش .

جن الليل ، وأضاءت المدينة قناديلها الملونة الجميلة ، وانبعثت أصوات مواتير الفابوريتى الدائرة فى القنوات ممتزجة بأصوات موسيقى مدينة البندقية العتيقة الصادحة فى الميادين المحدقة بهم من كل ناحية ، والتى تقاطعها من آن لآخر أبواق السفن السياحية والتجارية والتى كانت ترسو بشكل دائم على أرصفة فينيسيا ميناء الأدرياتيك القديم ، آنذاك كان عدنان يغط فى النوم العميق ، وقد

تدلت ساقاه من فوق الأريكة الخشبية التى لم تستوعبه بطوله الفارع، فحين دعته جوليانا كى يستلقى إلى جانبها فى الفراش اعتذر لها بأدب جم ، ثم مضى بتثاقل إلى الأريكة التى كانت تقبع أسفل النافذة مباشرة ، وغرق فى النوم العميق ، أما جوليانا فقد جفاها النوم ، وظلت تتقلب فى الفراش طويلاً وكأنها ممددة فوق بحر من الأشواك الملتهبة ، ثم لم تجد بداً فى آخر الأمر من الخروج إلى السطح واستنشاق الهواء المنعش، ولكنها سرعان ماعادت ، وارتمت جالسة على ركبتيها عند رأس عدنان النائم كطفل وديع ، وراحت ترنو إليه طويلاً، وتعبث برقة بأطراف أصابع يدها فى خصلات شعر رأسه الناعمة المنسدلة كالحرير ، وبصوت دافئ رخيم أخذت تدندن بكلمات أغنية كانت مرتجلة من تأليفها على أغلب الظن :

- أيها الجاهل بالنساء ، يالك من رجل غشيم ، كيف يأتيك النوم، وسالومى شيطانة الإغراء ساجية عند قدميك ، تترنم باسمك البديع ، سالومى التى هزت عرش الملوك ، وأطاحت برأس يوحنا المعمدان ، وارتوت بدمائه الطاهرة ، ولم تكن لتتورع عن إلباس المسيح إكليل الغار بيديها ، واقتياده إلى الصليب ، ودق المسامير بنفسها فى جسده الحى ، وحمله على محفة الموتى إلى جبل جلجثة البغيض ، هيه أى رجل أنت ؟!، أيها الرجل الغشيم ، يامن لاتعرف النساء ، لماذا علقنى الرب بك ، بهيئتك ، بصورتك، حتى رائحتك وصوت قدميك وهى تدب على الأرض ، ولماذا أسرنى إليك حتى صرت كبندول الساعة أسيرة الزمن ، إن سار سرت وإن توقف توقفت معه على الأثر فى التو واللحظة ، لقد كرهت سمراء الاسكندرية بلاسبب سواك ، وبيت العزم

علـى قتـل ناردين بغيـر سـبب سـواك أيضـاً ، بـل كرهـت كل نسـاء العالـم فمنـذا يكـون السـبب إلاك .

ثـم تطلعـت بعينيهـا إلـى بـرج كنيسـة الذهـب الشـهيرة بـ باسـيليكا سـانت مـارك المضـاء ، وحيـث يقبـع فـى داخلهـا مزيـج هائـل مـن الصـور الفسيفسـائية النـادرة التـى تحكـى مشـاهد وعبـر انجيليـة ، قصـة بـرج بابـل ومشـاهد مـن حياة المسيح ، ورقصـة سـالومى فـى بـلاط هيـرودس ، وهـى فـى أرديتهـا السـبع التـى ابتـدأت بالـرداء الأحمـر وذيولـه الذئبيـة البيضـاء، ثـم خلعتـه لتكشـف عـن آخـر ، فالـذى يليـه ثـم الـذى يليـه حتـى تبـدى إهابهـا الناصـع الفتـاك ، إنهـا شـيطانة الإغـواء الأزليـة ، أسـتاذة فتيـات الليـل وعاهـرات المراقـص الوضيعـة ، واسـتاذة ميكافيللـى نفسـه ، حـين تذرعـت بأيـة وسـيلة مدنسـة مـن أجـل الوصـول إلـى غايتهـا والخـلاص الأبـدى مـن صـوت الضميـر المزعـج الطيـب النفس يوحنـا المعمـدان :

- أوه إلهـى، لسـت أسـعى للتخلـص مـن نبـى ولاقديس من القديسـين أصحـاب الأرواح الطاهـرة ، أنـا فـى حـرب دفاعيـة عـن رجل أمـرت الأقدار بـأن تقاسـمنى فيـه امـرأة لاتعرفنـى ولاأعرفهـا، وإن لـم أسـبق أنـا بإزاحتهـا مـن سـبيلى سـبقتنى هـى وفتكـت بـى شـر الفتـك ، وفـازت بمـن أشـتهيه أيمـا اشـتهاء، وخرجـت مـن المعركـة خاسـرة خسـران العبيـد الأذلاء .

وحين أفـاق عدنـان مـن نومـه كانـت سـالومى تـزرع سـاحة المكان المعطـر بالنشـوة الشـبقية رقصـاً ماجنـاً ، وتتجـرد مـن ثيابهـا قطعـة فـى أثـر الأخـرى، وهـى تشـير إليـه أن يسـلمها حبيبتـه ، وأن يخـرج هـذه الجنيـة النجسـة مـن داخـل جسـده ذى الـروح الطاهـرة إلـى الأبـد .

كانت ناردين التى زاد مرضها آنذاك ساجدة ، وتبتهل إلى اللّه أن يقشع تلك الغمة ، وأن يهديها إلى الصواب ، كانت تبكى بحرقة ومرار بالغين ، فلم يعد هناك أدنى أثر للطيبين الذين أحبتهم فى حياتها ، خالد ابنها وفلذة كبدها ، وعدنان فخرى حبيبها وأملها فى الحياة ، وزميلات الطفولة البريئات ، صويحباتها الحالمات اللائى كن معها فى الملجأ الذى نشأت وترعرعت فيه ، الأشرار فقط هم من سطو على لوحة الحياة التى كتب علينا أن نحياها ونحن أذلاء ، خانعين ، ولكن إلى متى ؟ ، ولِمَ حياة الذل والصغار والرضاء بالأمر الواقع ، فلماذا أقبل بأن أكون حارسة الشيطان شفيق وجدى وحامية حماه ، بل لماذا أقبل بوظيفة العاهرة المدنسة لعتمان الديب وكمال رأفت وغيرهما ، التمرد يعنى ضياع خالد ابنى إلى الأبد ، والاستسلام والخضوع لن يعيد ابنى حقاً ، ولكن يضمن لى بقاءه حياً على أقل تقدير، ومن غير أن يقتلوه بدافع الرحمة والشفقة كما يزعمون ، ولكن هل ستعذرنى أيها الخالد ان تمردت أمك البائسة على حياتها، ورفضت أن تظل خرقة القماش القذرة ، فأنا عاشقة النور ، عاشقة الطهارة ، عاشقة الانسان النبيل الذى حلمت بمجيئه دوماً فى صورة الفارس الطيب القلب الزكى النفس ، الذى يركب جواداً أبيض اللون ، ثم يحملنى إلى آفاق عالم آخر جميل وديع ، لا هذا العالم الكئيب البغيض الملئ بالأنانية والحقد والكراهية ، قالت ناردين كل ذلك وأكثر بكثير وهى لم تزل ساجدة بعد على فراشة الصلاة بملابسها البيض المهفهفة، فيما كان شفيق وجدى يقف عابساً فى الساحة الخارجية للمنزل ، وهو يتلقى رشاشاً هائلاً من الإهانات والشتائم عبر الهاتف المحمول

بسبب فشله الذريع فى استرجاع الملف الهام الذى فقده ، والذى كان لم يزل بعد يتوهم أنه فى حوزة عدنان فخرى ، الذى انقطع عن عمله، واختفى تماماً من الاسكندرية بأسرها ، وربما من مصر بحالها كما عرف من أعينه الجاسوسية التى يدسها فى كل مكان ، بل عرف قبل عدنان نفسه، الذى لم يكن قد علم بعد أن المحكمة قد خلعته غيابياً بالفعل من زوجته بهية منصور ، ومنحتها حق الحضانة والمسكن، وكان هذا الاختفاء المريب وراء زيادة مساحة الشك فى نفس شفيق وجدى نحو عدنان أكثر فأكثر ، فبات كالمجنون المندهش من التزام الصمت المريب من ناحية عدنان حتى هذه اللحظة ، وماذا يروم من وراء كل ذلك، فلو كانت ناردين هى غرضه حقاً الذى يسعى ويقاتل من أجله؛ فهو من ناحيته قد ادخر عليه كل هذا الجهد والوقت وأخذها من يدها بيده حتى فراشه ، ولوكان المال والجاه والثراء غايته فهو أيضاً قد عرض عليه كل شئ ، أما لوكان دافعه وطنى أخلاقى صرف فما سر سكوته حتى هذه اللحظة ، ولماذا لم يبلغ عنه السلطات ثم يسلمها الملف الخطير الذى يمسكه ضده، وعلى غير المعتاد ملأ الشك نفس شفيق وجدى ، ولأول مرة يتجه تفكيرة إلى احتمال كون عدنان فخرى بريئاً من تهمة سرقة الملف ، وأنه ربما يسير وراء السراب لا الحقيقة، فمنذا إذن يكون قد سرق ملفه الهام الشديد الخطورة ، وحينها تأرجح فكره بين العديد من الأشخاص الذين حامت من حولهم شكوكه ووساوسه، ولأول مرة أيضاً تتراءى له صورتها بين أولئك الذين اتهمهم فى مخيلته، فغمغم قائلاً فيما يشبه الهمس الجنونى :

- ناردين !!؟ .

وربما كان سر جنونه الحقيقى أنه كان ينتظر بين لحظة وأخرى نزول كارثة مروعة فوق أم رأسه تقضى عليه تماماً ، وبخاصة بعد أن تناثرت أوراق اللعبة من قبضة يده ، وسقطت فى أيدى أعدائه الذين يمقتونه ويريدون تدميره وتدمير جل أحلامه العريضة بكل الطرق كما كان يتوهم ، فألقى بالهاتف بحدة على الأرض بعد أن فرغ من المكالمة، فتناثر حطاماً وأشلاءً متهاوية ، ثم جعل يلف ويدور فى أنحاء المكان كالمصروع ، وهو يزأر صارخاً كالأسد الجريح المحبوس وراء أسوار عالية من القضبان الحديدية:

- سوف أقتلكم جميعاً أيها الأوغاد ، سوف أقتلكم جميعاً .

فذهب فى قوة إعصار جائح إلى ناردين وهو يسبها ويلعنها، ثم جذبها بوحشية مخيفة من طرحة رأسها حيث كانت ساجدة تصلى، وطاف بها أرض الحجرة مسحاً وتنكيلاً ، فساح الدم من وجهها الشاحب، وتكشفت تماماً ، غير أنها كادت تختنق بطرحتها التى كانت لم تزل بعد مسدلة من قمة رأسها حتى جيدها ، والتى مع قبضته الرهيبة بدأت تضيق على وريد العنق شيئاً فشيئاً ، وأخيراً ألقت بالقنبلة التى كان شفيق ينتظرها بلهفة من كل قلبه ، وقالت بعناء وصوت بح للغاية من فرط الاختناق :

- يوم استدعيتك بالكذب من أجل ادراك أمك التى أدعيت أنها مريضة للغاية ، كنت أريد أن أربكك ، واشغلك عن أشيائك الشديدة الخصوصية ، والتى لم تكن تسمح لأحد قط بالاقتراب منها ، وهو ماحدث بالفعل ، نسيت بفضل الله وحده وأنت العتل الحويط الذى

لايغفل أبداً ، أن تقفل جهاز الحاسب الآلى الخاص بك بالأرقام السرية، كما اعتدت أن تفعل ذلك دائماً ، وهو ماكنت أريده بالضبط .

انتبه شفيق للغاية ، وانفرجت أساريره إلى حد ما ، وقال ناهراً إياها بحدة كى تسترسل فى حديثها ، وقد خفف فى الوقت ذاته من حدة قبضة يده على مشد طرحتها الناصعة البياض :

- كنت حينها أفتش فى كل الأشياء الخاصة بك كى أجد خيطاً واحداً يدلنى على طريق ابنى الحبيب خالد ، وكان جهازك الخاص فى المؤسسة هو الشئ الوحيد الذى استعصى على التنقيب فيه ؛ أللهم إلا بعد نسيانك اغلاقه بالرقم السرى .

- أفهم من ذلك أن الملف معك أنتِ وليس عدنان .

- عدنان ماذا أيها الأبله السمج .

فرك شفيق رأسه بكلتا يديه وكأنما ليفيق نفسه ، وهو يرتمى فى أقرب مقعد صادفه ، ثم قال كمن ردت إليه روحه :

- وماذا أخرك عن مساومتى حتى الآن ؟! ، ملفى الهام فى مقابل خالد .

صمتت ناردين طويلاً وهى تحاول الاستتار منه بملابسها التى تمزقت تماماً على جسدها الناصع البياض كالحليب ، ثم قالت :

- كان هدفى منذ البداية الوصول إلى معلومة تفيدنى عن مكان خالد ، وليس أى شئ آخر ، ولم أكن أتصور أبداً أن يكون ملفك الذى سحبته من الجهاز ، ولم أفهم منه أى شئ على الإطلاق ، أن يمثل لك كل هذه القيمة والأهمية البالغة ، هو ملف شيطانى على أية حال .

قالـت ذلـك ثـم انخرطـت فـى موجـة شـديدة مـن البـكاء ، فأسـقط فـى يـدي شـفيق الـذى قفـز بخطـوة واحـدة فقـط نحوهـا ، وقـال وهـو يجثـو عنـد قدميهـا كالكلـب اللاهـث ، بنبـرة مسـاومة ذليلـة !، لـم تألفهـا ناردين منـه فـى أى لحظـة مـن اللحظـات الطويلـة التـى عاشـتها معـه خـلال السـنوات التـى خلـت :

- لأقبـل قدميـك ويديـك أولاً وقبـل أى شـئ ، وأعـدك أنـه خـلال يومـين اثنـين لاأكثـر ، سـوف يكـون خالـداً ابننـا الحبيـب بـين أحضـان أمـه السـاحرة الجمـال .

وهنالـك مـد يـداه نحوهـا برفـق ، وراح يضمهـا بحنـان تمثيلـى مصطنـع إلـى صـدره الغزيـر الشـعر كالشـمبانزى ، فدفعتـه ناردين دفعـة قويـة أرجعتـه القهقـرى لعـدة خطـوات ، وقـد راحـت تلطـم وتولـول ، كـى يتركهـا وشـأنها وألا يمـس جسـدها الحالـم بالطهـارة والنقـاء بيديـه الملوثتـين ، فوثـب عليهـا شـفيق كالشـيطان وقـد طرحهـا أرضـاً فـى هـذه المـرة ، وقـال ناطقـاً كالمجنـون بمايعنيـه هـو ولايعنيهـا هـى فـى شـئ ، وهـو يهزهـا هـزاً عنيفـاً مـن كتفيهـا :

- ماذا أفهم من ذلك !، أين الملف ، أين ملفى ؟؟.

لـم تحـر ناردين جوابـاً بـأى شـكل مـن الأشـكال ، بـل ازدادت صراخـاً وعويـلاً حتـى أغشـى عليهـا ، وبـات شـفيق وجـدى الليـل بطولـه يترنـح بـين الأنـات والحسـرات ، ويضـرب أخماسـاً فـى أسـداس حـول هـذا اللغـز المثيـر، والموقـف الغامـض العجيـب الـذى وضعتـه فيـه ناردين ، وقـد خالجـه الشـك الشـديد فـى كونهـا قـد فعلـت مافعلتـه، وألصقـت تهمـة سـرقة الملـف

بنفسها ، لا لشئ إلا لإبعاد الشبهة تماماً عن حبيب قلبها ، ونور عينيها عدنان فخرى، ومن ناحية أخرى لكى تبدأ معه لعبة المساومة الكبرى ، من أجل استرداد ابنها خالد ، وانتقاماً لنفسها فى الوقت ذاته ، والتى ذاقت على يديه الكثير من الويلات والعذابات وسوء المعاملة والإهانة غير الطبيعية بكل ماتحمله الكلمة من معنى .

●●●

(٢٧)

حين أفتح عدنان عينيه من النوم لحظة دخولها من الخارج، وجد شعرها الأسود الطويل قد عاد له لونه الذهبى الطبيعى ، وقد ارتدت فستاناً حريرياً قصيراً شفافاً للغاية ، كانت فى غاية الجمال والفتنة وقد انبعثت منها رائحة عطر أخاذ للغاية ، وراحت بشكل استعراضى مثير تلف وتدور حوالين نفسها الأفعوانية على طرف كعبي حذائها المرتفع للغاية ، والمرصع بفصوص الألماس المذهلة ، وهى تقول بنبرة انبهار جم لم تخل من ضحكة سخرية :

- ليت من يصففون شعور النساء فى بوفا مارينا يأتون إلى صالونات فينيسيا الرائعة ، ليروا بأعينهم الذوق وفن التجميل الحقيقى الذى يعدمونه تماماً ، وأنهم اعتادوا الحلاقة لِمعاز لا لفتيات جميلات .

كانت جوليانا جميلة وساحرة فى مظهرها الجديد ، الذى عادت به للتو من إحدى صالونات تصفيف الشعر الأنيقة ، الملحقة بفندق جريتى بالاس فى الجراند كانال ، والذى اعتاد أن يؤمه مشاهير نجوم السينما والأمراء والملوك والطبقات الارستقراطية وأصحاب المراكز الأدبية الرفيعة ، ولقد كانت رواية « بيتنا فى فينيسيا « للأديب العالمى ارنست هيمنجواى من أوضح الشواهد على ذلك ، كان هذا هو ماعلمه عدنان من جوليانا التى كانت تتحرك بسرعة أثناء اتجاهها للنافذة وفتحتها على مصراعيها ، ثم خروجها للحظة من الحجرة إلى السطوح، وبعدها عادت وقد حملت بيديها مجموعة كبيرة جداً من الأكياس البلاستيكية

التى تحوى فى بعضها القليل الطعام وزجاجات النبيذ الذهبى المعتق والتى نحتها وحدها جانباً ، فى حين أخفت البعض الآخر الكثير وراء ظهرها وقالت وهى تتقدم نحوه بدلال وأنوثة طاغية :

- خمن بربك ، ماذا يوجد فى هذه الأكياس التى أحملها ورائى ؟.

- لا أعرف .

- استحلفتك بربك أن تخمن فقط .

أجال عدنان عينان زائغتان فى المكان ، وكأنما ليتحاشى النظر إليها ، ثم ملك أنفاسه ، وأخيراً راح يتأملها طويلاً ، ولأول مرة ينتابه إحساس بالارتباك الشديد وهو يتطلع إليها ، كانت ليلة الأمس المثيرة لم تزل بعد ثاوية فى ذهنه ، فازدرد ريقه وقال متلعثماً فى الكلام :

- أتصور أنك أحضرتِ بعض الأشياء التى تخص مظهرك.

- بل مظهرك أنت هو الذى يعنينى بالدرجة الأولى ياملاكى الجميل .

وهنالك أخرجت ماوراء ظهرها ، وراحت تريه ماذا أحضرت له من ملابس وأحذية وعطور ، وبرفق مدت يدها نحوه وهى تسحبه ناحية الحمام قائلة :

- سأحممك بيدي هاتين هذه المرة ، وسوف أصفف لك شعرك بيدي أيضاً ، وبالطريقة التى تعجبنى ، ثم لنتناول الطعام ونشرب الجعة ، ولنرى بعد ذلك ماذا ستلبسك حبيبتك قبل أن نخرج فى جولة رائعة بالجندول الفينيسى الشهير .

لم يدر عدنان لما قام معها خانعاً إلى هذا الحد ، ولماذا لم تند عنه أية بادرة اعتراض كما كان يفعل معها من قبل ، وحين بلغا معاً مدخل الحمام دفعته فطرته الخجولة إلى التوقف، والتشبث بملابسه التى كانت تحاول نتشها من على جسده ، ولكنها شدته برفق إلى الداخل وهى تقول ضاحكة :

- لاتخش شيئاً ، سالومى ليلة أمس لن تكون معك ، سوف أدير وجهى عنك تماماً ، إلى المرآة هاهاها .

أصرت جوليانا كذلك على أن تطعمه مالذ وطاب كذلك بيديها، وحين استنكر عدنان ذلك لكونه ليس طفلاً ، ضحكت جوليان برقة وعذوبة بالغين وقالت وهى تغمز له بإحدى عينيها :

- كل رجل فى نظر أنثاه طفلاً صغيراً ، ولو كان عجوزاً فى التسعين من عمره .

ولم تتوان جوليانا عن التمادى فى تطوير أسلوب إطعامها المثير له ، فدست بين طرفى شفتيها الحمراوين قطعة من بيتزا الصلصة المطعمة برقائق اللحم وشرائح الفلفل الحار ، ودنت من فم عدنان حتى يشاطرها لقمتها ، تردد عدنان لفترة عن مجاراة الفتاة فى عبثها اللذيذ ، ثم مالبث أن تراجع إلى الوراء ، وكلما تراجع ، تقدمت هى نحوه ، حتى أفاق على شفتيه وقد أطبقتا على شفتيها تماماً ، وقد راحا يمضغان معاً قطعة البيتزا الملتهبة ، وبصوت واحد صرخا من أثر الشطة الحارة التى ورمت شفاههما، وقاما يصرخان ويضحكان فى آن واحد ، وهنالك جذبته برقة من كتفيه العاليين وقالت بصوت خفيض يذوب رقة وأنوثة :

- يمكنك أن تطفئ حرارة شفاهك فى موج عيني الأزرق .

كانت عيناها الزرقاوين آية من آيات الجمال الإلهى ، وقد انبعثت منهما لآلئ وأصداف عجاب ، وامتزجت بسحر وجهها الدقيق التقاسيم ورائحة عبيرها الفتان التى كانت تفوح منها : «آه ه ه لو عرفت بأمرك فينوس ربة الجمال لعاقبتك أشد العقاب جزاءً وفاقاً على الجمال الذى حوزتيه كله لنفسك دوناً عن بنات حواء جميعهن» ، لم يقل عدنان ذلك بلسانه ، بل كان هناك من يملى عليه فى سويداء نفسه أن يبوح لها بذلك الشعر الغزلى المهووس ، وأن يغتنم الفرصة الذهبية التى تمنحه إياها طوعاً الفتاة الشقراء ساحرة الأدرياتيكى ، وهنالك دنت منه أكثر فأكثر وقالت بصوت هامس وكأنه ينبعث من نسيج حلم وردى :

- من ترانى الآن ، السمراء ، البيضاء ، أم الشقراء ؟!.

لم تنتظر أن يحرى إجابة فورية لها ، بل شدته من معصمه وجرت به إلى خارج البناية ، ووقفت ببوابتها متفادية السقوط فى مياه القناة ضاحكة ، وقد شرعت تشير إلى أحد المراكبية من بعيد كى يدركهما بقاربه الخشبى البديع ، الذى يجلل مقدمته تمثال ذهبى لفينوس وكيوبيد إله الحب بسهمه الشهير الذى أصاب أعتى الناس على مر التاريخ ، فرنت إليه جوليانا رنوة من تهمس فى نفسها قائلة : «هيه كيوبيد القناص ، لقد أدميت قلبى بسهامك الرقيقة وبما فيه الكفاية ، ألن يكن لجبيبى نصيباً من سهامك الساحرة ؟» .

انطلق القارب بهما بعيداً عن سان ماركو ، وقد راح يجوب فى ربوع القنوات الكثيرة ويمرق من أسفل الجسور ، وهو يكاد يلاصق

البنيات المتراصة على الجانبين تارة، أو تتسع فوهة مجرى القناة تارة أخرى فتبتعد عنه البنايات والقصور والمتاحف ويبدو الأمر وكأنه قد ولج بهما إلى أعتاب البحر الأدرياتيكى الكبير، وقد جلسا متلاصقين على غير المعتاد، ومن فوقهما ظللتهما السماء التى غابت شمسها منذ الصباح الباكر، وتواترت إليهما نسائم رقيقة منعشة زكمت أنفيهما، وخدرت أحاسيسهما، وقد أسرتهما تماماً فينيسيا بكل أدوات السحر والفتنة التى تملكها ، كما أسرت الكثيرين من السائحين الذين أتوا إليها من كل حدب وصوب فى العالم ، وبين الحين والآخر كانا يطلبان من ربان المركب أن ينزلهما على هذا الرصيف لزيارة متحف أو قصر، أو ذاك لزيارة معلم من معالم المدينة أو البرجين الشهيرين ، برج الساعة التى لاتزال دقاتها ترن بنفس الطريقة ، الدقة الشهيرة التى ظلت عليها قروناً طويلة ، وكذلك برج الأجراس الشاهق الارتفاع بكنيسة سان ماركو، وحين ركبا مصعد الزائرين إلى قمته الشاهقة لمشاهدة المدينة كلها بمظهرها الخلاب ، قالت جوليانا ضاحكة وهى تشير إلى السماء الغائمة :

- بالليل يمكن للزائرين أن يمدوا أيديهم ويمسكوا بنجومها، ولكن يقولون هذه ميزة خاصة لاتُمنح لأحد غير العشاق فقط .

- يبدو أنه فى فينيسيا لايوجد مستحيل .

انتبهت جوليانا إلى عبارته وقالت متهللة :

- وماذا دعاك لأن تنطق بمثل هذه العبارة الساحرة ؟!.

رنا إليها عدنان طويلاً ، وقد أحس بشئ ما غامض فى أعماق نفسه يدفعه دفعاً لأن يدعوها للانتظار حتى يجن الليل ، ليريا معاً أمر نجوم السماء بأعينهما ، وهل من الممكن الإمساك بها حقاً أم لا، ولكنه تشاغل عن نظراتها الدائمة إليه ، وأشار إلى ناحية ما بعيدة وهو يقول بلهجة هروبية :

- قلتِ لى أنه لايوجد مكان أفضل من مقاهى الفلوريان أو كوادرى للجلوس فيهما وارتشاف المشروبات المنعشة .

فردت بحسرة حاولت أن تخفيها بابتسامة مصطنعة :

- أجل فكلاهما كان قبلة للسياح خلال القرن التاسع عشر ولم يزلا بعد ، وهناك يمكنك أن تشرب اسبرسو أو كأس نبيذ توسكانا المعتق ، واوركسترا المقهى تعزف لك فيردى ، بيتهوفن ، تشايكوفيسكى، وموسيقى الشرق الآسرة الفؤاد «ألف ليلة وليلة» بروعتها الطاغية لكورساكوف ان شئت ، وأنت تعتصر بكل قوتك حبيبتك من خصرها الدقيق بين ذراعيك المفتولين كما يعصرون كروم توسكانا اللذيذ .

ومن فوره تجاهل عدنان رغبته فى الذهاب إلى هناك ، وهو لايدرى ماذا أصابه بالضبط ، ولماذا يقاوم شيئاً ما فى نفسه ، وقد بدا وكأنه هو الذى يراودها عن نفسه ويمنعها من الانصراف بعيداً عنه فى الوقت ذاته ، ويبحث عن كل مايقربهما من بعضهما البعض ، فاستدار بسرعة منصرفاً وهو يتحدث عن أى شئ ، وقد قرر ألا يبقى حتى الليل ومحاولة الإمساك بنجوم السماء مع من يحب ، وبخاصة أن من يحبها ليست هاهنا بل هناك ، وبعيداً عنه بآلاف الأميال :

- لِمَ لا ترينني «بيازيتا سان ماركو» ، وأسده المجنح المرتكز على عمود مرتفع من الجرانيت الذى تقولين أنه اغتصب من القسطنطينية .

- هناك أيضاً سوف تجد العشاق يتعانقون ، لامهرب لك، أنت فى فينيسيا بلد المحبوب إذا بنيتها على الجذر الهندو-أوربى لكلمة حب كما يقول اللغويون فى إيطاليا .

فاجأته جوليانا بتلك العبارة ، ثم انصرفت كالغاضبة ، فلحق بها عدنان بسرعة وهى فى سبيل دخولها إلى المصعد لكى يقلها إلى أسفل البرج ، وأمسكها برفق من أطراف أصابع يدها ، وقال متلعثماً وهو فى غاية التردد والخشية من الانحياز المتعجل للفكرة التى كان يحاول الفرار منها مراراً وتكراراً و بأية وسيلة :

- كدت أدعوك للبقاء هنا حتى الليل ، ولنرى هل فى مقدورنا حقاً الامساك بالنجوم .

صرخت جوليانا فرحة ، وقفزت هاجمة كالطفلة على عدنان ، وتعلقت به من رقبته ، وقد طوقته بذراعيها وساقيها بكل ماأوتيت من قوة ، وهى تقبله فى كل أنحاء وجهه المتفرقة ، متجاهلة كل الأرجاء حيث تطلعت إليهما أنظار المارة ، مع جملة من الابتسامات ، وقد بدا الجميع وكأنهم ينشدون معاً أغنية ذات صدى ملائكى بديع ، ارتجت لها الأجواء الفينيسية رجاً رومانسياً حالماً : «فى البندقية يكون الحب حاراً ، فى البندقية الحب هو لغة الحياة» .

كان الجوع قد قرص معدتيهما قرصاً موجعاً ، فقفزا مع الغروب فى إحدى المراكب ، وأمرت جوليانا قائدها أن يصطحبهما إلى سيبريانى ، ثم أدارت عنقها لتنظر مباشرة إلى وجه عدنان الذى دبت فيه الروح والحياة وهى تقول بسعادة غامرة :

- أشعر أنك قد أصبحت مختلفاً تماماً ، وفى سيبريانى سوف تختلف أكثر وأكثر .

- كنت تقولين أن وجودنا فى حجرة السطوح لليلة واحدة فقط، وأنك سوف تأخذيننى إلى الجنة غداً ، هل كنتِ تقصدين سيبريانى هذه ؟ ، التى لا أعرف ماهى بالضبط على وجه الدقة .

ثم صمت قليلاً وكأنما قد تذكر شيئاً ما ، ثم عاود مواصلة الحديث بالنبرة السريعة التى تتدفق بالحيوية والحياة ، وهو مالم تألفه منه جوليانا من قبل ، وإن لاحظت أن كلامه لها ينطوى على الكثير من الأسئلة التى تحيره فى قرارة نفسه ، فراح من توتره يكرر بعض الكلمات المتسائلة التى فاه بها للتو :

- كنت تقولين أيضاً أن مقامنا فى حجرة السطوح لن يطول ، لليلة واحدة فقط ، ولكننا تجاوزنا الأسبوع على مأعتقد ، وقلت كذلك وقتها أنكِ فى الغد سوف تأخذيننى إلى الجنة إن لم تفلحى هذه الليلة، تفلحين فيماذا بالضبط ؟ ، وأى جنة تقصدين، سيبريانى ، فى حال فشلك فى الشئ الذى كنتِ تسعين للنجاح فيه ، أى شئ ياترى ذاك الذى تخشين الفشل فيه ؟ ، و......

فقاطعته ضاحكة وهى تقول :

- حسبك حسبك ، لقد أصبحت ثرثاراً أكثر من الطليان أنفسهم .

ثم تأملته هنيهة وبعدها قالت بنبرة جادة لم تخل من أنوثة طاغية :

- هل أعجبتك حجرة السطوح ؟.

أومأ برأسه بمعنى الإيجاب وان استدرك قائلاً بتحفظ وارتباك معاً :

- ولكن ليس من أجل غواية سالومى ، المكان كان لطيفاً ، من داخله ومن خارجه .

- فقط ؟! .

أمسك عدنان بناصية رأسه ، ثم فرك عينيه وكأنما ليقشع الزغللة التى رانت على ملايين الصور المختزنة فى نفسه ، ثم نظر إليها طويلاً وكأنما ليتحقق من شئ ما مستوراً فى نفسه ، ولكنه فوجئ بجوليانا تقطع عليه خلوة أفكاره قائلة :

- هل تحاول أن تتذكر شيئاً ما ؟.

- مثل ماذا ؟.

- مكان بعينه ، حدث معين ، أو ......

- أو ماذا ؟.

- شخص ما مثلاً !.

أطرق عدنان صامتاً وهو يفكر فى فحوى الكلمات التى تلقيها إليه جوليانا بشكل غير عفوى بطبيعة الحال ، ولكنها قالت متجاهلة الجزء المنصرم من حديثهما تماماً :

- سيبريانى ليست الجنة التى كنت أقصدها .

- فماذا تكون الجنة الموعودة التى تقصدينها إذن ، ولماذا لانذهب إليها مباشرة ، أو أنك قد أفلحتِ بالفعل ، أو فشلتِ لست أدرى، فى ذلك الشئ الذى لاأعرف ماهو حتى الآن؟، وأنتِ تتمنعين على ولاتريحين فؤادى بإجابة شافية .

تجاهلت جوليانا أسئلته المتلاحقة ، وعتابه الضمنى ، وقد كادت تقول له بلسان حالها أن لونظرت تحت قدميك لوجدت ياغبى كل الأجوبة ماثلة أمامك عينيك مباشرة ، ولكنها قالت غير آبهة بنظرة عينيه المسلطتين على شفتيها الحمراوين كدم الغزال الفائرة واللتين كانتا تنطويان على ابتسامة ذات مغزى معين :

- سيبريانى فندق هادئ رائع للاستجمام فوق جزيرة صغيرة تصل عبر ميدان سان ماركو ، لقد كانت فيلا فى الأصل من إبداع صاحبها جوسيبي سيبريانى ، صاحب بار هارى المعروف، والشخصية الواقعية الشهيرة فى رواية هيمنجواى عن فينيسيا الخالدة .

كانت سيبريانى تغص بمئات السياح ، والذين تراصت أعداداً هائلة منهم بأردية البحر الساخنة حول حمام السباحة الكبير ذى

المواصفات الأوليمبية ، فيما كانت تعزف الأوركسترا الموسيقية بمصاحبة الراقصات العرايا وجموع من العاشقين والعاشقات ، فقال عدنان وهو يجيل عيني الاستهوال فى أرجاء المكان الفخيم :

- من يقيم أو حتى يمر مجرد المرور من هنا لابد أن يكون شديد الثراء .

- بارك الرب فى سنيور باجانيللى .

- هذا الاسم ترددينه كثيراً على لسانك .

فاستدارت ناحيته وقالت بنبرة جادة للغاية لاتحتمل الهزل :

- صاحب الجنة الموعودة .

وقبل أن يتمادى مسترسلاً فى طوفان لاه من الأسئلة ، قالت بنبرة حازمة ولطيفة فى الوقت ذاته :

- يمكننا تناول أشهى المأكولات الفينيسية الأصيلة هنا فى سيبريانى ، فى الغرف الداخلية ذات الديكورات البديعة ومن حولك الشمعدانات الذهبية ذات الشموع الملونة ، واللوحات الفنية العالمية المرسومة بالزيت ، أو هنا فى الحديقة أو على البار مع آيس كريم بالشمبانيا ، وكأس المارتينى وهم يعزفون لنا رائعة فيردى «لاتريفيياتا» أو «ريجيلتو» ، هنا البيتزا خرافية ، والاسباجيتى لامثيل لها، أو لنأكل اسكامبى ثيرميدور، شاتوبريا ، الريسوتو ، جرانزيولا أدرياتيكو ، ياإلهى كل شئ رائع رائع ، ثم لنمضى بقية أمسيتنا متعانقين على ضوء الشموع الحالمة فى نادى النورس المخصص للضيوف والعشاق .

ومـا أن رنـت فـى أذنـى عدنـان كلمـة النـورس حتـى امتزجـت فـى الحـال مـع موسيقى حلمـه ذى اللحـن القـديم ، وحوريـة البحـر السكندرى، أميـرة أحلامـه فكاد يستفيق مـن قبضـة عالمـه الواقعـى وبكل مافيـه مـن سـحر وألـق متناهيـين ، ويرتـد إلـى أطيـاف عالمـه القـديم ، وفـى الحـال لقـط رادار الأنثـى الثـاوى فـى أنسجة جوليانـا الأنـين ذى الشجـن الحزيـن الـذى راح يصـدح وكأنمـا مـن بعيـد جـداً فـى أعمـق عمائـق روح عدنـان، فـكاد ينفصـل عنهـا وعـن واقعـه تدريجيـاً ، ولكنهـا سـرعان مـا جذبتـه بصـورة فجائيـة عنيفـة مـن سـاعده وهـى تجـرى بـه فـى اتجـاه الفابوريتـى التـى تقـف علـى صفحـة الميـاه ، وهـى تقـول بـذات الـروح المرحـة ، لتلهيـه عـن أطيـاف الماضـى ، ولتسـترد أرضـاً أوشـكت أن تفقدهـا فـى داخلـه للتـو:

- لنذهـب إلـى المطعـم الأنيـق تافرنـا لا فينيسـي ، بـل إلـى تراتوريـا دا برونـو فخـر فينيسـيا البندقيـة ، هـى ليسـت بعيـدة كثيـراً عـن هنـا، إنـه مـكان رائـع للغايـة بـكل ماتحملـه الكلمـة مـن معنـى ، يقـع فـى منتصـف الطريـق بـين كوبـرى ريالتـو وميـدان سـان ماركـو ، ويمكننـا أن نشـم رائحـة الشـواء المثيـر للشـهية مـن هنـا ، إنهـم يشـوون اللحـوم هنـاك فـى الهـواء الطلـق علـى نـار مكشـوفة ، فاجيانـو ، كابريـولا ، جرانـز يـولا ....

ولكنهـا قاطعـت نفسـها فجـأة منفجـرة فـى الضحـك ، وقالـت معتـذرة لكونهـا قـد ذكـرت أسـماء الكثيـر مـن الأصنـاف دون أن تشـرح لـه معانيهـا، وسـرعان ماعـرف عدنـان أن لحـوم الطيـور هـى الفاجيانـو، ولحـم الغـزال هـو الكابريـولا ، وأن الجرانزيـولا هـى سـرطان البحـر العنكبوتـى المسـتخرج مـن قلـب ميـاه البحـر الأدرياتيكـى المالحـة ، أمـا الماكيدونيـا التـى اشـترتها

جوليانا بعد تناول وجبة الغذاء من مطعم آل تياترو المتخصص فى الحلوى والفطائر ، فقد قالت له وهى تغمز له بإحدى عينيها الساحرتين :

– الماكيدونيا هى سلاطة الفواكه الرائعة مع الآيس كريم التى سوف تتذوقها الليلة على أغرب مائدة رأيتها فى حياتك .

لم يذهبا إلى فندق سيبريانى كما قالت له ، كما لم يعدا إلى حجرة السطوح المطلة على ميدان سانت مارك ، بل إلى الخلاء الرحب، وحدهما فى غابة شاسعة والسماء فى ليلة مقمرة ، والبحر هادر يتلمظ نهماً وفضولاً ، ومائدة سالومى الشديدة البياض ممددة عريانة على الشط فى ضوء الشموع الخافتة ، وقد صبغته كريمة ورقائق الماكيدونيا الشهية .

وعندما تنفس الصبح ، وغردت الأطيار فوق هام الشجر المزينة قواعدها بشقائق النعمان ذى الزهر الأحمر المبقع بنقط سوداء ، وهاله منظر ملابسه التى طوحها هواء البحر وفرقها بعيداً هنا وهناك ، فطفق يلملمها بسرعة كآدم حين صدمة العرى الكبرى ، وصفافير النوارس تتماذج فى السماء مع أصداء معزوفته القديمة المنبعثة من حنايا الذاكرة : « أى نشاز هذا « ، قال عبارته تلك فى سره وهو يسيح بعينيه فى أجواز السماء الغائمة ولاأثر لتلك النوارس ، ومن غير أن يدرى بنفسه ألقى أشتات ملابسه أرضاً ، وجرى عرياناً فى اتجاه موج البحر ، وهو يصرخ مستتكراً كالمجنون ، الصور تتكرر وتتداعى ، غير واضحة مطموسة ، وأصوات الماضى مشوشة لاتفسير لها ، محض شوشرة تسمع بالكاد فى قاع الذات الكليمة ، والبحر لن يلفظ شيئاً لم يأخذه :

- هل كنت تبحث عنى أم عن السراب ؟.

قالتها جوليانا التى كانت تقف وراءه مباشرة على حافة الشط وهى تجفف شعر رأسها المبلل بالمنشفة وكأنها قد تحممت للتو لتوحى إليه بشئ ما ، فاستدار ناحيتها عدنان ، وأخذ يتفرس فيها طويلاً ، ثم أطرق خجلاً وقد استطردت تسأله عن رأيه فى الماكيدونيا ، فانفجرت ضاحكة وهى تقول :

- البائسة سالومى بالنسبة لى ، لم تعرف إلا أقل القليل من حيل النساء .

فى مشهد مهيب ، بدت طلاسم ساتورنيا انترناسيونالى الغائص فى لجة من الضباب الوردى ، تتضح لهما شيئاً فشيئاً، ذلك القصر البهى المنظر، الذى يرجع تاريخه للقرن الرابع عشر، والذى تحول إلى فندق منعزل عن العالم لأثرى الأثرياء ، وكذلك للعشاق والحالمين بالعيش بمفردهم بعيداً عن الاضطرابات وسخافات البشر وغثاثاتهم ، الممتلئ بأعمال الخشب المحفور ، وتزين كل جنباته وغرفه الفسيحة الأثاثات الفخيمة ، والتحف البديعة ، والنقوش الجميلة ، والشمعدانات الزجاجية الفينيسية النفيسة، والأسقف المقببة المذهبة ، والسجاجيد التى تغوص فيها الأقدام حتى الركب ، وفى إحدى حجراته البالغة الأناقة والاتساع نزلا معاً ، كانت الشرفة الخلفية تطل على حديقة رائعة من حدائق الخيال والأحلام ، أجال عدنان نظره فى الحجرة أولاً، ثم إلى الخارج وهو لايصدق نفسه من فرط الدهشة والانبهار بالمكان، وهنالك سمعها تقول له وهى تلقى بنفسها فى الفراش الوثير:

- مادمت قد غيرت كل خططى فى الحياة فلِمَ لانبقى هنا إلى الأبد .

فالتفت ناحيتها ، وقال بعينيه ماأوحى لها باستخفافه بها وبقدراتها المالية ، وأن من أين لها بالأموال الغزيرة التى لايملكها إلا الأثرياء جداً ، فانتصبت واقفة ، وتقدمت ناحيته وقد عقدت ذراعيها عند ثدييها البارزين وكأنها تخنقهما بنار الفتنة المتأججة، وقالت بنبرة جادة لاتحتمل المزاح :

- لاتستخف بقدرات شقراء إيطالية ، وبخاصة عندما تكون مع من تحب .

- أنت يا مصففة الشعر فى بوفا مارينا ، وأنا يامن ركبت أهوال البحر ، وأنفت القذارة من رائحتى الكريهة ، وجئت مفلساً معدماً وتلاحقنى الشرطة كما تلاحق أمثالى من المهاجرين المساكين غير الشرعيين ، كم ليرة ياترى كنا سنحصل عليها من عملنا لو قدر لنا الحصول على أية وظيفة من هنا أو هناك ؟!، وأياً ماكانت طبيعة عملنا هذا فى فينيسيا أو حتى فى ميلانو عند عمك جرازيانو، فهل كان يمكننا البقاء هنا لعدة أيام ليس أكثر ، أللهم إلا إذا كنت ستكونين مالكة دار أزياء آنجيلا ميسونى لامجرد موديل عندها كما كنتِ تحلمين بفرصة للعمل هناك كمجرد ساعية لمكتبها لاأكثر ، ثم تترقين إلى .....

- لتنس هذه الخطة تماماً ، أنا أعدت ترتيب كل شئ وفقاً لرؤى جديدة وطموحات لاحدود لها .

قالت جوليانا ماقالته مقاطعة إياه بعصبية مفرطة ، وهى تشعل سيجارة كائنة فى زاوية شفتيها المطليتين بلون الذهب البندقى الساخن، وبعد أن أخذت منها نفساً عميقاً جداً دستها بين شفتى عدنان غير المعتاد على التدخين ، فشرع يسعل بشدة غير محتملة ، فيما استطردت قائلة بشرود فى خططها المستقبلية، وهى تشير له بيدها فى آن واحد كى يواصل عملية التدخين :

- بالنسبة للشرطة لاتقلق منها بحال من الأحوال ، سنيور باجانيللى سوف يسوى كل أمور إقامتك فى منطقة فنيتو وإيطاليا كلها ، وقد يمنحك تأشيرة إقامة حرة فى أوربا كلها ، وربما كان ذلك بأوراق رسمية أو غير رسمية ، لايهم ، ومن المؤكد أنه لن يتأخر عن مدنا بالعمل الذى يوفر لنا الكثير من النقود .

صمتت برهة وهى تخصة بنظرة تحد صارخة لم تخل من شرود :

- سيأتى اليوم الذى ألبس فيه مثل كثير من الايطاليات الموسرات، من ميسونى وفيرساتشى وجوتشى ، ومن ديور أيضاً وكوكتو وشانيل ومارى كوانت وغيرهم ، أما أنت فلسوف تلبس الندامة والحسرة على سخريتك منى هكذا .

كانت الدهشة تملأ عيني عدنان الدامعتين من أثر دخان السيجارة الكثيف والتى ألقى بها جانباً ، وقال كالمترنح الذاهل وهو مايزال يسعل بشدة ، ويقبض بيده على قفصه الصدرى الناتئ بعصبية :

- وأى عمل هذا الذى سيجلب لنا كل هذه الأموال الطائلة التى ستعيننا على مثل هذه العيشة المترفة ، آهه سمعت أنهم يحتاجون هنا

وبصفة دائمة إلى مراكبية مُسيرى جنادل ، حسنى المظهر ، ويتحدثون أكثر من لغة بطلاقة ، ويجيدون مد آياديهم للزبائـ........

فقاطعته جوليانا مرة أخرى ، وقالت بصرامة متناهية ، وقد لاحت فى عينيها نظرة نمرة مفترسة لانظرة القطة الأليفة التى اعتادها منها دائماً ، وكأنها قد باتت مخلوقة أخرى غير التى كان يعرفها من قبل :

- اخرس ، الوقت ضيق ، وأنت تضيعه بغبائك المقيت هذا، وأنا حتى هذه اللحظة فشلت معك فى كل شئ ، فى كل شئ ، والنقود التى فى حوزتى أوشكت على النفاد تماماً ، بعد هذه الليلة التى سنقضيها معاً فى فراش واحد ، ولعل وعسى لا أجرب معك مرة أخرى تجرع مرارة إهانة أنوثتى ياسيد الرومانسية العظيم .

لم يول عبارتها الأخيرة أى اهتمام ، بل قفز مباشرة إلى سؤال كان يلح عليه فى ذهنه آنذاك :

- كنت تكذبين إذن بشأن سنيور باجانيللى الذى يمول لنا رحلة الأحلام هذه .

- ياأبله ، مقابلة روح موسيلينى وملوك الشرق والغرب مجتمعين، أهون بكثير من مقابلة سنيور باجانيللى لثانية واحدة ، هه ألم تصدق بعد أن عملنا معه سوف ينقلنا إلى طبقة الأثرياء، أما بخصوص سؤالك عمن يمول لنا رحلتنا السعيدة هذه ، فهى من كنت عشيقها يوماً ما ، الكلبة السمراء .

- حفيظة !!؟ .

فغـر فـم عدنـان عـن آخـره ، وهـو لايصـدق ماسـمعه بأذنيـه للتـو، واستدعى بسرعة فى ذاكرته صورة الحقيبة الصغيرة البنية اللون التى كانت تضع فيها حفيظة البائسة كل مدخراتها ومصاغها ، التى جمعتها فى سنى حياتها التى لم تطل كثيراً ، فيما دنت منه جوليانا، وقد بانت فى جانبى وجهها عظمتى الصدغ تتحركان غيظاً وكمداً ، وحين تركب الإنسان نوبة غضب عارمة وهو يصر ويضغط على أسنانه ضغطاً رهيباً ، وقالت وهى تدفعه من سبيلها بحدة إلى الوراء وقد طفح بها الكيل تماماً :

- من الآن فصاعداً ، إما أن تكون طوع بنانى هذا ، أو لتذهب إلى الجحيم أيها القرد الإفريقى الدميم .

وحين جن الليل انتظر مجئ سالومى الفاتنة طويلاً ، ولكنها لم تأتِ ، فجن جنونه ، وبان إدمانه حين يدمن الإنسان على نوع خطير من المخدرات وحبوب الهلوسة ، ويصبح عاجز تمام العجز عن مفارقتها ، فشرع من فوره يفتش عنها فى كل أرجاء الفندق ، فى داخل الحجرات، وفى دورات المياه ، وعند البار ، وحول المسبح الغاص بمئات من الطبيعيين العراة السكارى من الرجال والنساء، كانت جوليانا تدعوه لكى يفعلا مثلهم ، فالتعرى ليس جريمة كما كان يقول لها بحياء واستنكار ، لأننا حين نتعرى فإننا نمارس طبيعتنا ، كان صوتها يدوى فى طبلة أذنه ، ولكن لا أثر لها .

بعد ذلك لف وجال فى الدهاليز السفلية التى تمر تحت الفندق ، ومر فى الأنفاق ثم تسلق الجسور التى تربط القنوات المحيطة بالقصر

المنيف من كل ناحية ، وصعد قمته ، ثم جرى كالمخنوق لاهثاً إلى البحر ليفتش عنها ، ويسأل أمواجه وأصدافه وفيروز الشطآن لكن بلاجدوى، فجن البحر بجنونه ، وهاج وماج واضطرب حين سمع باسم الفتاة التى يسأله عنها بلهفة ، وينشدها ويرومها من كل قلبه ، ويمنى نفسه بلحظة خلوة معها تطول إلى الأبد وقد احتوى يديها بين يديه، وأدام النظر إلى وجهها الآية الإلهية من آيات الحسن والجمال ، والبراءة البكر التى لم تزل طاهرة عذراء لم يدنسها بعد حيوان إنسى أو جنى ، ولأمر ما خيل إليه أن منديلها الحريرى قد طيره هواء البحر فى سبيله ، فراح يقفز ويثب كالمجنون المشتاق ليمسك به ، ويضمه بشوق وحنان جارفين إلى قلبه ، وهنالك أفاق من خدره اللذيذ ، وقد تبدت له شيطانة الإغواء ماثلة من بعيد عند صخرة رابية فوق مياه الأدرياتيك ، فتصلبت شرايينه ، وتجمدت الدماء فى عروقه ، وكاد يلفظ أنفاسه الأخيرة ، حين أشارت له بطرف بنانها أن يجثو أمامها على ركبتيه راكعاً ، وأن يطأطئ برأسه لها ، إجلالاً ومهابة لروعة جمالها الفتان ، وسحرها الأخاذ .

●●●

(٢٨)

انطلق القارب فى قلب المياه ، وهو يسعى حثيثاً فى اتجاه المنفذ المؤدى إلى البحر الكبير ، حيث إحدى الجزر الجبلية البعيدة التى تغطيها بكثافة طبقات من العشب الأخضر ، والكثير من الأزهار الزاهية بمختلف الألوان والروائح الزكية ، كانت قد تعهدت إليه إنها سوف تأخذه هذه المرة إلى الجنة بجلال قدرها، تلك الجنة التى يتوق إليها توقاناً أى إنسان يهفو إلى العيش فى كنف الخيال والدعة ، وجنة الأحلام الأسطورية ، فمابالـه لوكان مهاجراً غير شرعى ، لا أمل له فى حاضر أو فى مستقبل، وينتظر بين لحظة وأخرى الموت أو أن يقع فى أفضل الأحوال فريسة فى أيدى السلطات التى لاترحم أحداً ، والتى قد يوجد من بين أفرادها من يجيد تلفيق التهم الجزافية للآخرين، كى يغدو بطلاً فى نظر بنى جلدته ومهنته ، وحينها تجد الحكومة نفسها فى وضع لاتحسد عليه أمام البرلمان الايطالى إذا ماتقاعست عن زيادة ميزانية الداخلية التى تواجه حرباً شرسة لاهوادة فيها مع الإرهاب وتجار المخدرات ، بل جوليانا نفسها أقسمت له ذات مرة أنها لن تتردد فى تقديمه بيدها إلى السلطات كداعشى قحف جاء من كهوف جبال أفغانستان الصحراوية فى ستر الظلام ، لكى ينفذ جملة من العمليات الإرهابية الخطيرة ، ضد إيطاليا صاحبة المجد العريق ، وذلك إذا لم يمتثل لأوامرها ورغائبها ، ويكف عن حالة الصدود التى يبديها معها كأنثى تحرك الصخر والجماد ، وكذلك عن رومانسيته

الزائفـة ، وأفـكار القـرون الوسـطى والحـب العـذرى وخشـية إلهـه مـن ارتـكاب المعاصـى والكبائـر ، ولكنهـا أحسـت بعـد تلـك الليلـة الليـلاء أنهـا لـم تعـد فـى حاجـة إلـى ذلـك، وقـد أتاهـا حابيـاً علـى أربـع راكعـاً ذليـلاً ، بعـد أن خدرتـه ليـس فقـط بسـجائرها المحشـوة بالمخـدرات والقطـران ؛ بل بنيـران فتنتهـا اللاهبـة ، وبرقصاتهـا الجنونيـة ، واللعـب والضحـك معـاً، وانطلاقهمـا فـى رحـاب الدنيـا الصاخبـة الحُبلـى بألـوان شـتى مـن المتـع والبهـارج، وارتيـاد الأوتيـلات الكبـرى والمطاعـم الفاخـرة وصـالات الفنـون المبهـرة ، والنزهـات والرقـص حتـى الصبـاح ، والجلـوس فـى الطرقـات والحدائـق ، وعلـى الشـواطئ ، وعلـى الأرصفـة مـع العشـاق والصعاليـك ممزقـى الثيـاب ، وحـارات الهيبـز ، والثائريـن المحتجـين علـى كل شـئ دون أن يتعـرض لهـم أحـد ، أو يحـاول المسـاس بحريتهـم المقدسـة بهـراوات الغضـب الباطشـة .

وكانـت جوليانـا كالبلـورة اللامعـة ذات الألـف وجـه تحـاول بـكل دأب أن تعكس لـه صـور شـتى لفنـون الحيـاة وبهارجهـا ، كمـا كانـت تحـاول دومـاً بـث روح الأنثـى الملتهبـة فـى نفسـه ، وإشـعال جـذوة رغبتـه بـكل الوسـائل التـى تـؤدى إلـى بلـوغ المـرء حالـة مـن حـالات عـدم السـيطرة علـى النفس، فلقـد كانـت بحـق جذابـة رائعـة ، ومثيـرة أخـاذة ، وكان مـن الصعـب وهـو فـى طريقـه للهاويـة أن يتراجـع ، فقـد أدمنهـا أكثـر مـن أى شـئ آخـر ، وبـات مـن المسـتحيل أن يتخلـى عنهـا تحـت أى ظـرف مـن الظـروف ، ولـو كان هـذا الظـرف هـو ناردين ذاتهـا حبـه الأول والأخيـر ، وأنـه لامحالـة سـوف ينهـار تمامـاً مـع أول لحظـة خلـوة قادمـة تجمعـه بفاتنـة الكاريبـى، وليركـع عنـد قدميهـا معتـذراً عمـا كان منـه فيمـا مضـى ، وخذلانـه الدائـم

لها ، ثم ليسوى أهوال الرجولة الجامحة بأنوثتها الطاغية ، وليفعل بعد ذلك كل ماتمليه عليه من سكات ، وياللروعة المتناهية أن تخرج فائزة فى النهاية بالرجل الوحيد الذى أثارها ، ودغدغ بمجرد وجوده إلى جانبها مشاعرها وحواس أنوثتها الفائرة من بين كل رجال العالم؛ من رأتهم ومن لم ترهم بعد ، وياله من ألم كذلك ألا يحفل بها مثل هذا الرجل الذى رأته أسطورياً وفارساً من فرسان الأحلام الذى قلما تجود الحياة بمثلهم ، أوأن يأتيها إحساس ما وهو فى أحضانها أنه مع غيرها ، وان لثم وجنتها ومس بشفتيه زاوية شفتيها ، أحست وكأنه يقبل امرأة أخرى غيرها ، وانتفض راجعاً القهقرى كمن مسته صاعقة، أو قبل شيطاناً مريعاً : «أجل لقد أصبحت شيطانة من أجلك ومن أجل الحب والرغبة» ، هكذا كانت تقول له فى نفسها التى كانت تغلى كالمرجل ، وتمادت فى القول السرى لذاتها حتى كاد يصيبها الانهيار التام : « والحب برئ وإنك لكذلك ، هيه أَمافيه أنا «الواقع» أم «الوهم والخيال والعبث»؟ ، أهو الحب حقاً أم وهم النصف الآخر الحتمى، أم لعبة قدرية كتب على أن أحياها مرغمة ، وأن أنزلق إلى حضيضها القذر ، حتى فعلت مالم يفعله سنيور ميكافيللى اللعين نفسه بدهاقنة السياسة والبلاط الكنسى ، كى أخرج منتصرة فى النهاية ، وأياً مايكون الثمن الذى سأدفعه !».

حقاً لقد كان كل دأبها ، وجل عملها فى الآونة الأخيرة هى اللعب على وتر الروح والمبادئ والضمير ، ولقد كانت تلك هى خطة الإفساد الدنيئة التى وضعتها فى نفسها لكى تُخرج من قلب حبيبها حبيبته إلى الأبد ، تلك الجنية الدميمة التى تلبسته باسم الحب والهوى ناردين ،

والتـى كاد عدنـان الموتـور يمـوت غـرقـاً بسـببها ، ولحظـة فكـر فـى العـودة سـابحاً مـن السـواحل الإيطاليـة إلـى الشـاطئ البعيـد ، حيث بلـده الحبيب الـذى تقطـن فيـه حبيبتـه، نصفـه الآخـر ، فكانـت تلـك لحظـة انفجـار قنبلـة الغيـرة فـى نفسـها، وكانـت تلـك الخطـة القـذرة ، خطـة قتـل الـروح ، وتدنيـس الجسـد ، مـن أجـل بلـوغ هدفهـا وان انحـط مـن الرقـى والبـراءة إلـى السـفول والدناسـة !.

ولكـى تخـرج منتشـية بالنصـر مـن هـذه المعركـة ضـد غريمتهـا اللـدود التـى لاتعرفهـا ولاسـبق أن التقتهـا يومـاً مـا مـن قبـل «ناردين»؛ غيـرت الكثيـر مـن مبادئهـا ، وقـررت أن تكـون شـيطانة أكثـر مـن الشـيطان نفسـه ، وراحـت تتمـادى فـى رسـم خططهـا الجهنميـة بالنسـبة للمسـتقبل ، فقـررت أن تذهـب بصـورة اقتحاميـة إلـى عريـن الأسـد سـنيور باجانيللـى رجـل الأعمـال العالمـى والسياسـى الداهيـة، أو أحـد أشـهر عتـاة الاجـرام فـى العالـم ، والمحـرك الخفـى لكثيـر مـن الكـوارث العالميـة بحسـب ماتتداولـه صحـف التابلويـد الصفـراء ، والـذى يحيـا حيـاة الملـوك العظـام ، فـى قلـب كهـف جبلـى فـوق جزيـرة تشـبه جنـة عـدن ، قريبـة إلـى حدمـا مـن السـاحل الأدرياتيكـى ، ثـم لتذكـره ليـس بنفسـها ، وإنمـا بلمسـاتها المثيـرة ونظراتهـا السـاحرة، وأنهـا هـى مـن دلكـت جسـده البديـن فـى جلسـة مسـاج شـاعرية، ونتفـت لـه شـعر صـدره الطويـل ، وقلمـت لـه أظافـر قدميـه حـين كان فـى زيـارة قصيـرة إلـى بوفـا مارينـا ، وأن لـم تنـس هـى دعوتـه إياهـا آنـذاك لزيـارة كهفـه الأسـطورى فـى الأدرياتيـك ، وقـد جلـس يتطلـع إليهـا باعجـاب شـديد مـن فـوق مقعـد مرتفـع وهـى جاثيـة أمامـه كجمـرة اللهـب، وحـين تجـرأ ومـد إصبـع قدمـه الكبيـر بغيـة ملامسـة نهديهـا البـارزين شـبه

المكشوفين ، شكته بسن مبرد الأظافر الذى كانت تحمله فى يدها ، وهى تسبه بنظرة عينيها الزرقاوين الواسعتين ببذئ الألفاظ وأحطها، والتى كان بلاشك يستحقها متحرش حقير مثله ، فكتم الرجل تأوهة ألم شديدة وقال متماسكاً وابتسامة تعلو شفتيه :

– الكل هنا فى بوفا مارينا ، بل فى ربوع العالم كله ، يقف على قدم وساق من أجل خدمتى ، صرختى لوأطلقتها من فمى بسبب شكة رأس مبردك الحام ، لكانت سبباً فى رفتك من عملك فى الحال ، والزج بك فى غياهب السجون ، وربما موتك، أنت ياصغيرتى بالنسبة لهم لست أكثر من حشرة حقيرة إذا تعرضت مصالحهم معى للخطر، أما أنت بالنسبة لى فاختيارى الوحيد منذ البداية من بين عشرات الحسناوات ؛ لكونك الملكة التى يشرفنى أن ألتقيها ذات يوم فى فراشى الفينيسي الوثير .

ثم دس ورقة مالية كبيرة برقم هاتفه السرى بين ثنايا صدرها الكاعب ، وهو ينظر إليها نظرة من يقول : كان فى إمكانى أن آخذك غصباً كدأبى حين أريد شيئاً ما ، ولكن سوف تأتيننى أنت بقدميك وبمحض إرادتك التامة .

وحين دارت الأيام دورتها ، وتناست الشموع التى أوقدتها أسفاً للرب وأمه العذراء ، فى الكنيسة المجاورة لصالون تصفيف الشعر الذى تعمل فيه ؛ لاستكانتها لحظة تقبيله اياها كأية خاطية مدنسة، قبلة كانت أقل ماتوصف به أنها شيطانية وقحة، فهاهى وبعد أن أسقطت برغبتها ورقة التوت عنها ، قد تحدثت إليه عبر الهاتف

الخلوى وهى على مشارف الدخول إلى فينيسيا لحظة قدومها من بوفا مارينا ، فدعاها للمجئ فوراً إلى جزيرته الساحرة مع صديقها ، ولكنها أخبرته بعد ذلك أنها لاتريد أكثر من حجرة صغيرة على الأقل فى هذه المرحلة ، حيث كانت تعد العدة وتدبر التدابير من أجل إخراج ناردين غريمتها من قلب فارسها المصرى إلى الأبد ، وقبل الذهاب إلى فردوس باجانيللى الساحر ، وهاهى ذى بعد المجهود الجبار الذى بذلته مع عدنان فخرى ، تشعر بالزهو والفخار وهى ترى الانكسار قد ضعضع من أوصال إرادته وعزيمته تماماً ، وقد أصبح مثل حمل وديع فى غاية الخنوع والاستسلام لها ، وأنه لم يعد يرى غيرها من بين نساء العالم أجمعين ، حتى ناردين نفسها لم تعد تمثل له أى شئ، أكثر من كونها ذكرى جميلة نعم ؛ ولكنها عابرة وولت إلى حال سبيلها، وإن لم يكن فبالقوة الجبرية يجب أن تتقشع صورتها إلى الأبد ، إنها الماضى بكل مايحمله من ألم وفقر ومعاناة وحياة أشبه بالمستحيل ، فى بلد لم يعتد الناس فيه على شئ غير تعاطى المسكنات والمهدئات لنسيان أمر عيشتهم الصعبة التى يحيونها ، وإلا لما ثاروا وانتفضوا على الحياة المليئة بالكبت والأوجاع والهوان وهتفوا فى صوت واحد : عيش ، حرية ، كرامة ، عدالة اجتماعية.

وإلا لما فكر الآلاف منهم كذلك فى الخلاص وركوب بحار الظلمات والأهوال العظيمة بحثاً عن حياة أخرى ، وبر آخر أكثر دعة ورفاهية وحرية وأماناً ، وليس البر المشحون بالنكد والحقد والرشاوى والمحسوبيات والواسطة ، ولو كنت واقفاً فى طابور أمام مخبز بلدى فلامفر من الواسطة مع كثير من الذل والرياء ، فعلام يفكر العصفور

الجريح الذى فر من القفص الحديدى فى العودة إليه ثانية ؛ وان كان يحوى بين قضبانه الحبيبة والأبناء والأهل والخلان ، أما هنا حيث هى فقد باتت بالنسبة له شعاع النور الضاوى الذى بدد له ظلمات الحياة التى كانها ، ولتمنحه الحياة الأخرى المتخمة بالمتع والرفاهية والسعادة التى يجب أن يكونها ، والتى لامفر من عيشها ، فلما لايكون جل همه واهتمامه بعد ذلك بالحاضر والمستقبل ، وليس النظر إلى الخلف والماضى البغيض ، وليعشق الفتنة والجمال والمال والنساء والجنة الموعودة ، التى هى ذى آخذه بيده إليها الآن ، إلى دار النعيم الأرضى حيث جزيرة الأحلام والثراء الفاحش ، ومتع الدنيا بأسرها ، وليخرس إلى الأبد صوت المبادئ والضمير ، وكفاه ثرثرة توجع الرأس .

كذلك لم تبال جوليانا البتة بنداءات ضميرها الخافتة العاتبة عليها، والمؤنبة لها بعد تخليها عن المبادئ الأخلاقية والتعاليم الكنسية ، فصمت أذنيها عن أجراس الكنيسة ولعنة الرب ودموع مارية السخية ، صمتهما بكلتا يديها وحتى لاتسمع همسات ضميرها الصارخة وسط جنون ومتع الدنيا الصاخبة ، وبخاصة بعد أن راحت تفكر فى وسيلة ما تمهد بها السبيل لعدنان كى يقبل مستقبلاً بفكرة وجود شريك له فى جسدها من آن لآخر، وأن هذا سوف يعود عليهما بالنفع والفائدة إلى أقصى حد لا يمكن تصوره .

نامت جوليانا قريرة النفس هادئة البال على كتف عدنان، وفردت خصلات شعرها الذهبية الطويلة على ساقيه ، وقد أطلقت شعاعاً لانهائياً من طاق عينيها شبه الناعستين إلى مرمى البصر ، أى روعة هذه ، وأى

حلم رائع هذا ، حيث قصور الأحلام ثاوية فى خضاب السحب ، وقد حدقت بها أطيار السماء المغردة بموسيقى الخلود الآسرة وهى سابحة مع فارسها المفدى فى فضاء سرمدى لابداية له ولانهاية ، والذى قدر لها أن تصارع الأقدار صراعاً مريراً من أجله ، ومن أجل انتزاعه من بين أحضان حبيبته، حبه الأول والأخير ، فياللروعة المستحيلة التى تجمع الثراء مع النصر والحب وسحق الغريمة ، ولِمَ الحديث عن دُمية حطمتها وتملكتها تماماً بيديها لحظة الانتشاء بقهر الغريمة ، أى نشوة ! ، وسل النساء عن متعة قهر النساء للنساء ، هكذا كان لسان حال الصورة الكائنة، حيث عدنان لايبدى أى آية من آيات الإحساس بالحياة ، مرخى الرأس ، محنى الظهر، منطفئ العينين ، غير آبه بالجهة التى يسير القارب ناحيتها، ولو كانت هذه الجهة هى جهنم الحمراء ذاتها ! ، وكأنه قد صار بلاروح أو إرادة ، حتى مجرد سؤال الفضول الذى قد تطرحه النفس عفواً فى أعماقها عن المصير والقادم والمستقبل المنظور ، لم يجل فى دخيلته ، بل لم يلق له بالاً من الأصل وكأنما قد وقع عقد استسلام أبدى مع المجهول، باع من خلاله نفسه وكل شئ يملكه أو يخصه ، حتى ذكرياته وماضيه بات محرماً عليه الولوج ولو خفية إلى سراديبها السرية ، هو الموت ذا إذن الذى وقع على قبوله طواعية ، ليحيا حياة أخرى مع إنسانة قررت أن تكون شيطانة أكثر من الشيطان نفسه ، شيطانة لم يعد يعنيها أى شئ فى الحياة غير الفوز والقنص ، ولوكانت جائزتها فى نهاية المطاف جثة هامدة لا أكثر ولا أقل !.

كان من يرى عدنان فخرى فى تلك اللحظة يحكم للوهلة الأولى أن ملك الموت بصدد إخراج روحه من حلقومه ، بل لم يدر عدنان

نفسـه بـأى قـوة يمكنـه بهـا انتـزاع روحـه مـن بـين براثـن المـوت، وأى قـوة مسـتحيلة تلـك التـى حلـت ببدنـه الوهنـان لحظـة قفـزه بصـورة فجائيـة مجنونـة فـى قلـب ميـاه القنـاة مغـادراً القـارب، وقـد ارتمـت علـى أثـر اندفاعـه الرهيـب جوليانـا مفترشـة أرضيـة القـارب الخشـبى ، والتـى هبـت كالمصروعـة صارخـة وهـى تهتـف بـه متشـنجة بـكل طاقتهـا كـى يرجـع ، وهـى لاتصـدق نفسـها ، وأن ماحـدث كان يمكـن أن يحـدث ؛ وبخاصـة بعـد أن خيـل لهـا شـيطانها أن كل شـئ تحـت السـيطرة التامـة ، وفـى قبضـة اليـد ، وطـوع البنـان، ورهـن الإشـارة ليـس أكثـر ، فقفـزت فـى المـاء كالمغيبـة محاولـة اللحـاق بـه بأيـة وسـيلة ، وقبـل أن يضيـع منهـا إلـى الأبـد، وكلماتهـا القديمـة تصـرخ بـه بجنـون : «أن تعـال أيهـا الغمـوض الضبابـى ، أيهـا الانقيـاد الأعمـى ، أيهـا الشـئ الـذى ليـس لـه أى سـبب أو تفسـير ، ولكنـه السـبب وراء كل أفعالـى المبهمـة وسـعادتى ونشـوتى الغامـرة فـى الحيـاة ، آه ه ه يامـن أفقدتنـى وعيـي وقدرتـى فـى السـيطرة علـى نفسـى وأفعالـى تعـال ، ارجـع» ، آنـذاك كلماتهـا وتأوهاتهـا الكليمـة، كانـت تخـرج مـن فمهـا فـى قلـب ميـاه البحيـرة فـى هيئـة رغـوات وفقاعـات لاحسـر لهـا ولامعنـى !.

ظلـت الشـقراء المثيـرة تسـبح فـى أثـره بـكل مـاأوتيـت مـن قـوة وعزيمـة، وهـى لاتعـرف لمـاذا فعـل عدنـان مافعلـه ، أو كيـف واتتـه القـدرة علـى التخلـى عنهـا هكـذا بسـهولة ، وقـد جننتـه وسـحرته بأنوثتهـا الطاغيـة ، وسـلبته إرادتـه تمامـاً حـين فرشـت لـه الحيـاة بـكل بهارجهـا ومتعهـا علـى طبـق مـن ذهـب ، وهـو المهاجـر غيـر الشـرعى البائـس المسـكين الـذى دهسـته الحيـاة بقدميهـا المهولتـين ، ووجههـا العابـس الوحشـى ، فركبهـا شـيطان الشـك فـى كل شـئ ، حتـى فـى وجودهـا هـى ذاتهـا ، وجـن جنونهـا تمامـاً ، كلمـا

كان يبتعد عنها ، ويتلاشى من أمام عينيها شيئاً فشيئاً ، والذى أخذ يسبح ميتاً ناحية أحد الأرصفة القاصية لمدينة فينيسيا العائمة على بحر الخيال ، كانت قواه خائرة تماماً ، والدماء مجمدة فى عروقه ، ولكن كان الهدف الذى يسبح من أجله أسمى وأعظم بكثير من أن يسلم روحه للموت ، ذلك الهدف الكبير الذى يدفع بالمرء دفعاً كى يحرر نفسه من إسار الموت ويقتله !.

كان كهف السنيور باجانيللى الذى تغطى كل جنباته الفسيفساء الملونة ، والمموهة بمياه الذهب والفضة الخالصين ، والمرصعة بفصوص من الجواهر واللآلئ والأحجار الكريمة النادرة على الطراز البندقى الشهير، غير أى قصر فى الوجود يمكن أن يتوقع المرء رؤيته على وجه الإطلاق ، بل قد يكون أى قصر إلى جانب كهف باجانيللى الذهبى المرشوق فى قمة رأس الجبل عند المقارنة لايساوى أكثر من عشة حقيرة ، كان باجانيللى الذى يقف بقدميه على أرضية من الألماس الخالص المنعكسة عليها من كل ناحية أضواء الثريات الكريستالية المتوهجة؛ رجلاً دميماً جداً كالقرد، وبديناً كالخنزير، ويداعب طاووساً غاية فى الجمال والروعة بيده اليسرى، ويقول وهو يشير بسبابة يده اليمنى فى أكثر من اتجاه :

- هذه السبابة تتغير معها خريطة العالم متى أشارت إلى هنا أو هناك ، ولو شئنا أن نقيم ألف دولة أخرى كالتى تكرهونها حتى النخاع فى منطقتكم فلن يعيقنا عن ذلك أى عائق كان .

صمت باجانيللى هنيهة قال بعدها وهو يتقدم بخطى ثابتة إلى ناحية ما ، وهو يصوب نظراته الحادة النارية إليه :

- هه، لم يكن من الطبيعى أن نترك خرائطنا السرية القيمة، والكثير من الأسرار الأخرى التى دونتها عن عملائنا السريين فى مصر ، فى حوزة ديوث أبله ساذج مثلك .

- أنتم من أخذ إذن الملف من جهازى بالمؤسسة التى أعمل بها!!.

ضحك باجانيللى ضحكة مدوية وقال :

- وقريباً جداً سوف ننجح فى دس آثارنا المزيفة فى باطن أرضكم ، التى عاونتنا بكل إخلاص على إدخالها إلى أراضيكم ، ثم لندع أية بعثة أثرية تستخرجها بمحض الصدفة ، الصدفة المرتبة ، ياله من تعبير مذهل هاهاها ، وليشهد بعد ذلك العالم كله بدورنا العظيم فى صناعة الحضارة المصرية القديمة .

صمت باجانيللى قليلاً ، وقد شرع يتأمل فى ذيل طاووسه الذهبى الذى انتفش فى هيئة نصف مروحة دائرية ، وكأنه الانعكاس البديع لقوس قزح الذى كان يلوح فى صفحة الأفق من بعيد ، ثم واصل حديثه الخطير قائلاً وهو يديم النظر من علٍ إلى السفح ، حيث بدت الجزيرة مفترشة الأدرياتيك كالحلم الأخضر الجميل ، وقد ازدانت بمئات من الأشجار والأزاهير الملونة الزكية الرائحة ، وبالقرب من مياه الشط الذى كان يغص بمئات الحسناوات اللائى رحن يسبحن عاريات تماماً فى مياه البحر المنعشة ، وقد قف رجال الحراسة بأسلحتهم الآلية الفتاكة فى كل جنبات الجزيرة ، وهم فى حالة تأهب قصوى يدققون

النظر فى كل غاد أو رائح ولو كان شحروراً حط فوق شجيرة من أشجار الجزيرة المترامية الأطراف :

– كم من فكرة على مر التاريخ احتاجت إلى مخلصين من أمثالنا كى يدعمونها ، ويمررونها تحت أى مسمى كانت ، خذ مثلاً، المخلصون هم من زرعوا الكثير من الحفريات فى باطن الأرض ، وصوروا التصاوير المتقنة جداً لكى تشبه الحقيقة تماماً، والتى أعانت السيد دارون كثيراً على تمرير فكرته المجنونة حول أصل الأنواع ، والقفزات التطورية الهائلة ، هاهاها .

ظل باجانيللى يضحك طويلاً ثم تغيرت نبرة صوته فجأة إلى الجدية المطلقة :

– الانسان آلة ، الانسان حيوان ، حشرة ، سمكة ، الانسان أى شئ ، المهم ألا يكون إنساناً ، أن يكون طبيعياً مثل شقرواتى اللائى يسبحن فى المياه .

كان ينظر ببلاهة وغباء متناهيين وهو يلاحق بعينيه سنيور باجانيللى ، الذى راح يتقدم للأمام وهو يتأمل فى اللوحات الزيتية العالمية التى تزين جدران المكان ، وقد مهرت بتوقيعات أشهر فنانى العالم على مر الأيام والعصور ، ثم مالبث أن استدار قائلاً:

– الكثير من هذه اللوحات تافهة لاتساوى ليرة ايطالية واحدة ، ولكن نحن جعلناها قيمة تساوى الكثير جداً ، ومنحنا أصحابها الشهرة الواسعة التى لايستحقها أكثرهم ، بلى ، ألسنا أمهر محركى الدمى على وجه الإطلاق ، هاهاها .

غرق باجانيللى فى نوبة جديدة من الضحك ، حتى تطوحت رأسه إلى الوراء ، وهو يحرك بطريقة إيمائية أنامله للأمام وكأنه يقوم بتحريك عرائس مشدودة بالخيوط إلى يديه ، بعدها اعتدل فى وقفته ثم استرسل فى حديثه قائلاً ، وقد اقترب كثيراً من شفيق وجدى الذى كان يبدو وكأنه فى واد آخر :

- نحن نخدم العلم الذى يخدمنا ، وكذلك التفاهة ، ونبحث عن أعظم الحكم والأفكار، والتى يمكننا التصدى بها لأفكار الآخرين، ودحرها بقدر مانستطيع .

- ولكن ماشأنى أنا بكل هذا سنيور باجانيللى ، هذا الكلام لايعنينى بالمرة ، مايعنينى حقاً فى الموضوع هو رضاكم عنى ، وأننى كنت ومازلت خادمكم المطيع و.................

قالها شفيق وجدى الذى وقف كفأر مذعور بين يدى مجموعة هائلة من الحراس الضخمى الجثة ، المدججين بالأسلحة ، فالتفت باجانيللى ناحيته ، وأسكته بإشارة من يده ، وقال :

- لم آذن لك حتى تتكلم أيها القرد القمئ ، أنت كنت خادماً للمال ولنفسك فحسب ، وكفى أنك كنت تخدم قضيتك أكثر مما كنت تخدم قضيتنا نحن ياعبد الدولار ، أم نسيت يا تيس التيوس زوجتك التى قدمتها عريانة كما ولدتها أمها على طبق من ذهب للكلب عتمان الديب وغيره وغيره .

أطرق شفيق أرضاً برأسه ، ولكنه أسرع برفع هامته وحاجبيه لأعلى بطريقة تمثيلية علامة الدهشة والاعتراض المصطنع قائلاً:

- مَنْ قال ؟! ، هـذا ليس صحيحاً، أقسم بكل الايمانات الغليظة، أن هـذا لـم يحدث قـط.

- اخرس، نحن نعرف كل شئ عن عملائنا أكثر مما يعرفون هم عن أنفسهم.

- لقداستعنت به وبغيره من أجلكم خدمتكم أنتم ، وليس من أجل أى شئ آخر كما تظنون ، عتمان الديب على سبيل المثال، هو مثل جذور الشجرة الضاربة فى أعماق الأرض، غارز بشدة فى خفايا الحياة السياسية والاقتصادية المصرية ، وكثيراً ماحملت إليكم المعلومات التى تهمكم من فمه مباشرة.

- حسناً حسناً .

ثم دامت فترة صمت بدت لشفيق المتوتر كالدهور ، تأمله خلالها سنيور باجانيللى بنظرة من اتخذ قراراً ما وقال :

- نحن عادة لانترك أثراً فى ظهورنا .

- ترو ياسيدى ، أقسم لك أنه مازال فى جعبتى الكثير الذى لم أقدمه لكم بعد .

قالها شفيق بنبرة خوف بالغة ، وكأنما قد فهم مغزى مايدور فى رأس الخواجة الايطالى ، والذى استغرق طويلاً فى ضحكة مجلجلة ، وبعدها قال وهو يمسحه من أعلاه إلى أسفله بنظرة إهانة لامثيل لها :

- دورك فى الرواية على أية حال قد انتهى بإشارة من سبابتى هذه التى تقيم الدول وتقعدها .

كانت ضربة قوية فى البطن بكعب البندقية الآلية التى يحملها أحد الحراس بيديه ، كفيلة بأن تسقط شفيق وجدى على الأرض صارخاً من فرط الألم ، فيما دنا منه باجانيللى ، ووطأ رأسه بكعب حذائه الثقيل ذى الأسنان الحديدية المدببة الحادة ، ثم أخذ يفعصها فعصاً بشعاً حتى كاد يهشمها كما لوكانت لفأر حقير ، ويسويها بالأرض التى تلطخت بشلال من الدماء الحمراء القانية :

- قل أن غباءك هو الذى أرسلك إلى هذه النهاية الحزينة.

كان دوى طلقات الرصاص المكتومة يرج أرجاء فينيسيا رجاً عنيفاً، القناصة المحترفون انتشروا فى كل مكان، كانت ناردين التى قبلت المجئ مكرهة إلى فينيسيا، على أمل الوصول إلى ابنها الحبيب البائس خالد ، وكما كان يمنيها بذلك المساوم النذل الحقير شفيق وجدى، قد صارت هى الأخرى هدفاً لرجال باجانيللى، الذين اقتحموا عنوة وبصورة فجائية فجة غرفتها فى الفندق الذى كانت تقيم فيه مع زوجها ، ولكن من حسن حظها أنها كانت واقفة فى الشرفة غير المرتفعة كثيراً عن أرض الحديقة الخارجية، فقفزت بصورة لا إرادية ، وركضت بسرعة الريح بملابسها البيضاء الهفهافة التى جعلتها تبدو كالملائكة الأطهار حين يعرجون فى السماوات العلا ، وهى لاتدرى أنها تسابق الموت نفسه ، وأنها قد باتت هدفاً فى معركة تصفية جسدية بالدرجة الأولى ، وان كانت تتوقع دائماً مثل هذه النهاية السيئة لمشهد حياتها القصيرة المليئة بعذابات الدهور كلها ، لِمَ لا وزوجها المجرم الخسيس الذى قبل اللعب مع الشيطان قد جرت تصفيته مثل كلب

أجـرب ، وبـات مـن المحتـم الـذى لامفـر منـه البتـة تصفيـة كل أثـر يتعلـق بـه، والـذى قـد يضـر مسـتقبلاً بباجانيللـى وعصابتـه الدوليـة الملعونـة ، والتـى تتخفـى وراء مئـات المسـميات الخادعـة ، والواجهـات المنمقـة المبهـرة ، وهـى تبطـن فـى أعماقهـا ماتبطنـه مـن شـر رهيـب ضـد البشـرية جمعـاء .

أحس وهـو فـى القـارب ، لحظـة دفعـه للفتـاة الشـقراء بعيـداً عـن سـبيله، ثـم قفـزه فـى الميـاه البـاردة المثلجـة أن نوبـة الخـداع البصـرى قـد عاودتـه مـن جديـد ، وأن الهـلاوس ترسـم لـه الصـور بحسـب مايتخيلهـا هـو، لا بحسـب ماتكـون حقيقتهـا هـى ، فـأى عاقـل هـذا الـذى يقـول أن هـذه الجميلـة البيضـاء ذات الشـعر الأسـود الغطيـس الطويـل الأهـوج المتطايـر، والتـى ترتـدى عبـاءة الملائكـة الناصعـة البيـاض المتماوجـة المرسـلة إلـى السـماء مـع أيـدى الريـح العاتيـة ، هـى حبيبتـه وتـوأم روحـه وكل شـئ فـى حياتـه «ناريـن صبـرى »، والتـى تجـرى هكـذا بجنـون فـى شـوارع فينيسـيا الصاخبـة بـين آلاف مـن السـائحين ، وميـاه البحـر الأدرياتيكـى الزرقـاء الفائـرة قبالتهـا علـى مرمـى البصـر ، ومـن خلفهـا يركـض عشـرات مـن رجـال ونسـاء القناصـة التابعـين لسـنيور باجانيللـى وعصابتـه الدمويـة، ويدفعـون النـاس دفعـاً مـن طريقهـم مـن أجـل ادراكهـا والقضـاء عليهـا بأيـة وسـيلة ، فـى مشـهد يفـوق فـى تفاصيلـه العشـوائية أضغـاث الأحـلام بكثيـر، وكأن الـذى يكتبهـا مهلـوس عربيـد يجلـس علـى بـار عفـن فـى خمـارة موبـوءة لاتطـاق.

وحـين اندفـع عدنـان خارجـاً مـن قلـب ميـاه القنـاة المثلجـة مرتعـداً مـن فـرط برودتهـا ، كانـت المسـافة التـى تفصـل بينـه وبينهـا عشـرات مـن الأمتـار، ولكنـه أحـس بمعجـزة افتئـات رهيبـة علـى عاملـى الزمـن والمـكان تحـدث أمـام عينيـه، ففـى لمـح البصـر ألفاهـا بشـكل أسـطورى

ممددة بين يديه فيما يشبه عمليات الخداع المونتاجية عالية التقنية، السحرة يستغلون دائماً لعبة التخييل والتشويش بين العين والعقل لصناعة لحظة غفلة ، يطرحون خلالها على النظارة صورهم الخادعة المستحيلة التى لايصدقها عقل ، فأين يكون ذلك الساحر الخفى الذى لم يره أبداً ، والذى دفع بحبيبته إليه هكذا من آخر الدنيا على هذا النحو المثير للعجب ، كما دفع بها إليه من قبل عدة مرات ، ولكنه ولأول مرة فى حياته يحس أنه لاوجود لسحر أو ساحر فى الأمر، وأنه لم يغفل أبداً، وأن الغفلة والأوهام هروباً لاشعورياً من صنع الخيال ، تريح نداء الأمانى الثاوية فى أعماق النفس البشرية ، وأنه منتبه للغاية وحاضر الذهن دائماً وأبداً ، وبخاصة فى تلك اللحظة الأسطورية بالذات؛ والتى كان يحدق فيها بملء عينيه فى قاع عينيها السوداوين الوسنانتين، والممتلئتين بطوفان هائل من الصور والذكريات التى جمعتهما معاً فى عالمى الواقع والغيب ، والخيال والأمانى الجميلة، وقد أدامت إليه النظر طويلاً فى مسافة زمنية جد قصيرة لم تتخط الثانية الواحدة بحال من الأحوال، ولكنها بدت هكذا من فرط عمقها وبما تحمله فى طياتها من كلمات رقيقة ، وأشواق دافقة، ومشاعر بريئة طاهرة لايمكن وصفها، ثم ترنحت وتهاوت فى أحضانه ، فصرخ باكياً بتشنج جنونى وهو لايصدق نفسه، وقد أوشك أن يحملها بين جناحيه، ويصعد بها مهفهفاً فى درج سلم المؤدى إلى السموات العلا، حيث الأمان والراحة والحب، وعناية الله سبحانه ورحمته الأبدية بعباده المكروبين :

- ناردين ، حبيبتى .

وعلـى عكـس ماتوقـع ، دفعتـه مـن صـدره الناتـئ ، بـكل مـاأوتيـت مـن قـوة اندفـاع الـروح ، كـى يعـود فـى الحـال إلـى بحيـرة الميـاه التـى خـرج منهـا للتـو ، وهـى تـدس خلسـة فـى قبضـة يـده شـيئاً مـا صغيـراً داخـل لفافـة جلديـة ، وتقـول لـه فـى الوقـت ذاتـه بحـرارة الحـب اللاهبـة، وانسـياح الـروح فـى الـروح ، وعيناهـا السـاحرتان تتواريـان وراء غلالـة الخلـود السـرمدية شـيئاً فشـيئاً :

- حبيبى ، اعط هذه لمصر .

هنالـك لـم يعـد للحديـث عـن عمليـات الخـداع البصـرى التـى عـاش فـى وهمهـا طويـلاً أى مجـال يذكـر ، وقـد غـاص منهـاراً تحـت سـطح ميـاه البحـر ، وظـل باقيـاً لفتـرة طويلـة وأكثـر ممـا يحتملـه بشـر سـوى ، ومئـات الرصاصـات منطلقـة فـى اتجاهـه مـن كل ناحيـة، وهـو يسـبح بـكل طاقتـه هربـاً مـن المسـتحيل ، فيمـا كانـت نـوارس البحـر علـى موعـد واتفـاق ، ففارقـت كلهـا دفعـة واحـدة أدواح البـر ، جسـر التنهـدات وقنـوات المدينـة العائمـة ، أشـرعة المراكـب وسـوارى الجنـادل ، قمـم الجبـال وأسـطح الأبـراج العاليـة ، أرصفـة مينـاء البندقيـة القديمـة وسـائر منطقـة فنيتـو علـى رحبهـا ، ولحقـت بهـن مـن بعيـد أخواتهـن مـن الشـط السـكندرى وشـريط المتوسـط السـاحلى بطولـه وعرضـه وتقاسـيمه وتعاريجـه الدوديـة اللانهائيـة، وراحـت أسـرابهن تعلـو وتعلـو ، وتحـوم فـى موكـب مهيـب مـن حـول النعـش الملائكـى الأبيـض الطاهـر الرقيـق ، السـابح كالطيـف فـى عنـان السـماء ، وهـى تشـدو وترتـل لحـن حياتـه القديـم بنغمـات ذات شـجن حزيـن ، تجاوبـت معهـا أصـداء الوجـود ورددتهـا فـى خشـوع قدسـى !.

تمت

حقوق الطبع محفوظة للناشر

أطلس

للنشر والإنتاج الإعلامى

يحظر نشر أو اقتباس أى جزء من هذا الكتاب إلا بعد الرجوع إلى الناشر